هذا العدد

كان من المقدر لهذا العدد من « المعرفة » أن يحتوي على ملف خاص بأبي الفداء بمناسبة مرور سبعمائة سنة على وفاته ، وكان في تقديري ان هذا الملف يمكن ان يسهم في تقديم ابي الفداء للقارىء من وجهة نظر تاريخية ونقدية في آن معاً .

غير انفرصة اتاحها لي المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، مكنتني من قراءة جميع الابحاث والدراسات التي سوف تلقى في المهرجان الذي تعده وزارة التعليم العالي باشراف المجلس الاعلى احتفالاً بهذه المناسبة .

وحين فرغت من قراءة هذه المجموعة القيمةمن الابحاثوالدراسات، ادركت ان الامر يستحق اكثر من ملف ، وانه يمكن ان يخصص عدد بكامله لنشر الجزء الاعظم مما سوف يقال في المهرجان .

وقد صادف تقديري هذا، تقدير مماثل أبداه المسؤولون في وزارة التعليم العالي وفي المجلس الاعلى، وأظهروا حماسة منقطعة النظير لانجاز فكرة تخصيص عدد من المعرفة لهذه المناسبة، فكان هذا العدد الذي نعتقد انه يضم من الابحاث والدراسات مايقدم صورة وافية عن المؤرخ والجغرافي العربي ابي الفداء صاحب حماة.

غير انني أحب ان اسجل الملاحظة الآتية، وهي ان الغالبية العظمى من هذه الابحاث والدراسات لم تمض بعيداً في محاولتها تقديم ابي الفداء من وجهة نظر تاريخية ونقدية في آن معاً، وانما غلب عليها الاهتمام بتقديم ابي الفداء من وجهة نظر تاريخية فحسب. واذكر انني التقيت بالدكتور سهيل زكار، وهو احد المشاركين في هذا العدد، وسمعت منه في حوار اجريته معه في برنامج «الندوة الثقافية» من اذاعة دمشق، اننا قرأنا ابا الفداء تحت تأثير الاهتمام الذي لقيه في اوربا في القرنين السالفين، وهو اهتمام كان منشؤه ان ابا الفداء كان من الايوبيين، وكان في الوقت نفسه ملكاً ومثقفاً، وكانت ظاهرة الملوك والامراء المثقفين منتشرة في اوربا في ذلك العصر. وكان من رأيه ان مايقال عن منهج ابي الفداء في تعليل التاريخ ونزعته العلمية في التأريخ، فيه قدر كبير من المبالغة، وان في كتابه الذائع الصيت «المختصر في اخبار البشر» الكثير من العيوب التي لاتخفى على النظرة الفاحصة المدققة. وقد يكون العذر في غياب هذه النظرة النقدية غياباً جزئياً، هو ان المناسبة احتفال بذكرى ابي الفداء، والاحتفال له صفة التكريم، وهذا التكريم يعفي الكتاب والمؤرخين من مهمة النقد التي لابد وان تنقص من قدر من اقيم الاحتفال احياء لذكراه.

رئيس التحرير

أبو الفداء

الدكتور عبد الرحمن حميدة

لم يكن اسم ابي الفداء غريبا عني تماماً ، فقد كنت أقرأ اسمه مراراً على ابواب الفنادق، او على زوايا بعض الشوارع، كما كنت اعرف ان مدينة حماة تلقب بمدينة ابي الفداء، وهذا مبلغ علمي عن هذا الرجل حتى بعد تخرجي من الجامعة السورية .

غير ان معرفتي به كجغرافي تعود ، لأول مرة ، لعــام ١٩٥٥ ، حينما رأيت أسمه منقوشا على جدار قاعة المحاضرات في الجمعية الجغرافية الفرنسية ، في باريس ، الى جانب سترابون ، وايراتوستين ، وماركو بولو ، والبيروني ، وسواهم من اعلام الفكر الجغرافي الذين أرسوا قواعد هذا العلم منذ أقدم الأزمان .

هذا كما لاانسى ماحييت اللوم الذي تعرضت له من الأستاذ جان ديبوا ، الأستاذ في السوربون ، واحد اعضاء لجنة مناقشة اطروحتي لنيل الدكتوراه ، في يوم ١٩ كانون الاول ١٩٥٩ ، بسبب اهمالي الاعتماد على بعض المؤلفات الجغرافية العربية القديمة التي تحوي على بعض معلومات قيمة كانت ستفيد كثيرا في إغناء المؤلفين الذين حصلت بها على لقب الدكتوراه .

وفي الحقيقة كانت مناهج مادة الجغرافيا في الاقطار العربية سواء في التعليم الشانوي ، أو الجامعي ، تخلو ، ولازالت مع الأسف ، من التعرض للدراسة التفصيلية لتراثنا من المؤلفات الجغرافية باعتباره من « مخلفات الماضي » أو لأنه لايساهم في إغناء معارف ابناء الجيل الصاعد ، لاحتوائه على بعض الاستطرادات غير المعقولة ، او بعض الاساطير المنقولة عن الامم الاخرى .

ومن اخطائنا التي يستحيل تصحيحها ، او التي لم تصحح بعد على الاقل ، هي انقسامنا الى فريقين ، لاثالث لهما ، عند الحديث عن تراثنا الجغرافي الضخم ، فريقين يتنكبان نهج الصواب اللاحب ، فريق يرى فيه جماع العلوم الجغرافية الذي لم يغفل شاردة او واردة الا احصاها ، وفريق يجعل منه غرضاً للاستخفاف ، وربما للاستهزاء ، بحيث لايرى فيه سوى اغتيال الوقت ، فيراه محشوا بالاساطير ، تندر فيه الروح العلمية ،لانه لايماثل او لايرقى لمستوى كتب الجغرافيا الحديثة ، ولاسيما الاوربية منها ، في غزارة المعلومات وفي جودة العرض .

ولعل وضع الفريق الثاني يشابه ، ولحد بعيد ، موقفنا نحن تجاه حالة جدودنا المباشرين قبل سبعين عاما لااكثر ، اولئك الذين كانوا يمضون قرابة عشرة ايام ، كي يقطعوا المسافة بين حلب ودمشق ، على ظهور الخيل والابل او في العربات ، ويبيتون تسع ليال في الخانات او « القناقات » التي تواكب الطريق العام ، تلك المسافة التي تقطعها خلال ثلثي ساعة بالطائرة ، او حوالي اربع ساعات في السيارة .

ترى هل يستحقون ان ننعتهم بالبدائية أو الرجعية ؟

ترى ماذا سيكون وضعنا ، نحن ابناء اليوم ، امام احفادنا بعد نصف قرن من الزمن ؟ ألن نكون موضع اشفاق ، ان لم نقل موضع ابتسام ، هذا فيما اذا استمرت اسباب الحضارة الحديثة في مسيرتها العداءة ، واصبح السفر الى القمر شيئاً مألوفاً للجمهور ، وربما السفر الى احدى الكواكب السيارة ، كالمريخ مثلاً ؟

الواقع أننا ننتسب الى جيل عربي بائس ، جيل تشرذم بين المتمسكين بالماضي ، بكل مافيه ، من سلبيات وايجابيات ، الذين يرون في هذا الموقف افضل وسيلة للحفاظ على شخصيتنا ، والابقاء عليها سليمة ، بعد أن جرنا بريق الحضارة الاوروبية الطاغية، وبين الفريق الآخر الذي لا يرى حلاً لمشاكلنا التي نعانيها الا في التملص من كل الروابط التي تشدنا الى ماضينا ، والارتماء في خضم هذه الحضارة الوافدة التي سببت لنا صدمة تماثل صدمة البنسلين القاتلة بالنسبة للذين يعانون الحساسية ، دون سابق علم لهم بها .

وهنا يحق لي ان اطرح السؤال التالي: ما هي ثمرات اعجابنا بكل ما هو اجنبي؟ لقد اورثنا احتكاكنا بالحضارة الغربية نوعاً من عذاب يماثل عذاب تنتال Tantale ملك ليديا، الذي تروي الاسطورة اليونانية عنه انه استقبل الآلهة الذين وفدوا لزيارته، فما كان منه الا ان قدم لهم اطراف ولده بيلوبوس كي يمتحن ألوهيتهم . فقذفه الإله زوس في سقر وحكم عليه ان يظل ابداً فريسة عطش وجوع رهيبين. وتمثل الاسطورة الملك تنتال في وسط نهر تنأى مياهه عن شفتيه، وتحت اشجار مثمرة، يانعة قطوفها، ترتفع اغصانها نحو الأعلى بمجرد أن يرغب في جني ثمارها . فقد عجزنا عن تمثل لباب هذه الحضارة الغازية الوافدة ، او كما يقول الفيلسوف غاستون بوتول : من السهل على الشعوب المتخلفة استيراد ثمار الحضارة الغربية ولكنها تعجز عن استيراد بذورها ، أو قول غوتييه : هناك شعوب تنتج الحضارة وهناك شعوب تستهلكها .

النور يأتي من الشرق :

هناك امة شرقية واحدة فقط استطاعت ، حتى الآن ، تحقيق عملية الاقلاع من مستنقع التخلف اللزج الكريه ، فتبوأت مكان الصدارة بين الدول المتقدمة ، واقصد بها اليابان التي تعتز بماضيها وبتراثها وبتقاليدها ايما اعتزاز ، ولم تأخذ من الحضارة الأوروبية سوى التقنية ، أي التكنيك، وادخلت عليها من التحسينات ما يثير الدهشة او الاستغراب بحيث فاق المقلَّد المقلِّد،ونافست أوربا أمريكا في كل المجالات ، اللهم إلا في التحلل الخلقي والميوعة .

وهناك أمة عظيمة ثانية تترسم خطى اليابان ، حذو النعل بالنعل ، وان كان ذلك

تحت شعارات مغايرة وايديولوجية تبدو، ظاهرياً ، مخالفة ، وهي الصين ، التي ستنسحب قريباً من زمرة دول العالم الثالث ، كي تحتل مكانة سامية تعمل لبلوغها بعناد وجلد قل مثيلها ، ولكنها لتعزف عزوفاً تاماً عن قشور الحضارة الغربيــة ، لا بل وتزدري كل ما تحمله الحضارة المذكورة من قيم ومثل وتفاهات .

أما نحن فقد سرنا في اقتباس العلوم الحديثــة مسيرة السلحفاة ، ولكن سرعان ماأخذنا كل ماخف وزنه وقلت قيمته ونفعه ، نابذين ظهرياً كل ماضينا وتراثناوقيمنا ومثالياتنا النبيلة ، وتهافتنا تهافت الفراشات على النور الخداع ، نغترف من لذائذ هذه الحضارة الجوفاء ومتعها وتقليدها حرفياً ، مستميتين في اقتباس توافهها ، متوهمــين أن هذا التقليد هو الذي سيضعنا في مصاف الامم المتقدمة ، وبل يتباهى الكثير مــن مثقفينا بالانتماء الى مجموعة العالم الثالث بعد أن كان العرب ، في القرون الوسطى ،رواد الحضارة والتقدمية ، حتى لكأن حالتنا حالة عزيز قوم أراد لنفسه المهانة بالانتماء الى فئة المستضعفين المستخذين .

والخلاصةظل تراثنا الفكري مجهولا لدى غالبية جيلنا الصاعد ، وأصبح التنقيب عنه والكشفعن مكنوناته مهمة المستشرقين وبعض الهواة من الباحثين العرب المتأخرين وفي ذلك انقطاع في حلقات التسلسل الفكري الحضاري واهمال فاضح للدور الذي لعبــه الرواد منالجدود الأماجد في مضمار التقدم العلمي .

التعريف بأبي الفداء :

هو اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي (مــات عــام ٦٩٢ هـ دون أن يحكم) وجده الملك مظفر الثاني تقي الدين محمود (حكم من سنة ٦٢٦ هـ الى وفاتهسنة ٦٤٢ هـ) بن الملك المنصور الأول محمد (حكم حماة سنة ٥٨٧ الى وفاته سنة ٦١٧هـ) بن الملك المظفر الاول تقي الدين عمر (الذي حكم حماة من سنة ٥٧٤ هـ الى وفاته سنة ٥٨٧ هـ) بن شاهنشاه الذي قتل سنة ٥٤٣ هـ ، وهو شقيق صلاح الدين يوسف الايوبي المتوفى سنة ٥٨٩ هـ ، بن أيوب بن شاذي .

وقد ولد أبو الفداء بدمشق سنة ٦٨٢ هـ (١٢٧٣ م) حيث قسر ظهور التــتر في المناطق الشرقية في بلاد الشام آباءه الى الالتجاء اليها . وكانت ولادته بدار الزنجيــلي التي كان ورثها أبوه عن أجــداده . واذا كانت الظروف لم تتح لوالده أن يتبوأ ســدة

الحكم فقد كان يشارك في الادارة عن كثب ، وكثيراً ما كان الحكام يعتمدون على مشورته وكان لأبي الفداء اخوان هما بدر الدين حسن وأسد الدين عمر .

هذا ولا نملك الكثير من المعلومات عن طفولته ، سوى أنه لما كان في الحادية عشرة من عمره ، أي سنة ٦٨٣ هـ ، توفي الملك المنصور الثاني محمد ، عمه ، وآل الملك الى ابن عمه الملك المظفر الثالث محمود ، فأنعم السلطان قلاوون على الملك الجديد، وعلى الملك الأفضل والده ، وعلى أولاد الأفضل ، بما فيهم أبا الفداء ، بالتشاريف .

وفي العام نفسه قصد السلطان قلاوون دمشق في طريقه الى حصن المرقب لانتزاعه من أيدي الفرنجة الصليبيين ، فسار معه الملك الأفضل ورافق أبو الفداء أباه ، وكان عمره لا يتجاوز الثانية عشرة ، وبعد الحصار انتصر قلاوون على فرسان الاستبارية واستولى على الحصن المذكور ، بعد أن طلبوا الأمان وحملوا ماقدروا على حمله باستثناء السلاح .

وفي سن السابعة عشرة رافق السلطان قلاوون في حصار طرابلس الى جانب والده وابن عمه الملك المظفر ، واستطاع قلاوون أن يسترد طرابلس من الفرنجة سنة ٦٨٨ هـ بعد أن تملكوها قرابة قرنين من الزمن .

وبعد عامين ، أي سنة ٦٩٠ هـ ، وهو لم يبلغ العشرين من عمره ، شارك في فتح عكا الى جانب السلطان الأشرف خليل بن قلاوون والملك المظفر ، وعمه ، وكانت رتبة أبي الفداء حينذاك أمير عشرة .

وما أن بلغ العشرين حتى شارك في فتح قلعة الروم مع السلطان الأشرف سنة ٦٩١ هـ وفي سنة ٦٩٢هـ كلفه والده بحمل بعض الهدايا للملك الأشرف الذي كان نازلاً على القصب قرب أيلة ، على البحر الأحمر .

ولما كان والده الملك الأفضل صياداً ماهراً في صيد الوحوش الكاسرة فقد استدعاه الملك الأشرف ليرافقه في صيوده ، فسافر إليه ،ولكنه اعتل في الطريق من حلب لدمشق، فأعيد الى حماة كي يدفن فيها .

ولما عاد أبو الفداء إلى حماة أحسن إليه ابن عمه الملك المظفر وصار أمير طبلخانة على رأس أربعين فارساً .

وفي سنة ٦٩٧ هـ ، وسنه حينذاك خمس وعشرون عاماً ، شارك أبو الفداء في

حملة قادها السلطان حسام الدين لاشـين الذي تغلب على الحكم وتسمى بالملك المنصور الى بلاد سيس(١) .

ويموت المظفر سنة ٦٩٨ﻫ ، دون ولد ، حضر أبو الفداء مع أخويه الى حماه ، وتنازعوا في أمر تولي الحكم ، مما أدى لإرسال نائب مملوكي هو قراسنقر وخرج الحكم من أيدي السلالة الايوبية بسبب اختلافهم على تولي السلطة .

وفي سنة ٦٩٨ ﻫ ذاتها حمل أبو الفداء هدايا من قراسنقر ومن أخويه عمر وحسن الملك لاشين الذي كان نازلاً قرب عسقلان على الساحـل الفلسطيني ، فقبلها السلطان وتكرم عليه بخلعـة وحياصة من ذهب ، ورسم بزيادة اقطاعه واقطاع أخيه بـدر الدين حسن .

وكان ابو الفداء يعمل بدأب منذ وفاة ابن عمه الملك المظفر ، وكان عمره حينذاك ٢٦ سنة ، يعمل جاهدا على استرداد مملكة حماة للأسرة الايوبية او بالاحرى استخلاصها لنفسه ، ورأى ان السبيل القويم لبلوغ ذلك هو تمتين اواصر صداقتـه بالسلطان ، في القاهرة ، فاتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون وخدمه في مختلف المناسبات ، سواء في العاصمة المصرية او في الكرك حيث كان يعتزل فيها ، فبعد وفاة كتبغا نائب حماة سـنة ٧٠٢ ﻫ ، راسل السلطان في أمر اقامته في حمـاة أميراً ، وكان ذلك بعد الاوان ، لان حماة كانت من نصيب سيف الدين قبجق ، ولكن السلطان ارسـل اليه الصدقات والوعود وطيب خاطره .

وفي نفس السنة أي ٧٠٢ ﻫ شارك في مطاردة التتر الذين عاثوا فساداً في وادي الفرات حتى بلغوا القريتين ، من اعمال حمص ، فكان الى جانب الامراء الجردين لملاقاتهم وخرجوا من المعركة منتصرين وابادوا المغيرين عن بكرة أبيهم .

وعندما نزل السلطان الناصر محمد الكرك لثالث مرة هرباً من دسائس البـلاط والمؤامرات في القاهرة معتمداً على ولاء العسـاكر الشامية ، قصد دمشق ، فخف ابو الفداء لملاقاته فنال الوعود بحكم حماة . ورافق الملك الناصر على رأس الجيوش الشامية لاسترداد عرشه في مصر ، بعد ان خلع بيبرس الجاشنكير نفسه وطلب الامان ، فوصلها

(١) يذكر كراتشكوفسكي ان اسطورة اوروبية تزعم ان لاشين هـذا كان من الفرسان التيوتون وانه وصل لفلسطين مع الصليبيين وانه انحاز الى جانب المسلمين الى أن صار سلطاناً (هكذا) .

سنة ٧٠٩ هـ ، وكرر السلطان محمد له الوعود في ملك حماة ولكن اعتذر له بكثرة الاشغال .

غير أن ابا الفداء لم يكتف بهذه الوعود المتكررة بل حث ملك البدو الشيخ مهنا ابن عيسى على التوسط لدى السلطان لاستنجازه وعده . فسافر منها الى مصر في عام ٧١٠ هـ وفاتح السلطان في الامر ، فأجابه السلطان بالقبول ، ونقل على اثر ذلك نائبها استندمر الى حلب ، وولى ابا الفداء وهو ما يزال في دمشق وكان سنه حينئذاك ٣٨ سنة . وهكذا استرد ملك آبائه واجداده بعد انقطاع دام احدى عشرة سنة .

وما ان استقر به المقام في حماه في دار ابن عمه ، استأذن السلطان في الحضور الى مصر ، شاكراً له صنيعه ، وحاملاً اليه الهدايا والتحف .

وبعد عامين اي سنة ٧١٢ هـ سافر الى مصر للمرة الثانية ، بعد توليه النيابة ، فقلده مملكة حماة والمعرة وبارين (بعرين حالياً شمال غرب حماه) تمليكاً وراثياً ولقب بالملك المؤيد . واغتنم هذه الفرصة بأن شكى له من طرف خفي وبشكل لبق للغاية من تصرفات الامراء والمماليك في حماة الذين اوجدوا دولة ضمن دولة ، فأمر السلطان بنقلهم جميعاً الى حلب ، وكانوا نحو اربعة عشر اميراً ، فتم ترحيلهم قبيل وصول ابي الفداء الى مقر ملكه . وفي نفس السنة رزق بمولود سماه محمداً ، وهو الذي سيخلفه في الملك .

وظل ابو الفداء يتردد على القاهرة ليزيد في متانة علاقاته وصداقاته بالسلطان ، وليقدم له « الخيول والقماش والمصاغ » او ليخدمه في رحلات صيده او لمرافقته في اداء فريضة الحج . واتيحت له فرصة استقبال الرسل والسفراء القادمين الى بلاط القاهرة . فحضر حفلة استقبال السفير خايمــة الثاني ملك آراغون الاسباني وسفير ايلخان فارس . وفي سنة ٧١٩ هـ سافر الى القاهرة وخرج مــع السلطان لاداء فريضة الحج ، فلما عاد بالغ السلطان في عطائه لابي الفداء ومنحه لقب سلطان ، فتقبله مــتردداً على استحياء ويذكر المؤرخ ابن حجر ان السلطان استعظم ما رآه من آداب ابي الفــداء وفضائله وكان عمره آنئذ ٤٧ سنة .

وفي سنة ٧٢٤ هـ ذهب الى السلطان في مصر وبصحبته ولده محمد ، فحضر استقبال رسل ملك التتر ابي سعيد بقلعة الجبل ، كما قصد مصر بعد ثلاثة اعوام ، في سنة ٧٢٧ هـ وكأنه كان يمهد لابنه كي يخلفه في الملك ، ولكي يزيد في متانة صلاته بالعاصمة المصرية .

ولم يطرأ شيء في حياته السياسية بعد هذا التاريخ سوى وفاة شقيقه بدر الدين حسن ، وكان يكبره بثلاث سنين ، وكان ينازعه على الملك ، ووفاة والدته بعد عامين ، اي في نفس السنة التي زار فيها القدس وبيروت وصيدا وصور وعكا والخليل . ورزق حفيدا سنة ٧٢٩ ﻫ سماه عمراً .

وختم ابو الفداء ايام حياته بهدوء ودعة في حماة في خريف عام ٧٣٢ ﻫ (١٣٣١م) ، بعد ان تنبأ بأنه لن يتجاوز الستين شأنه في ذلك شأن جميع افراد اسرته. كما ان نسله انفسهم لم يكتب لهم البقاء طويلا فقد ورث ابنه الملك الافضل الثاني محمد سلطان الاسرة بحماة وخلعت عليه الامارة من سلطان مصر ، ولكن بعد وفاته ٧٤٢ ﻫ (١٣٤١ م) بعد ان حكم مدة عشرة اعوام ، عجز الحفيد من ان يكون على مستوى الاحداث وقنع بمظهر الامارة الى وفاته سنة ٧٥٨ ﻫ (١٣٥٧م) ، وبذلك انقرض بيت ابي الفداء الذي بذل جهوداً مضنية في سبيل استرداد ملك اجداده .

وهكذا نستشف من خلال استعراضنا السريع لحياته السياسية انه برز بشجاعته وصفاته العسكرية الفذة ، اذ كان حب الجهاد جزءاً لا يتجزأ من ملامح شخصيته ، مثلما اقر له مؤرخو عصره بالحنكة السياسية وبالمرونة الدبلوماسية فاستطاع في عصر كثرت فيه القلاقل الداخلية ان يحتفظ بما خلفه له آباؤه من املاك بل ونجح في توسيع رقعتها ، كما استمر في كفاحه ضد الصليبيين غربا والتتر شرقا ، في الايام العصيبة التي كان العالم العربي الاسلامي واقعا فيها بين المطرقة الصليبية والسندان التتري ، اي حينما كانت معاقل الثقافة والاشعاع الفكري العربي تتهاوى تباعا امام جحافل البرابرة الغزاة ، فتحرق المكتبات او تلقي بمحتوياتها في مياه الانهار ، وتعم الفوضى وتتسع رقعة البداوة مع كل ما تجر وراءها من عقلية عشائرية بدوية اضعفت ، على كر الايام ، روح المواطنة Civisme وعم الخراب ، مما هيأ العالم العربي للفتح العثماني بعد ان توالت عليه الضربات المؤلمة من الاسبان والبرتغال من الغرب ، ومن البرتغاليين لوحدهم من الجنوب والشرق .

حياته الثقافية :

ولكن هناك جانباً آخر في حياة أبي الفداء جدير باستقطاب انتباهنا ، فجهاده في الذب عن حوضة العروبة والاسلام والمعارك التي خاض غمارها ضد الفرنجة والارمن والتتر والسعي الحثيث المضني الدؤوب لاستعادة حقوق اسرته في مملكة حماة ، حتى ان سيرة حياته تذكرنا في بعض خطوطها بسيرة حياة البطل اسامة بن منقذ أمير شيزر الذي

عاش قبل قرن من الزمن بالنسبة لأبي الفداء ، اقول لم يشغله كل ذلك عن الانصراف للعلم والتأليف الى جانب السياسة والاهتمام بشؤون عمران مملكته الصغيرة. فقد كان مثال رجل السيف والقلم بكل ماني الكلمة من معنى .

وقد عاش ابو الفداء وعاصر الفترة المظلمة التي قضت على الاندفاع العلمي النظري لدى العرب والذي كان سيؤدي حتماً ، حسب رأي المستشرق الكبير شارل بيللا Pellat الى التطبيق العملي الذي كان سيؤدي الى تعجيل ظهور الثورة الصناعية مدة ثلاثة قرون من الزمن ، لو قدر لهذه الحضارة العربية الاستمرار والتطور بهدوء .

وقد دفع حب أبي الفداء للعلم الى حب العلماء ، وتقريبهم اليه ، فعاش في بلاطه الصفير الأثير الايري عبد الرحمن بن عمر واجرى له ما يكفيه ، وكان يرسل للشاعر المصري ابن نباته راتبه السنوي الى القاهرة من حماه ، ومدحه ابن نباته بدائع كثيرة ورثاه لما مات ، وكذلك مدحه الشهاب محمود الحلبي . وقال عنه ابن حجر : « ولا اعرف احد من الملوك ما لابن نباته والشهاب محمود وغيرهما فيه ، الا سيف الدولة ، وقد مدح الناس غيرهما من الملوك كثيراً ، ولكن اجتمع لهذين من الكثرة والاجادة من الفحول مالم يتفق لغيرهما » .

ولم يسلم ابو الفداء روحه الى بارئها قبل أن يفرق كتبه على المهتمين بها من الذين يقدرونها حق قدرها خوفاً عليها من الاهمال والضياع . وبموته انطوت صفحة هامة من تاريخ حماة الذين لم ير الناس في الملوك أفضل منه بعد المأمون، ممن جمع الملك والعلم معاً الى جانب بعد النظر في السياسة والنبل في التصرفات ، فكان ملكاً قيل أن يصبح ملكاً ، وكان اميراً في سلوكه بعيداً كل البعد عن الاسفاف والسلوك المرذالي الذي شاع في عصره على شكل مكائد ودسائس ومؤامرات .

ولقد ضرب الاستاذ المرحوم محمد كرد علي كبد الحقيقة عندما قال على قبر ابي الفداء : يا ثاني المأمون بعلمك وعقلك ، وثاني صلاح الدين بعدلك وجهادك .

ابعاد ثقافته :

لقد كان ابو الفداء يتمتع بروحة ثقافية عريضة اشتملت معظم علوم عصره ، فكان في اكثرها من المبرزين الاعلام ، أو بعبارة اخرى كان موسوعياً .

ويذكر الأستوي في طبقات الشافعية ان ابا الفداء « كان جامعا لاشتات العلوم ،

اعجوبة من اعاجيب الدنيا ، ماهر في الفقه والتفسير والأصلين ، والنحو والعروض ، وعلم الميقات والفلسفة والمنطق والطب والتاريخ وغير ذلك من العلوم ، صنف في كل علم تصنيفاً او تصانيف» ويزيد ابن تغري بردي على ذلك فيقول انه : «كان بارعاً في العربية والادب حافظاً للقرآن» . ويذكر ابن حجر انه «نظم الشعر والموشحات وفاق في علم الهيئة» ، اي جمع بين «المعقول والمنقول» كما يقول القدامى : أي انه ألم بكل مايتصل بالعلوم الدينية من فقه وقرآن وتفسير — باستثناء الحديث — واتقن علوم العربية من ادب ونحو وعروض ، وقرض الشعر ، فضلاً عن الفلسفة والمنطق ، وهي مايسمى بالعلوم المهجورة ، وبرع ايضا في علم الهيئة والطب ، ولكن علم المنطق والفلسفة لم يؤثر في سلامة عقيدته لأن ابن بردي يشير الى ذلك بقوله «مع الاعتقاد الصحيح» اي ان اطلاعه وتبحره في الفلسفة لم يجره الى الكفر والالحاد كما حدث لغيره من المتفلسفين.

واذا كنا نجهل اساتذته الذين نهل عنهم علومه فان تاريخه يشير الى انه تردد على قاضي حماة ابن واصل فيقول : في الثامن والعشرين من شوال من تلك السنة ، اي سنة ٦٩٧ هـ ، توفي الشيخ العلامة جمال الدين محمد بن واصل قاضي القضاة الشافعي بحماة المحروسة . . . وكان فاضلا إماماً مبرزاً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة واصول الدين والفقه والهيئة والتاريخ ... ولقد ترددت عليه بحماة مراراً كثيرة ، وكنت اعرض عليه ما احله من اشكال كتاب اقليدس واستفيد منه، وكذلك قرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب في العروض ، فان جمال الدين صنف لهذه المنظومة شرحاً مطولاً ، فقرأت عليه ، وصححت اسماء من له ترجمة في كتاب الأغاني ، فرحمه الله ورضي عنه » .

وهكذا كان ابو الفداء عالم عصره ، وندر بين ملوك الاسلام من بلغ مبلغ عله ، فكان يحب العلماء ويقربهم ، وكان يحرص على اقتناء الكتب النفيسة النادرة ، وكان العلماء يقصدونه ، فأحاط نفسه بجو علمي ، جو يتواءم مع اتساع أفق ثقافته المتعددة الجوانب .

والى جانب ذلك برع في علم الطب لحد بعيد ، فيحدثنا انه رافق ابن عمه الملك المظفر صاحب حماة سنة ٦٩٧ هـ في غزوة بلاد الارض ، قال: « فأصحاب الملك المظفر وهو نازل على حموص قليل مرض ، ولم يكن صحبته طبيب ، فاقتصر على ما كنت أصف له ، وأعالجه به فشفاه الله تعالى ، وأنعم علي » .

كذلك عرف عنه خبرته الواسعة في أمور الصيد . ولعله اكتسب ذلك عن أبيه

الملك الافضل علي ، فقد كان ماهراً بأمر الفهود والصيد حتى كان الملك الاشرف خليل يستدعيه لمرافقته في صيوده ، ومهارة أبو الفداء بالصيد جعلت الملك محمد بن قلاوون يطلبه من حماة ليرافقه في رحلات صيده .

أبو الفداء الجغرافي :

لا نستطيع تشبيه أبي الفداء بابن حوقل الذي كان جغرافياً جمع بين النقل والاقتباس وبين المشاهدة في رحلات بعيدة قصية ، ذلك أن أسفار أبي الفداء لم تكن بقصد الاطلاع والتعرف على البلدان ، انما كانت اما للجهاد والمثاغرة أو لمتابعة هدفه الاسمى الذي وضعه نصب عينيه ، وهو المطالبة بمملكة آبائه ، فرحل مرات عديدة الى الى مصر ، أو لجنوبي الاردن ، أو للصيد بصحبة ملوك مصر ، من معاصريه ، بمعنى انه لم يكن رحالة بكل ما في الكلمة من معنى ، وان كان قد استفاد من مشاهداته الشخصية في كتابه « تقويم البلدان » ، فهو لم يصرف سوى بلاد الشام والبلاد المجاورة لها كفلسطين وبلاد العرب ومصر والصعيد حتى دندرة ، والجزء الشرقي من آسيا الصغرى وأرض الجزيرة العليا .

هدفه من تأليف كتابه « تقويم البلدان » :

ان تمكن وتضلع أبي الفداء في علم الهيئة والرياضيات دفعه لأن يتخذ موقف الناقد من سائر الكتب الجغرافية التي ظهرت حتى عصره ، فهي تارة تهمل ضبط الأسماء ، أو ذكر المواقع الفلكية من طول وعرض ، أو تهمل الجهات تارة أخرى ، نتيجة الجهل بالأطوال والعروض . ويقصد بذلك كتاب ابن حوقل والادريسي والبيروني وياقوت وكتاب اسماعيل الموصلي في كتابيه « الفيصل » و « مزيل الارتياب عن مشتبه الانساب » .

وبعبارة أخرى كان الدافع الى كتابة « تقويم البلدان » هو نقص الكتب الجغرافية التي أتيح له الاطلاع عليها ، فكمال الكتب الجغرافية ، كما يعتقد ، هو أن تجمع الجغرافية الوصفية ، الى جانب تحقيق الأسماء وضبطها وتلتهي بذكر أطوالها وعروضها ومواقعها .

وهكذا اعتمد على مصادر ثلاثة في تأليف كتابه هي ، مشاهداته الشخصية على قلة غزارتها ، والمصادر الجغرافية وكتب الزيجات وكتب النسبة التي ظهرت حتى عصره

وأخيراً على المصادر الشفوية . ويتميز كتابه باحتوائه على نصوص من مؤلفات مفقودة أو لم تنشر حتى الآن ، على الأقل .

ويتجلى المنهج العلمي في تضاعيف كتابه ، فهو يبدأ بمقدمة عامة يذكر فيهامساحة الارض وشكلها وتقسيمها الى أقاليم سبعة ، ثم يتحدث عن الأطوال بدءاً من جزر الخالدات (كناري الحالية) ، والمسافات ووسائل قياسها . ثم يبدأ بذكر البحار المعروفة ثم الأنهار والجبال .

ثم جعل لكل بلد اقليمين ، الاقليم الحقيقي وهو أحد الأقاليم السبعة المعروفة ، والاقليم العرفي ، اي الناحية أو المملكة الموجود فيها . « اي اتبع في دراسته التقسيم التقليدي السائد في زمنه ، واعني بذلك تقسيم العالم المعروف إلى سبعة أقاليم ، ثم يتبع ذلك بدراسة جغرافية اقليمية Régionale ، ووضع في خاتمة كل منطقة درسها (١) ، وعددها ٢٨ جدولاً مقسماً الى عشرة أبواب ، ذكر في الاول اسم البلد ، وفي الثاني أسماء المنقول عنهم ، والثالث لدرجات الطول ، والرابع للدقائق الطولية ، والخامس لدرجات العرض والسادس لكسور درجات العرض من الدقائق ، والسابع للاقليم الحقيقي ، والثامن للاقليم العرفي والتاسع لضبط الاسماء والاخير وهو العاشر للأوصاف والاخبار العامة .

اهتمام العلماء بكتابه على كر العصور :

١ - اختصر الذهبي كتاب تقويم البلدان في القرن الثامن الهجري ، وكان هذا معاصراً لابي الفداء ، والمتوفي عام ٧١٨ هـ = ١٣٤٧ م .

٢ - اهتم سباهي زادة التركي ، المتوفي سنة ٩٩٨ هـ - ١٥٨٨ م بكتاب تقويم

---

(١) وهي : جزيرة العرب ، ديار مصر ، بلاد المغرب ، الجانب الجنوبي من الارض وهو بلاد السودان ، جزيرة الاندلس ، جزائر بحر الروم والمحيط الغربي ، الجانب الشمالي من الارض ، الشام ، الجزيرة بين دجلة والفرات ، العراق ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، سجستان ، السند ، الهند ، الصين ، جزائر بحر الشرق ، بلاد الروم ، ارمينية واران وأذربيجان ، بلاد الجبل وهي عراق العجم ، الديلم والجيل ، طبرستان ، خراسان زابلستان والغور ، طخارستان وبذخشان ، خوارزم ، ماوراء النهر .

البلدان ورتبه على حروف المعجم باللغة العربية وزاد عليه واخرجه تحت اسم :« اوضح المسالك الى معرفة البلدان والمالك » كما ترجم فقرات منه الى اللغة التركية .

٣ – تأثر به محمد صادق الاصفهاني ، من كتاب القرن السابع عشر الميلادي .

٤ – اعتمد عليه حاجي خليفة في كتاب « محيط » ، حسب رأي الدكتور صلاح الدين المنجد .

٥ – اما في الغرب فيقول كراتشكوفسكي ان كتابين فقط اثارا من الاهتمام اكثر من « تقويم البلدان » ويقصد بها القرآن الكريم و « الف ليلة وليلة » .

٦ – ذكره المستشرق الفرنسي بوستل postell الذي يعد في طليعة المستشرقين في اواسط القرن السادس عشر .

٧ – وفي القرن السابع عشر اشتغل بدراسة كتاب أبي الفداء المستشرق الالماني شيكارت (١٥٩٢ - ١٦٣٥) وفي نفس الفترة وصلت اول نسخة من الكتاب لمكتبة باريز الوطنية .

٨ – في سنة ١٦٥٠ درسه المستشرق والفلكي الانكليزي غريفز (١٦٠٢ - ١٦٥٠ م) دراسة نقدية .

٩ – في القرن الثامن عشر ظهرت اول ترجمة كاملة (١٧٧٠ – ١٧٧١) على يد المستشرق رايزكه (١٧١٦ – ١٧٧٤) وكانت ترجمة متهافتة .

١٠ – وتم تتويج الاهتمام الاستشراقي بأبي الفداء بترجمة رينوودوسلان المصحوبة بدراسة مستفيضة عن سيرة حياة أبي الفداء ودور الجغرافية العربية بشكل عام ، فظهر القسم الاول من الترجمة عام ١٨٤٨ ، وتمت الترجمة على يد غيار بعد خمسة وثلاثين عاماً أي في سنة ١٨٨٣ .

ومنذ ذلك الحين كف العلماء الاجانب عن الاهتمام بأبي الفداء لظهور مؤلفات احدث ولتقدم العلوم الجغرافيه الحديثة بصورة متسارعة .

اصالة كتاب تقويم البلدان :

يتميز كتاب تقويم البلدان عن الكتب الجغرافية التي ظهرت حتى زمنه ، وحتى بعض الكتب التي ظهرت بعده بمزايا عديدة ، نستطيع ان نجملها فيما يلي :

أولاً : لم ينقل ابو الفداء فكرة كروية الأرض عن المصادر التي عرفها دون تمحيص

بل أيد ذلك ببراهين ودلائل تدعم رأيه فيقول : « أما جة الارض فكروية الشكل حسبما ثبت في علم الهيئة بعدة أدلة منها :

– أن تقدم طلوع الكواكب وتقدم غروبها للشرقيين على طلوعها وغروبها للغربيين يدل على استدارتها شرقاً وغرباً .

– ارتفاع القطب والكواكب الشمالية وانحطاط الجنوبية للواغلين في الشمال وارتفاع القطب والكواكب الجنوبية وانحطاط الشمالية للواغلين في الجنوب بحسب وغولها .

– أما تضاريسها التي تستلزمها من جهة الجبال والأغوار فانه لا تخرجها عن الاستدارة ولا نسبة لها محسوسة الى جة الارض . فانه قد تبرهن في عالم الهيئة أن جبلاً يرتفع نصف فرسخ (أو ٢٨١٤ م) يكون عند جة الارض كخمس أو سبع عرض شعيرة عند كرة قطرها ذراع .

– وكذلك ثبت في علم الهيئة أن الارض في وسط الفلك بعدة أدلة منها ، ان انخساف القمر في مقاطراته الحقيقية للشمس يدل على أن الارض في الوسط ، والواقف على الارض من جميع الجوانب رأسه الى ما يلي المحيط ، وهو الفوق ، ورجله الى ما يلي المركز ، وهو التحت ، ومحدب الارض مواز لمقعر الفلك المحيط به .

ثانياً : عدم تأثير بعد الشمس أو قربها في المنـــاخ

« وقد قيل ان علة عمارة الربع الشمالي (اي الواقع شمالي خط الاستواء) وخراب الربع الجنوبي ، انما هو قرب الشمس لأنها اذا سامتت الربع الجنوبي من الارض تكون في البروج الجنوبية ، في حضيضها . فتكون حينئذ أقرب الى الارض وأعظم جرماً واشد شعاعاً واثراً ، وقد ضعف النصير الطوسي التعليل وقال ان التفاوت بين صغر الشمس من جهة كونها في الاوج وكبرها من جهة كونها في الحضيض ليس ببين عند الحس ، فمن البعيد ان يبلغ تأثيرها الى أحد موضعين متساويين في الوضع مسكوناً والآخر غير مسكون » . وهكذا يمهد أبو الفداء للعلماء المتأخرين الذين يرون – كما ثبت ذلك علمياً – ان اختلاف المناخ بين مختلف عروض الارض يعود لاختلاف ميل أشعة الشمس ولاختلاف طول النهار .

ثالثاً : قياسه لمحيط الارض :

يقول ابو الفداء في صفحة ١٥ : « فاذا عُمِلَ على مذهب القدماء وضرب حصة الدرجة الواحدة من الفراسخ وهو ٢٢ وتسعا فرسخ في ٣٦٠ حصل مقـدار الدائرة العظمى من الارض ، وهو ٨٠٠٠ فرسخ غير زيادة ولا نقص » . والمعلوم ان الفرسخ يساوي ثلاثة اميال والميل العربي ١٨٧٨م ، فمعنى هذا ان محيط الارض عند ابي الفداء هو ٤٥٠٧٢ كيلو متر علماً انه حقيقة هو ٤٠٠٧٦كم وهو خطأ بسيط نسبياً لعدم دقة مقاييس عصره ، من شعيرة وذراع وسواهما .

رابعاً : اتصال المحيط الهندي بالمحيط الاطلسي :

« واكثر ما يبلغ سالكو البحر الاعظم (الهندي) من جانب المغرب سفالة الزنج (موزمبيق الحالية) ولا يتجاوزونها ... ويتلاطم فيحطم السفن ويمنع السلاك ، ومع هذا فليس يمنعه من الاتصال ببحر اوقيانوس (الاطلنطي) من تلك المضايق من جهة الجنوب ، وراء تلك الجبال (اي جبال القمر حيث منابع النيل) فقد وجدت علامات اتصالها وان لم يشاهد ، وهذا ما اخترناه من كلام ابي الريحان » وهذا يدل على ان العلماء العرب قالوا بانتهاء قارة افريقيا جنوباً قبل ان يكتشف ذلك الملاح دياز البرتغالي ١٤٨٨م اي بعد اكثر من قرن .

خامساً : ذكر التيار بين البحر الاسود وبحر ازوف :

« ذكر بحر بنطش(١) وبحيرة مايطش المتصلة به المعروفـة في زماننا ببحر الأزف (أي Azov) ، وهي مدينة على ساحله الشمالي على فرضة التجار . ويعرف بحر بنطش في زماننـا ببحر القرم وبالبحر الاسود . وماؤه يجري ويمر على القسطنطينية ويتضايق حتى يصب في بحر الروم (اي البحر الابيض المتوسط)، ولهذا تسرع المراكب في سيرها من القرم الى بحر الروم وتبطىء اذا جـاءت من نحو الاسكندرية الى القرم لاستقبالها جريان الماء » .

(١) وهو تحريف لكلمة بنطش اليونانية أو Ponte .

سادساً : انعزال بحر الخزر :

هذا بحر ملح لا يتصل بالبحر المحيط ولا بغيره من البحور المتقدم ذكرها ، بل هو بحر منفرد ... يسمى بحر جرجان وبحر طبرستان .

سابعاً : ذكر اسماء يجهلها المعاصرون :

— نهر الاردن : وهو نهر الغور ، يسمى الشريعة ، وأصله من أنهار تنصب من جبل الثلج (اي جبل الشيخ او حرمون) الى بحيرة بانياس (اي بحيرة الحولة سابقاً) ويصب في بحيرة طبرية .... ويصب في بحيرة المنتنة ، وهي بحيرة زغر (البحر الميت حالياً) .

— نهر حماة : ويسمى نهر الأرنط (Oronte) والنهر المقلوب لجريه من الجنوب الى الشمال ، ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقي الاراضي بغير دواليب ولا نواعير بل بأنفسها تركب البلاد (أي على السارح) ، ويصب في بحيرة قَدَس (بحيرة حمص) في غربي حمص (والحقيقة الى جنوبها الغربي) .

— ويصب في الفرات نهر الخابور من رأس عين يقال لها الزاهرية ويسير نهر الخابور حتى يمر على قرقيسيا (البصيرة الحالية) ويصب عندها في الفرات .

* * *

ويؤخذ على ابي الفداء استبعاده وجود الثلج في الجبال الاستوائية ، اي يهمل دور الارتفاع في برودة المناخ فيقول : «جبل القُمْر او القمر : وهو جبل في الخراب الجنوبي وعرضه ١١ درجة جنوبي من خط الاستواء ومنه منابع نيل مصر من عشر مسيلات (والحقيقة لا تصل منابع النيل لأكثر من خمس درجات جنوباً) تنحدر منه ، ولم يثبت وصول أحد اليه ، بل شاهدوه من بعد . قال النصير الطوسي في التذكرة انهم شاهدوه من بعد ، وهو ابيض من الثلج (لعله جبل كليا نجارو الذي يبلغ ارتفاعه ١٩٣٤٠ قدماً أو ٥٨٩٥ متراً) ، فان عرض احدى عشرة درجة في غاية الحرارة ، ويعتبر من عرض عدن من اليمن ، فان وقوع الثلج في مثل عرض عدن لم يسمع به في زمن من الأزمان ، والجانب الجنوبي مثل الشمالي بل اشد حرارة لحضيض الشمس (وهنا يتناقض مع نفسه كما سبق وذكرنا آنفاً) .

والخلاصة :

لا نستطيع تقدير ابي الفداء كجغرافي ما لم نضع انفسنا في جلده كما يقول التعبير الاوروبي ، اي ما لم نعايشه في عصره كي نستشف مدى تضلعه في علم الجغرافيا ومدى الخدمة التي اسداها في سبيل اغناء المعرفة الجغرافية والكون الذي نعيش فيه .

أما اهمالنا لتدريس نصوص مؤلفه بشكل خاص وغيره من اعلام الجغرافيين العرب بشكل عام سواء في التعليم الثانوي او العالي ، فهو أمر يدل على جهل عميق ومؤسف بتراثنا من ناحية وعلى تنكر وعقوق لأولئك الذين رفعوا شأن العرب والعروبة في عصر كانوا فيه كالشعلة المضيئة في دياجير عالم تكتنفه ظلمات الجهل والتخلف الحقيقي .

عبرة من عصر

أبي الفــداء

الدكتور قسطنطين زريق

لا شك اننا امام شخصية قد تميزت بالدينامية والانتاج ، وبالقدرة على الجمع بين العمل والنظر : بين شؤون الحرب والسياسة والحكم ، وشؤون الثقافة والعلم . فلقــد

شارك أبو الفداء في احداث عصره المضطرب مشاركة مضنية مستمرة، مناضلاً في ميادين عدة ، خارجية وداخلية ، واستطاع في الوقت نفسه ان يروض عقله ونفسه على متابعة ثقافة عصره فأطلع على نطـاق واسع منها والنتج فيـه ، وكان له أثر بارز في علمين : التأريخ وعلم البلدان ، هذا عدا رعايته للعلماء والادباء في حماة وغيرها من بلاد الشام .

أما مشاركته السياسية الحربية ، فانها تتجلى بوضوح في تأريخه المختصر في أخبار البشر ، وهو أفضل مرآة لسيرته ولمساهمته في احداث عصره . فاننـا لا نكاد نجد سنة من السنوات التي عاشها ودون اخبارها في ذلك التأريخ خلواً من مظـاهر تحركه في الجبهة الخارجية او الجبهة الداخلية . لقد بدأ نشاطه في الاولى في سن مبكرة ، فكان أول ماحضره من المواقع حصار الملك المنصور سيف الدين قلاوون لحصن المرقب سنة ٦٨٤ هـ . (١٢٨٥ م) وهو حصن للاسبتار ، وعن حضوره هذا قال : « اني حضرت حصـار الحصن المذكور وعمري إذ ذاك نحو اثنتي عشرة سنة وهو اول قتال رأيتـه وكنت مع والدي »(١) وبعد ذلك كان فتح طرابلس سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م.)(٢) وفي فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ . (١٢٩١ م)(٣) . وهما من الفتوح الحاسمة الاخيرة التي تم بها القضاء على ملك الفرنج الصليبيين في بلاد الشام . وكذلك خرج لمحاربة الارمن في الغزوة التي جردها الملك المنصور حسام الدين لاجين على بلادهم ، « بلاد سيس » ، سنة ٦٩٧ هـ (١٠٩٨ م) ، « وهذه الغزوة من الغزوات التي حضرتها وشاهدتهـا من أولها الى آخرها »(٤) بما في ذلك حصار حصن حموص المنيع والاستيلاء عليه ، كما شارك أيضاً في غزوة سنة ٧٠١ هـ . (١٣٠٢ م)(٥) . وعندما كانت ترد اخبـار هجوم التتر واقترابهم من بـلاد الشام تراه يلبي الدعوة الى التحرك وينضم ، على رأس

---

(١) المختصر (القاهرة ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٥ هـ) ، ج ٤ ص ٢١ ، س ٨ — ٩ . وهي الطبعة التي اعتمدتها في هذا البحث والتي تعود اليها جميع اشاراته .

(٢) ج ٤ ص ٢٣ .

(٣) ج ٤ ، ص ٢٤ — ٢٨ .

(٤) ج ٤ ، ص ٣٥ ، س ١٦ — ١٧ .

(٥) ج ٤ ، ص ٤٦ — ٤٧ .

عسكر حماة، للجيوش السائرة لملاقاتهم وصدهم، كما حدث سنة ٦٩٨ ﻫ (١٢٩٩ م)(١)، وسنة ٧٠٢ ﻫ (١٣٠٣ م)(٢)، وسنة ٧١٢ ﻫ (١٣١٢ م)(٣) . ولا ننسى أخيراً انه شارك في محاربة سلاجقة الروم ، وفي فتح ملطية وتخريب أسوارها سنة ٧١٥ ﻫ (١٣١٥ م)(٤) .

هذه ناحية من نواحي جهده وفاعليته . أما الناحية الثانية فهي سعيه الحثيث لاستعادة ملك اسرته في حماة . فلقد دخلت هذه المدينة – وكانت قاعدة ولاية هامة من ولايات الشام – في حيز الملك الايوبي عندما استولى عليها السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٠ ﻫ (١١٧٥ م) . وبعد اربع سنوات عين صلاح الدين عليها ابن اخيه الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب ، ثم تعاقبت عليها ابناء سلالة هذا الملك حتى عهد « ملك مظفر » آخر هو تقي الدين محمود . وعند وفاة هذا الأخير سنة ٦٩٨ ﻫ (١٢٩٩ م) ، خرجت – كما قال ابو الفداء – « عن البيت التقوي الايوبي » (٥) واخذ السلطان ، وكان حينذاك الملك الناصر محمد بن قلاوون ، يعين عليها نوابا من الذين كان بحاجة الى استرضائهم والاستعانة بهم من امرائه او قادة جنده . ودام هذا الامر ماينيف على احدى عشرة سنة ظل ابو الفداء خلالها اميراً من امراء حماة تابعاً بجنده واقطاعه لنائبها . ولكنه لم يكف عن السعي بمختلف الوسائل لتسلم حكمها ، وكان يعتبره حقاً له ولفرع الدولة الايوبية المتحدر من الملك المظفر تقي الدين عمر ، الى ان تم له ذلك في ثامن عشر جمادي الأول سنة ٧١٠ ﻫ (١٤ تشرين الاول ١٣١٠ م .) ، اذ جاء التقليد الشريف بحماة « على قاعدة النواب » (٦) .

على ان طبيعة الحكم المملوكي لم تكن تسمح بان يبقى هذا التعيين قائماً ومضموناً مالم يثابر صاحبه على موالاة السلطان واكتساب رضاه . وقد ثابر ابو الفداء فعلاً على

(١) ج ٤ ، ص ٤١ .
(٢) ج ٤ ، ص ٤٨ – ٤٩ .
(٣) ج ٤ ، ص ٦٩ .
(٤) ج ٤ ، ص ٧٤ – ٧٦ .
(٥) ج ٤ ، ص ٤١ ، ص ١٠ – ١١ .
(٦) ج ٤ ، ص ٦٠ ، س ٢٦ .

ذلك ، فكان كل سنة تقريباً يسافر الى مصر حاملاً للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الهدايا الوافرة النفيسة او يبعث بها اليه اذا اضطرته الاحداث الى البقاء في الشام . وقد اثمرت مساعيه هذه فنجح في الاحتفاظ بحماة ، بل بلغ من حيازة رضى الملك الناصر ان رفع هذا مقامه وخلع عليه شعار السلطنة ولقب الملك . حدث ذلك في القاهرة عام ٧٢٠ هـ . (١٣٢٠ م .) ، عقب عودة ابي الفداء مع السلطان من اداء فريضة الحج في الحجاز (١) . يقول الصلاح الكتبي (ت . ٧٦٤ هـ . ، ١٣٦٣ م .) صاحب فوات الوفيات : « فاعطاه [الملك الناصر] حماة لما امر لايد مر بجلب بعد موت نائبها جقمق ، وجعله سلطاناً يفعل فيها مايشاء من اقطاع وغيره ، ليس لأحد من الدولة بمصر من نائب ووزير معه حكم ، وأركبه في القاهرة بشعار الملك وأبهة السلطنة ، ومشى الأمراء والناس في خدمته ، حتى الأمير سيف الدين تنكز أرغون النائب ، وقام له القاضي كريم الدين بكل مايحتاج اليه في ذلك المهم من التشاريف والانعامات على وجوه الدولة وغيرهم ، ولقبوه الملك الصالح ، ثم بعد قليل لقبه الملك المؤيد . وكان كل سنة يتوجه الى مصر بانواع من الخيل والرقيق والجواهر ، وسائر الاصناف الغريبة ، هذا الى ماهو مستمر طول السنة مما يهديه من التحف والطرف » . ويضيف ابو المحاسن بن تغري بردي (ت . ٨٧٤ هـ . ، ١٤٦٩ م .) « حتى ان الملك الناصر رسم الى نواب البلاد الشامية ان يكتبوا له : « يقبل الأرض » فصار تنكز مع جلالة قدره يكتب له : « يقبّل الأرض » و « بالمقام الشريف العالي المولوي السلطاني العمادي الملكي المؤيدي » . وفي العنوان « صاحب حماة » . ويكتب السلطان الملك الناصر له « أخوه محمد بن قلاوون ، اعز الله انصار المقام الشريف العالي السلطاني الملكي المؤيدي العمادي » بلا مولوي (٣) .

ان هذا الجهد الذي بذله ابو الفداء في استعادة ملك الايوبيين في حماة وفي الاحتفاظ به وفي اكتساب مرضاة السلطان ورعايته لم يكن شيئاً ضئيلاً أو عابراً ، بل كان يتطلب حذراً وحرصاً ونشاطاً وعطاء لايفي أيّ منها ولا يتلكأ . فاذا أضفنا الى هذا الجهد

---

(١) ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٢) فوات الوفيات (القاهرة ، ١٩٥١) ، ج ١ ، ص ٢٨ .

(٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة ، دار الكتب المصرية) ج ٩ (١٩٤٢) ، ص ٢٩٣ .

البالغ ما أشرنا اليه من خروجه لقتال اعداء الاسلام ومنافسي الدولة المملوكية ، واذا ذكرنا الى جانب هذا وذاك تجريده للاشتراك في محاربة الخارجين على السلطان واخضاعهم(١) ، وقيامه ثلاث مرات بالسفر الى الحجاز لاداء فريضة الحج(٢) ،وتنقله في مصر وبلاد الشام(٣) ، امكننا ان نتصور ما كان يملأ حياة صاحبنا ابي الفداء من هموم واشغال ناتجة عن انهماكه في احداث عهده وتصديه لها ، قائداً لجند وحاكماً لولاية ونائباً مميزاً من نواب السلطان .

الى هذه الحياة العملية الجاهدة المضطربة استطاع ابوالفداء ان يجمع حياة التأمل والدراسة والتأليف ، فنظم الشعر ، كما نرى في النبذ المختصرة عن سيرته في كتب التاريخ والتراجم ، وخاصة ما أورده الصلاح الكتبي في فوات الوفيات(٤) . وقد ذكر هذا المترجم ، كما ذكر تاج الدين السبكي وابن حجر العسقلاني ، أنه نظم كتاب الحاوي في الفقه للماوردي . اما بشأن ثقافته العلمية ، فقد وصفه الكتبي بانه كان « فيه مكارم وفضيلة تامة ، من فقه وطب وحكمة وغير ذلك ، وأجود ما كان يعرفه علم الهيئة

(١) كما حدث مثلا سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) وسنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) ج ٤ ، ص ٦٢ — ٦٣ ، ٦٤ .

(٢) ج ٤ ، ص ٥١ ، ٧٣ ، ٨٥ .

(٣) كزيارته للاسكندرية ، ج ٤ ، ص ٨٣ — ٨٤ ، والقدس والخليل مرتين (مرة من غزة ، وأخرى من حماة عبر بعلبك وبيروت وصيدا وعكا) ، ج ٤ ، ص ٧٩ ، ٩٨ .

(٤) ج ١ ، ص ٢٨—٣٢ . بالاضافة الى ترجمته في فوات الوفيات ، ثمة تراجم له في طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي (ت . ٧٧١ هـ ١٣٧٠ م) ج ٢ ، (القاهرة ، ١٣٢٤) ، ص ٨٤ — ٨٦ ، وكتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي (ت ٨٤٥ هـ . ١٤٤٢ م) ، ج ٢ ، ق ٢ (القاهرة ، تحقيق مصطفى زيادة١٩٤٢) ص ٣٥٤ ، والدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني (ت . ٨٥٢ هـ . ١٤٤٩ م) ج ١ (حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٨) ، ص ٣٧١ — ٣٧٣ والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابي المحاسن بن تغري بردي (ت . ٨٧٤ هـ . ١٤٦٩م) ج ٩ القاهرة ، ١٩٤٢) ، ص ٢٩٢ — ٢٩٤ . وهذه التراجم متماثلة ، والارجح انها تعود كلها الى أصل واحد .

لأنه اتقنه ، وان كان قد شارك في سائر العلوم مشاركة جيدة » . وشبيه بهذا ماقاله المترجمون الآخرون ، وأوسعهم في هذا ابو المحاسن بن تغري بردي الذي قال عن صاحبنا أنه « برع في الفقه والاصول والعربية والتاريخ والادب والطب والتفسير والميقات والمنطق والفلسفة مع الاعتقاد الصحيح وكان جامعاً للفضائل » .

ومهما يكن من امر ، فقد اشتهر ابو الفداء باثرين معروفين هما تأريخه : المختصر في أخبار البشر ، وكتابه الجغرافي ، تقويم البلدان . أما الأول فهو في الواقع ، طبقاً لعنوانه ، مختصر لمؤلفات تاريخية سابقة ، في مقدمتها الكامل لابن الاثير (ت . ٦٣٠ هـ - ١٢٣٤ م) ، وقد عددها أبو الفداء في فاتحة كتابه(١) ، فليس له من فضل فيه سوى حسن الاختيار والتنسيق والجمع ، الا عندما يلج زمنه ، فتصبح لمادة الكتاب قيمتها المباشرة ، خاصة في ما يتعلق بالاحداث التي شهدها المؤلف او اشترك فيها . فالكتاب هو اذن ، هذه الفترة من التاريخ الممتدة على حياة مؤلفه (٦٧٢ - ٧٣٢ هـ - ١٢٧٣ - ١٣٣١ م) - والى حد ما الفترة القريبة السابقة (ولما يتصل من احداثها بالدولة الايوبية وبفرعها الحاكم في حماة على وجه الخصوص) ، اصل فريد يعكس لنا حياة ذلك العهد ، ونحن مدينون به لحس ابي الفداء التأريخي وشغفه العلمي .

على ان الكتاب بمجموعه - وان لم تكن له قيمة تأريخية اصلية الا بالنسبة التي ذكرنا - قد أحدث أثراً مرموقاً في الشرق والغرب . أما في الشرق الاسلامي ، فقدوضع في عهد اخذالناس فيه يقبلون على الملخصات والمجموعات في العلوم والآداب جميعاًومنها التأريخ ، فراقهم حسن اختياره ، وتبويبه وشموله ، ولقي عندهم حظوة نستدل عليها من انتشار ، ومن اقبال عدد من المؤرخين على احتذائه أو وضع تتمات له . واشهر المتممين ، كما نعلم ، زين الدين عمر بن الوردي الذي اضاف اليه اخبار السنوات الواقعة بين توقف ابي الفداء (٧٢٩ هـ - ١٣٢٩ م) ووفاته هو (٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م) .

أما في الغرب ، فقديكون اختصاره وسهولة تناوله ، أو قد يكون ظرف تاريخي

---

(١) ج ١ ، ص ٣ .

عارض ، هو الذي دفع به ليحظى باهتمام المستشرقين في وقت مبكر(١) . فلقد كان الغربيون حتى اوائل القرن التاسع عشر يعتمدون في معرفتهم للاسلام والشعوب الاسلامية الكتب التي ألفها رجال الدين أو الرحالين او المحاربين من ابنائهم ، وكانت هـذه الكتب محشوة بالأوهام الباطلة وبالاختلاقات والاكاذيب المضللة ، ولم يقبـل الغربيون — ولم يشعروا بضرورة الاقبال — على اصول المسلمين انفسهم الا عندما بدأت عوامل عصر النهضة وعصر التنور تفعل فيهم ، فكان مختصر ابي الفداء لسبب من الاسباب في مقدمة الاصول التأريخية التي اكتشفوها وعمدوا الى نشرها وترجمتها . وهكذا اصبح ، كما قال الاستاذ جب « أصلا من اصول الاستشراق في القرن الثامن عشر »(٢) ففي عام ١٧٢٣هـ نشر John Gaonier في اكسفورد ذلك القسم من المختصر الذي يشمل سـيرة النبي محمد مع ترجمة الى اللغة اللاتينية . ثم نشر Noël des vergess ترجمة فرنسية لهـذه هذه السيرة في باريس عام ١٨٣٧ . وتبعتها ترجمة M. Murray الانكليزية في لندن . وعني بالتاريخ بكامله رائد الاستشراق الالماني Johann Reiske (١٧١٦ — ١٧٧٤) فنشر عام ١٧٥٤ ترجمته اللاتينية للكتاب حتى سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٥ — ١٠١٦ م) ، على ان Reiske ظل معنياً بالكتاب بكامله تحقيقاً وتعليقاً وترجمة الى اللاتينية ، ولكنه لم يتح له في حياته ان ينشره مع ترجمته ، فقام بالمهمة من بعـده Jacob Abler ، كوبنهاغن (١٧٨٩ — ٩٤) . وفي مطلع القرن التاسع عشر نشر Heinrich Fleisher القسم الذي يتناول تاريخ ماقبل الاسلام (ليزك ، ١٨٣١) مع ترجمة لاتينية ايضاً . هذا الى مقتطفات استخلصت في القرن الثامن عشر اوالتاسع عشر ونشرت باصلها او منقولة الى لغة غربية ، وفي اغلب الاحوال الى اللاتينيـة . وهذا كله يدل على السـبق الذي كان للمختصر في اجتذاب المستشرقين عندما بدأوا يحاولون الاطلاع على التأريـخ الاسلامي من اصوله ومصادره .

---

(١) راجع من عناية المستشرقين بالمختصر وبصنوه التقويم النبذالببليوغرافية في:
F . Wüstenfeld, Die Gesich ichschreiber der Araber und ihre Werke (Gottingen, 1882 », p . 165 — 66 .
C. Brockelmann, GAL, Vol. II, p. 44
G. Sarton, Introduction to the History of Science, Vol. II,1 « Baltimore, 1947 », p. 790 .
(٢) H. A. R. Gibb, «Abu'L Fida,» E. I. 2ud ed., I, P.119 a

نأتي الآن الى الكتاب الثاني الذي اشتهر به أبو الفداء وهو تقويم البلدان . ويبدو ان قيمة هذا الكتاب الذاتية تفوق في موضوعه قيمة المختصر ما عدا القسم المعاصر منه. ومهما يكن من أمر ، فانه يشبهه في مـا كان له من مبكر لدى المستشرقين وغيرهم من العلماء في الغرب . فلقد عمد بعض هؤلاء ابتداء من القرن السـابع عشر الى اقتطاف اقسام منه ونشرها ، كما فعـل John Greaves (لندن ، ١٦٥٠) بالقسم المتعلق بخوارزم ومـا وراء النهر ، و Johann Koehler بالقسم المتعلق ببلاد الشام (مـع ترجمة لاتينية ، ليبزك ، ١٧٦٦) . على ان الكتاب مـا لبث أن لفت نظر الجمعية الآسيوية الفرنسية واسترعى اهتمامها فكلفت عالمين فرنسيين شهيرين هما M,de slane و J, T, Reinavd القيام بتحقيقه ، فأتما هذا العمل ونشر النص الكامل في باريس عام ١٩٤٠ ، ثم عمد اولهما الى ترجمة جزء منه الى الفرنسية ، وقد ظهرت هذه الترجمة مع مقدمة طويلة عن الجغرافيين « الشرقيين » استوعبت مجلداً بكامله في باريس عـام ١٨٤٨ ، وتبعتها بعد خمس وثلاثين سنة ترجمة الجزء الثاني بقلم S, Guyard ، عام ١٨٨٣ . ان هذه العناية المبكرة والفائقة بتقويم ابي الفداء لتـأتي دليلاً على قيمته واهميته العلمية ، ومما يسند ذلك قول الاستاذ جورج سارطون المؤرخ المعروف لتطور العلم في العالم ان ابا الفداء كان « أعظم جغرافيي عصره ، لا في الديار الاسلامية فحسب، بل في أي مكان » (١) .

من كل هذا يتبين لنـا مـا كان لمؤلفي ابي الفداء البارزين من قيمة ذاتية ومن اثر مبكر وواسع ، وما يعكسان ، مع غيرهمـا من مؤلفاته ، من النشاط الذي بذله في حقول العلم . فاذا أضفنا هـذا النشاط العلمي الى نشاطه العملي في الحرب والسياسة والحكم ، ولحظنا غزارة كل منها وحسن جمع ابي الفداء بينها ، امكننا ان نجد في سيرته ونتاجه مادة للاشادة والاعتزاز ، وحسن بنا بالتـالي ان نرحب بالبادرة الطيبة التي اتخذها مجلس الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في احياء ذكرى هذا المناضل بمناسـبة مرو سبعمائة سنة على ميلاده .

(١) G. Sarton, Introduction to the History of Science, voI. II, I (Baltimore, 1947), p. 200

- ٢ -

على اني على يقين أننا لم نجتمع لمجرد الاشادة والاعتزاز . فالمرحلة المصيرية التي نجوزها لا تسمح لنا بهذه المتعة ، متعة تمجيد الماضي والتباهي باعلامه فحسب ، مهما يكن في هـذا الافتخار والتمجيد من بعث للثقة الذاتية وتوطيد للاصالة القومية . انها تفرض علينا ، بالاضافة الى هذا ، ان نعتبر باحداث الماضي ونتعظ بما تحمله لنـا من خبرات ودروس. ونحن عندما نفعل ذلك انما نحيي جانباً هاماً من جهد اسلافنا التاريخي. فلقد كان « الاعتبار » و « الاتعاظ » غاية من ابرز غايات التأريخ عندهم ، كما يبدو من عنـاوين بعض امهات مؤلفاتهم ومن تعريفاتها ومقدماتهـا ، ومن الروح السارية فيها (١) . وانا لنحس فعلاً بهذا الاحياء ، عـلى رغم النزعة الحديثة في التأريخ التي نفذت الى جامعاتنا ومعاهد بحوثنا، والتي طفقنا نمارسها وندرب النشء الجامعي عليها، وهي النزعة التي تعد التأريخ علماً كسائر العلوم، أي جهداً فكرياً يرمي أولاً وآخراً الى كشف حقيقة الماضي ، ولا يتخذ له غاية غير هذه الغاية أو مطمحاً سواها .

ان هذه النزعة العلمية جديرة بكل رعاية وتأييد ، لانها تحمي حقيقة الماضي من أوهام الضالين والمضللين وتصونها من عبث العابثين، وبالتالي تخدم قضية الحرية والتحرر اجل خدمة . ذلك ان من لا يصبو الى الحقيقة ولا يتحرق شوقاً لاكتشافها والالتزام بها يبقى عبداً ويحترم نعمة التحرر والتحرير مهما تعظم سلطته أو تعل مكانته ، على ان الموقف الذي يرضى ببلوغ الحقيقة ويعتمدها غاية ما بعدها غاية هو موقف مثالي لاينطبق على الواقع ، وان انطبق فهو دون الموقف الذي يدعو الى الافادة من الحقيقة في سبيل دفع التقدم أو تعزيز الكرامة الانسانية .

ان عصرنا هذا هو عصر قـد اضطرم فيه الكفاح للبقاء والتقدم أروع اضطرام واشتد فيه التنافس بين الامم أبلغ اشتداد، فمن الخير لنا عندما نقبل على أي جهد نبذله ان نسعى لنستخرج منه مـا ينفعنا في حاضرنا ومستقبلنا ، بل من الخير ان نقدر

---

(١) راجع مثلاً ماذكره حاجي خليفة في تعريفه لعلم التاريخ : « .. والغرض منه الوقوف على الاحوال الماضية . وفائدته العبرة بتلك الاحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن امثال مانقل من المضار ويستجلب نظائرها من المنافع .. » كشف الظنون ، ج١ (استنبول ، ١٩٤١) ، ص ٢٧١ .

ضرورته وقيمته بنوع هذا النفع ومقداره . ان الماضي قد زال بحسناته وشوائبه ، وليس لنا الا الحاضر العسير ، والمستقبل الاشد عسراً ، فاذا عمدنا الى احياء الماضي ، كما نفعل الآن ، ترتب علينا ، بعد ان نقف على حقيقته بدقة وتجرد ، ان نعتبر به وان نفيد من تفهم نقائصه وعيوبه افادتنا من الازدهاء بأمجاده وبدائعه .

وانطلاقاً من هذا الموقف ، سأحاول في ما يلي ان اعرض عبرة من اهم العبر التي ينطق بها عصر ابي الفداء ، والتي يجدر بنا ان نهتدي بها في كفاحنا الحاضر لخلق مجتمع عربي افضل . وسأقتصر في هذه المحاولة على نص المختصر وحده في القسم الذي يؤرخ الاحداث الواقعة بين أواخر الدولة الايوبية (وفاة الملك الصالح نجم الدين ايوب) ووفاة ابي الفداء الممتدة على خمس وثمانين سنة من ٦٤٧ الى ٧٣٢ هـ .(١٢٤٩–١٣٣١م.). فاكون بذلك قد عدت خمساً وعشرين سنة الى ماقبل ولادة ابي الفداء(٦٧٢هـ،١٢٧٣م.)، لاتناول عصره – عصر المماليك – من اوله وأسير به حتى وفاة المؤلف (١) .ولنذكر ان هذه الفترة شهدت زوال الحكم الايوبي وقيام حكم المماليك، وفيها برز ثلاثة من اعظم سلاطينهم قدرة واثراً ، وهم الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٥٨ – ٦٨٦هـ. ١٢٦٠ – ١٢٧٧ م.) ، والمنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨ – ٦٨٩هـ. ، ١٢٧٩ – ١٢٩٠ م.) والناصر محمد بن قلاوون الذي رقي سدة الحكم ثلاث مرات (٦٩٣–٦٩٤هـ. ١٢٩٣ – ١٢٩٤م. ، و ٦٩٨ – ٧٠٨هـ. ، ١٢٩٨ – ١٣٠٨ م. ، و ٧٠٩ – ٧٤١هـ. ، ١٣٠٩ – ١٣٤٠) .

لعل اول مايجب ان يتساءل عنه المؤرخ عند محاولته فهم حالة مجتمع من المجتمعات في زمن من الازمان هو الفكرة اوالفكر التي تسوده والروابط والولاءات التي تشد ابناءه، ومراتب هذه الولاءات من حيث سعتها وقيمتها الذاتية ودرجة تحكمها في النفوس واستثارتها للجهود . ولعل اول مايتبادر الى الذهن عند ماننظر في الفترة التي نعالجها ان الفكرة السائدة في المجتمع المملوكي كانت العقيدة الاسلامية ، وان الولاء الجامع لابنائه المتحكم في نفوسهم كان الولاء الاسلامي . ولكننا عندما نقبل على مختصر ابي الفداء لنتحقق هذا الامر ، نرى ، كما نرى في التواريخ الاخرى لذلك العهد ، ان هذا الولاء الجامع لايبدوالا

---

(١) يقع هذا النص في الصفحات ١٧٩ – ٢١٩ من المجلد الثالث ، و ١–١٠٤ من المجلد الرابع .

بالنسبة للاعداء ، وانه لايكون رابطة حية دائمة تمثل للعميان بصورة عفوية وتفوق في سيطرتها على النفوس اية رابطة اخرى . هذا مايتبين لنا من مراجعة ماورد في المختصر من ذكر لـ : « المسلمين » و « الاسلام » . و « بلاد الاسلام » (او « البلاد الاسلامية ») و « عسكر الاسلام » (او « العساكر الاسلامية ») ، او « الثغور الاسلامية » . فقد وردت لفظة « المسلمون » في القسم الذي ذكرت من مختصر ابي الفداء مائة مرة ومرة : ٤٢ منها بمقابلة التتر او المغل ، و ٣٠ بمقابلة الفرنج ، و ١١ بمقابلة الارمن ، و ٩ بمقابلة نصارى ملطية في دولة سلاجقة الروم ، و ٦ تمييزا عن النصارى او غيرهم من الاقليات في مجتمع المماليك ، و ٢ مرات فحسب بشكل عام يمكن ان ينطبق على ابناء المجتمع بمجموعهم (١) . وشبيه بهذا شأن الالفاظ او الاوصاف الاسلامية الاخرى التي عددناها ، فانها تكاد لاترد في النص الا في معرض اخبار علاقات المماليك باعدائهم ، حربا او سلما . ومن العجيب ان هذا الوصف يختفي في الاخبار المقتضبة عن الخليفة الذي ، وان ضعف شأنه ، يبقى رمزا على الاقل لهذه الرابطة التي كان يفرض ان تكون جامعة شاملة لابناء ذلك العهد ، ففي اخبار استيلاء التتر على بغداد وخروج المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين لقتالهم يشار الى جيشه بلفظة الخلفاء »(٢) ، لا « عسكر المسلمين » او « العسكر الاسلامي » . وفي ذكر أخبار مبايعة الخليفة المستنصر بالله (٣) في القاهرة ، ووفاة حفلة الحاكم بامر الله(٤) ليس ثمة من ذكر للاسلام او المسلمين ، قد لايبدو هذا غريبا المطلعين على احوال ذلك العهد واخباره . ولكن لابأس من استعادته وتذكره دلالة على حقيقة يجدر بنا ان نستوعبها ونسترشدبها في اختياراتنا ومساعينا الحاضرة. ان الفكرة التي تجمعنا اليوم والتي منها ننطلق في ميادين جهادنا المختلفة هي الفكرة القومية العربية . ولاجدال في ان ايماننا بهذه الفكرة انما يكتمل ويغدو باعثا للتحفز فاعلا في مضامير الانجاز والتحقيق ، عندما تفصح هذه عن نفسها في كل جانب من جوانب حياتنا وفي كل آن من آونة وجودنا ، اما اذا كانت انت لاتمثل سوى ولاء يقتصر ظهوره وفعله على

---

(١) ج ٣ ، ص ١٨٢ ، س ٤ ؛ ج ٣ ، ص ٢٠٥ ، س ١٢ ؛ ج ٤ ، ص ٨١ ، س ٨ .

(٢) ج ٣ ، ص ١٩٤ ، س ٣ و ٤

(٣) ج ٣ ، ص ٢١٢ - ١٣

(٤) ج ٤ ، ص ٤٦ . اما في اخبار مبايعة هذا الخليفة (ج ٣ ، ص ٢١٥ ، س ١ و ٤) فقد ورد لقب « امير المؤمنين » .

مجابهة اعدائنا من صهاينة ومستعمرين وسواهم ، ويختفي وراء ولاءات اخرى عندما نعالج شؤوننا الداخلية ونحيا حياتنا الذاتية ، فانها تبقى فكرة ناقصة هزيلة عرضة للتبدد والفساد . انها لاتصح لنا ولاتثبت ولاتثمر ثمرا محييا الا عندما تكون عدتنا ومددنا في بناء كياننا القومي فتتيح لنا ، من جهة الصمود والغلبة في مكافحة الاعداء ، ومن جهة اخرى ، المضي في مانتطلع اليه من تحرر وتجدد وتقدم .

لم يكن من سنن الاحداث ، ولا من طبائع العمران كما يقول ابن خلدون ، ان تظهر هذه الفكرة القومية العربية في العهد الذي نتصدى له . فالعرب في ذلك الزمن ، كما يبدو واضحاً من المختصر ومن غيره من المصادر ، هم « العربان » او « الاعراب » سكان البراري ،(١) واولئك الذين كانت تنبسط عليهم سلطة الحاكمين حينا وتتراجع حينا آخر . واذا راجعنا اخبارهم وجدنا ان حياتهم كانت تضطرب بين الاشتراك تحت امرة امرائهم في منازعات المماليك الداخلية وحروبهم الخارجية ،(٢) واستقبال بعض الناقمين على السلطة الوافدين اليهم اختباء من العيون او طلبا للحماية(٣) ، والخروج من براريهم الى ما حولهم من ديار طامعين او عابثين ناهبين(٤) هؤلاء ، انى كانت منازلهم ، في الشام او في العراق او الحجاز او بلاد المغرب ، لم يكونوا عماد الشعب او الدولة حينذاك ، ولم يكن بالامكان ان يسبغوا على المجتمع هويته او ان يوفروا له رابطته الاساسية او ولاءه الجامع .

فاذا لم يكن الولاء العربي هو السائد حينذاك ، ولم يكن الولاء الاسلامي يبرز الى الوجود جامعا وفاعلا الا عند مجابهة الاعداء ، فأي ولاء كان ذلك الذى يفعل في النفوس ويوجه الافراد والجماعات في تصرفاتهم الخاصة والعامة ؟ ان السلطة في القاهرة ، والى حد في الولايات ، كانت في ايدي القادة والجند من المماليك ، وهؤلاء كانوا يؤلفون جماعات تدين كل منها بالولاء لصاحبها او استاذها الذي اقتناها ودربها وادخلها في خدمته وجعل منها عماد جنده وسلطته . وقد بدأ بهذا التقليد ، كما نعلم ، الخليفة العباسي

---

(١) ج٣ ، ص ١٩٣ ، س ١٧ و ص ١٩٥ ، س١٣ ؛ ج ٤ ، ص ٨ ، س ١ ، س١٣ و ص٥٣ ، س٢٧ .

(٢) ج ٣ ، ص٢١١ ، س١١ ؛ ج٤ ، ص١٥ ، س٦

(٣) ج٣ ، ص١٩١ ، س٢٨ ؛ ج٤ ، ص ٦٥ ، س ٧ و ٨

(٤) ج٣ ، ص٢١٢ ، س ١٤ ؛ ج٤ ، ص٩٥ ، س ٥ و ٦

بالمعتصم بالله (٢١٨ — ٢٢٧ — ﻫ ، ١٨٣٣ — ١٨٤٢ م .) عندمـا جلب الاتراك وجندهم وجعلهم حرسا له وسندا لعرشه بعد ان اشتد التناحر بين العرب والفرس على السيادة والنفوذ في الدولة . ومضى من بعده الخلفاء في بغداد وحكام الدول في المناطق والاطراف يتبعون هذا المسلك ، الى ان كان عهـد الايوبيين فغلوا فيه واكثروا من استخدام المماليك ، وكان لكل منهم فئة من هؤلاء تنتسب اليه ، كالصلاحية نسبة الى السلطان صلاح الدين ، والعادلية نسبة الى العادل ، والكاملية نسبة الى الكامل ، والصالحية نسبة الى الملك الصالح نجم الدين ايوب الذي فسح في المجال بكثرة ما جمـع وجيّش من المماليك لزوال الدولة الايوبية وتسلط المماليك . وعندما جاء هؤلاء الى الحكم ظلت هذه الفئات الموروثة من الايوبيين قائمة الى حين ، لمنشأها او للتحولات في موازين القوى لدى الحاكمين .

فالولاء الاول المؤثر عند ذوي السلطة حينذاك اذن ولاء التبعية ، ولاء الخـادم للمخدوم ، والمملوك للاستاذ ، ولاء لا يتوخى المجتمع بكامله ، بل ينحصر في الفئة التي ينتمي اليها المملوك ، ذلك أن بقاءه وسلطته وعزته رهينة ببقاء فئته وسيطرتها ، وبقوة صاحبها وشكيمته وقدرته على تولي الحكم والاحتفاظ به وردع الفرق الاخرى والتغلب عليها .

يضاف الى هذا الولاء التبعي المصلحي ولاء آخر هو الولاء القطري أو البلدي ، فكان الشاميون (١) والحمويون (٢) والعساكر المصرية (٣) والشاميـة (٤) والحموية والحلبية والساحلية (٥) إلى غيرها من النسب المتصلة بمناطق أو ولايات داخلة في حكم الدولة . وكان هذا الولاء الثاني شبيهاً بالاول في انه لم يكن يخضع لولاء جامع شامل يضم المجتمـع بـكامله والشعب بأجمعه .

قلنا « الشعب » وكان يجدر بنا ان نجتنب هذا اللفظ ، لانه لم يرد في المختصر ،

---

(١) ج ٤ ، ص ١٣ ، س ١٨

(٢) ج ٤ ، ص ٢٧ ، س ٣ و ٧

(٣) ج ٤ ، ص ٢٢ ، س ١١

(٤) ج ٤ ، ص ١٥ ، س ١٨ و ١٩

(٥) ج ٤ ، ص ٤٩ ، س ١٥

وإخال انه لم يرد في التواريخ الاخرى لذلك العصر . وفي الواقع انا قلما نجد ذكراً لعامة الناس او اشارة لاحوالهم في ذلك العصر إلا عند وقوع الشدائد كاستيلاء التتر على المدن وما يصيب أهلها من تقتيل وترويع وتخريب(٦) ، او الكوارث الطبيعية كالزلزلة التي حدثت عام ٧٠٣ هـ . (١٣٠٤ م .) وفيها « هلك خلق كثير تحت الهدم »(١) والسيول في بلاد الشام(٢) ، أو الأوبئة وما يتبعها من غلاء وفناء (٣) ، وامثال ذلك من المحن التي نجد صورة رهيبة عنها في مصادر ذلك العهد (وخاصــة في الكتاب الذي يكاد يكون فريداً في هذا الموضوع وهو اغاثة الامة بكشف الامة للمقريزي «٤» ، والتي تبعث في نفس القارىء اعمق الاسى لما جلبته للناس من ضيم وعذاب وهلاك يصعب علينا اليوم ان نتصور كيف قبلوا بها او استطاعوا ان يتحملوها .

- ٣ -

والواقع اننا إذا أردنا أن نستخلص جوهر الوضع السائد في ذلك العصر وجدناه يتمثل في حقيقتين مترابطتين ، أولاهما أن الكلمة كانت دوماً للقوة : لا لقوة المجموع ، بل لقوة الفرد أو قوة جماعته . فقلما سجل التاريخ نظاماً كهذا النظام ، تمكن فيــه أفراد من أن يرتقوا من حالة الرق التي كانوا فيها يشرون ويباعون إلى أعلى مراتب الحكم والسطوة في دولة متسعة الرقعــة عزيزة الشأن ، وذلك بفضل قدرتهم الشخصية أو تضامن جماعتهم ، أو كلا الأمرين معاً . قلما سجل التاريخ عهداً كهذا العهد كانت القوة فيه سبيل السيادة وعنوان الصدارة ، بل في أحيان كثيرة شرط البقاء والنجاة ،في مجتمع اشتد فيه وطيس التنافس على الحكم والسلطة ايما اشتداد ، ولم يكن فيه لحاكم أو متسلط أية ضمانة إلا ضمانة السيف ، سيفه وسيف أصحابه وحلفائه . ان تاريخ المماليك كله ينطق بهذه الحقيقة ومصادره مليئة بالاخبار الدالة على تجسدها في الدولة وتحكمها في الاحداث . ونكتفي هنا بشاهد واحد يعبر عنها ابلغ تعبير . بعد تغلب المماليك على التتر في موقعة

---

(١) ج٣ ، ص٢٠٣

(٢) ج٤ ، ص٥٠ ، س١١

(٣) ج ٤ ، ص١٨ ، س ٦ و ٩ ، ص٧٨ ، س١٣ و ١٦ ، ص ٨١ و ٨٢.

(٤) ج٣ ، ص١٩٧ ، س٣ ؛ ج٤ ، ص ٣٣ س ١٠ – ١١

(٥) نشر محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٠.

عين جالوت الشهيرة (٦٥٨ﻫ . ، ١٢٦٠م .) سار السلطان الملك قطز عائداً إلى مصر مع كبار قادته ، ولكن هؤلاء كانوا قد اتفقوا على اغتياله ، فنفذوا خطتهم في طريق عودتهم وهم على مرحلة من الصالحية(١) وكان الذي حمـل عليه وضربه بالسيف بيبرس البندقداري الصالحي . وتابـع هؤلاء القادة سيرهم حتى وصلوا إلى الدهليز بالصالحية ... وكان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين اقطاي المستعرب ... فلما وصـل بيبرس البندقداري مـع الجماعة الذين قتلوا قطز الدهليز سألهم اقطاي المستعرب المذكور وقال من قتله منكم فقال له بيبرس أنا فقال له اقطاي يا خَوند اجلس في مرتبة السلطنة فجلس واستدعيت العساكر للتحليف فحلفوا له في اليوم الذي قتل فيه قطز .... وسبق العسكر الى قلعـة الجبل ففتحت له ودخلها واستقرت قدمه في المملكة قد زينت مصر والقاهرة لقدم قطز فاستمرت الزينة لسلطنة بيبرس المذكور ...(٢)

أما الحقيقة الثانية ، المتصلة بالأولى ، فهي الشقة الهائلة التي كانت قائمة بين الحـاكم والمحكوم ، بل غياب المحكوم عن ذهن الحاكم الا من حيث كونه أداة استغلال ومصدر تمويل وتعبئة . ومن هنا كان أيضاً غياب هذا المحكوم ، على كونه يؤلف جمهرة الناس ، غياباً يكاد يكون تاماً عن اهتمامات المؤرخين وكتاباتهم ، كما رأينا عند ابي الفداء. والواقع اننا اذا اردنا صورة لمجتمع يبلغ فيه تحكم قلة بكثرة وتسلط طبقة محتكرة على جماهير مشلولة ابعد مدى ، فلعلنا لا نجد صورة ابلـغ واشد اثارة من هذه التي بين أيدينا .

ان نظاماً كهذا الذي عاش أبو الفداء في ظله قد يأتي بانجازات لها قيمتها وأثرها . فمن انجازاته انه استطاع ان يبقى ويستمر ، على رغم ما تخلله من اضطرابات وقلاقل، ما يزيد على القرنين والنصف (٦٤٨ — ٩٢٣ ﻫ ، ١٢٥٠ — ١٥١٧ م) ، الى أنه انهار أمام هجمات الاتراك والعثمانيين وسلطتهم الناهضة حينذاك . ومنها أنه تغلب عـلى أعداء أشداء له وللمجتمع الاسلامي ، فاستولى على ما بقي في يد الفرنج الصليبيين من مدن وحصون — وأهمها انطاكية وطرابلس وعكا والكرك وحصن الاكراد والمرقب — وطردهم منها وقضى على وجودهم في بلاد الشام وعلى خطرهم لمصر ، وذلك في العقـود

---

(١) وهي المدينة التي بناها الملك الصالح نجم الدين ايوب سنة ٦٤٤ ﻫ (١٢٤٦م) « في أول الرمل الذي بين مصر والشام وأنشأ بها قصوراً وجامعاً وسوقاً لتكون مركز العساكر اذا خرجوا من الرمل » الخطط للمقريزي ، ج ١ (١٣٢٤) ، ص ٢٩٧ .

(٢) ج ٣ ، ص ٢٠٧ و ٢٠٨ .

الاربعة الأولى من قيامه ، وبفضل ثلاثة من سلاطينه الاولين ، الملك الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون والملك الاشرف خليل . وأفلح هذا النظام كذلك ، في الفترة التي نتحدث عنها ، في دفع خطر التتر وفي صد هجماتهم العنيفة المستمرة ، التي لو نجحت لاتيح للتتر على الارجح ان يكتسحوا مصر والشام وأن يغيروا تاريخ هذه المنطقة من العالم . ان من يتابع مختصر أبي الفداء أو سواه من تواريخ ذلك العهد ليلحظ كثرة ما يرد فيها من اخبار التتر وهجماتهم المتتابعة على بلاد الشام وتهديداتهم لها ولمصر ، ومن وصف فظائعهم عندما كانوا يستولون على المدن ، وما كانوا يثيرونه من رعب وذهول في قلوب الناس ونفوسهم . وقد صمد المماليك لهذا كله وحاربوا التتر حروباً مريرة وردوهم على أعقابهم . بدأ هذا ، ودولة المماليك لا تزال في مهدها ، عندما تقدمت جيوش المغول بعد استيلائها على بغداد وقضائها على الخلافة العباسية فيها ، واكتسحت قسماً كبيراً من بلاد الشام ومعاقلها ، فوقف المماليك في وجهها في عين جالوت (٦٥٨ هـ ١٢٦٠ م) وهزموها شر هزيمة .

وكان السلطان حينذاك الملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٧ — ٦٥٨ هـ ، ١٢٥٩ — ١٢٦٠) ، وأبلى بيبرس البندقداري ، وكان بعد أميراً ، بلاء حسناً في تلك الموقعة وفي ما سبقها وما لحقها (١) . وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر العظيم فان القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتر لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ولأنهم ما قصدوا اقليماً إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه (٢) . وتبع هذا النصر العظيم « مصاف » عظيم آخر بظاهر حمص (٦٨٠ هـ ، ١٢٨٠ م) في عهد الملك المنصور قلاوون وانتهى بالنتيجة ذاتها ولاذت جيوش ابغا ابن هولاكو بالفرار ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وكانت عدة التتر ثمانين ألف فارس منهم خمسون الفاً من المغل والباقي حشود وجموع من اجناس مختلفة مثل الكرج والارمن والعجم وغيرهم (٣) . ومع ان التتر استطاعوا في غزوتهم الضخمة التالية بقيادة غازان ابن ارغون ان ينزلوا بالمسلمين هزيمة شديدة شرقي حمص (٦٩٩ هـ ، ١٢٩٩ م) وان يستولوا على معظم بلاد الشام ، ويردوا عساكر المسلمين الى مصر (٤) ، فان كفة هؤلاء عادت فرجحت بعد

(١) ج٣ ، ص ٢٠٥

(٢) الصفحة ذاتها ص٢٥ و ٢٧

(٣) ج٤ ، ص١٥ ، ص١٤ و ١٦

(٤) ج٤ ، ص ٤٢ و ٤٣

ثلاث سنوات ، فكانت لهم « النصرة العظيمة » في مرج الصفر (٧٠٢ هـ ، ١٣٠٢ م)(١) وسلمت بعدها بلاد الشام ومصر من غزوات المماليك وفظائعهم مدة قرن من الزمن حتى مجيء تيمورلنك .

وبالاضافة الى تحرير البلاد من الفرنج الصليبيين وانقاذها من أخطار التتر واهوالهم ، استطاع المماليك في هذه الفترة ان يبسطوا نفوذهم على بلاد النوبة ، وان يقاتلوا سلاجقة الروم والارمن ويتوغلوا في بلادهم ، وان ينشئوا شبكة من العلاقات الدولية بينهم وبين مغول القفجاق والامبراطور البزنطي وبعض حكام اوروبا .

هذا في الميدان الخارجي ، أما في الميدان الداخلي ، فقد كان لهذا العهد انجازاته في تقوية الجيش والاسطول وتوسيعهما جنداً وعدة ، وفي تنظيم الادارة ، وفي اعمال البناء والعمران . وفي هذا الحقل الأخير يعود الفضل الى السلاطين الثلاثة البارزين في هذا العهد : الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون . فما انشأه هؤلاء ، بناء او تجديداً ، من جوامع ودور ومدارس وأضرحة وحمامات ، ومن قبب وقلاع وجسور وقناطر وترع (٢) ، يثير العجب بكثرته وروعته . لقد كانت يدهم مطلقة في جمع الاموال وانفاقها وفي حشد الرجال واستخدامهم ، وكان يهمهم حماية ملكهم وبسط نفوذهم وتخليد ذكرهم ، فجاء عهدهم من ابهى العهود الاسلامية في حقل البناء ، ومن الغريب حقاً ان هؤلاء السلاطين الذين انتزعوا من منابتهم ، ولم تكن لهم اصالة ثقافية او فنية ، استطاعوا ان يجعلوا من بعض ابنيتهم ، بما جندوا لها من مهرة البنائين والصناع ، من اجمل الآثار التي شيدت في مصر والشام بل في العالم الاسلامي عامة . ومثل هذه الروعة الفنية نجدها ايضاً في ايضاً في ما ورثناه من ذلك العهد من تحف وطرف ، معدنية او زجاجية او خشبية او سواها ، تميزت بدقة صنعها وجمال تزيينها ، ولا يزال ما حفظ منها في الابنية القائمة او المتاحف ودور الآثار يثير الاعجاب والتقدير .

وليس هذا فحسب، اذ ثمة ايضاً انجازات في حقل العلم، وخاصة في الطبوالتأريخ

---

(١) ج٤ ، ص٤٨ و ٤٩

(٢) راجع مثلاً تعداد ما أنشأه الظاهر بيبرس في فوات الوفيات ، ج١ ، ص ١٦٧ و ١٦٩ .

والادارة والموسوعات الأدبية، لا يسمح لنا مجالنا هنا بتفصيلها. ولكن لابد من القول ان هذا الانتاج، على ضخامته، لم يتميز بالابتكار والابداع. لقد حفظ التراث السالف وفصّله واضاف اليه هنا وهناك واختصره ونظمه، ولكنه لم يخرج عن قواعده بل ظل مقلداً له ومحصوراً في نطاقه. واذا اعترض معترض بالابتكار العالمي العظيم الذي جاء على يد ابن خلدون، فلنذكر ان افكار ابن خلدون التأريخية والاجتماعية كانت قد تكونت وتأريخه، بما فيه المقدمة، كان قد وضع بصورته الأولى، قبل ان يقدم ابن خلدون من المغرب الى مصر.

وخلاصة ما نود ان نسجله للنقاش، للاطمئنان الى صحته أولاً وللاعتبار به ثانياً، هو ان عهداً كهذا الذي عاش فيه ابو الفداء، قد يحقق انجازات حربية وعمرانية وعلمية يحق لاصحابها ولخلفهم ان يعتزوا بها ويحدو بالمؤرخ ان يقر بها ويسجلها، ولكنه ليس خليقاً بأن يضمن الاستقرار والازدهار وان يسلك مسالك التقدم والرقي. وذلك بسبب العلتين الاساسيتين اللتين ذكرناهما: وهما: اعتماد اصحاب السلطة المصلحة — مصلحتهم هم — هدفاً والقوة عدة وسنداً، وانفصالهم عن جمهور الشعب واستغلالهم اياه اسوأ استغلال.

لا شك ان للقوة فعلها في حياة الدول والمجتمعات، لكن ماهية هذا الفعل واثره وخيره وشره انما تتوقف على المبادىء السائدة والقيم المعتبرة. فاذا ضاعت المبادىء او فسدت غدت القوة المجردة اداة تخريب وتبديد وتخلف، اما اذا صحت وظلت دوماً نصب العيون وقبلة الجهود، كانت القوة عوناً على تحقيقها وسبيلاً الى التحرير والترقية: تحرير المواطن وترقية الانسان.

هذا هو، في نظري، خلاصة ما يجب ان نستذكره ونعتبر به من استعراضنا لعصر ابي الفداء — ذلك العصر الذي، رغم انجازاته التي وصفنا، غاب عنه المواطن وكاد ينعدم الانسان. فاذا استذكرنا واعتبرنا كان في ذلك تعزيز لطموحنا واذكاء جهودنا لبناء مجتمع عربي افضل — افضل مما نحن فيه ومما كنا عليه — مجتمع يتجلى فيه تحرر المواطن العربي ورقي الانسان العربي، ويمثل مرحلة ايجابية زاهية في مسيرة الامة العربية لتكوين ذاتها واعلاء شأنها واداء رسالتها.

أبو الفداء

البيئة - الأمير - الملك - المؤرخ

الدكتور سهيل زكار

حماة وقيام المملكة الايوبية فيها :

بعد ان تم للعرب في بداية القرن الاول للهجرة / السابع للميلاد ، فتح بلاد الشام وتحريرها من حكم الامبراطورية البيزنطية ، قاموا بتقسيم هذه البلاد الى اربعة اقسام عسكرية ادارية ، دعي كل واحد منها باسم جند ، وهي : جند فلسطين ، جند الاردن ، جند دمشق ، جند حمص . وقد شمل جند حمص وسط بلاد الشام مع قسمها الشمالي .

ومع توقف التوسع داخل الاراضي البيزنطية وتوضح منطقة الحدود بين بلاد الشام وبيزنطة ومع استمرار الاعمال العسكرية العربية- البيزنطية ازدادت اهمية المنطقة الشمالية من بلاد الشام ، وكانت مدينة قنسرين اهم مدن هذه المنطقة وتلاها في الاهمية مدينة حلب .

وفي النصف الثاني للقرن الاول للهجرة ، في اواخر عهد معاوية بن ابي سفيان ثم زمن حكم ابنه يزيد ، اتجهت الخلافة الاموية نحو تقسيم جند حمص الى قسمين ، بحيث تفرد شمالي بلاد الشام في جند خاص ، وتم هذا ايام يزيد بن معاوية ، الذى كان من جملة ماأحدثه اقامة جند جديد عرف باسم جند قنسرين .

وكانت بلاد الشام قبل الفتح العربي ، تعج بالقبائل العربية ، التي انحدر غالبيتها من اصل يماني ، وكانت قبائل طيء وتنوخ أبرز قبائل شمالي بلاد الشام ومنطقة الجزيرة، يستخلص من الكتابات السريانية للقرن السادس فما بعد ومن المصادر العربية لأخبار فتوحات بلاد الشمال ان عناصر هذه القبائل كانت في القرن السابع قد فقدت معظم طباعها البدوية ، ومالت نحو حياة الاستقرار في مناطق خاصة الحقت بمدن الشمال ودعي كل منها باسم « حاضر » .

وبعد استتمام حركة الفتح العربي ، قامت قبائل كثيرة بالهجرة من شبه الجزيرة العربية نحو البلاد المفتوحة ، ولقد سلكت القبائل التي هاجرت من شمالي الجزيرة طريق وادي الفرات وصعد بعضها شمالا نحو اقليم الجزيرة، ثم تحول غربا نحو شمال بلاد الشام.

واستطاعت القبائل الجديدة ان تستقر في مناطق هجرتها الجديدة ، وان تنال لنفسها السيطرة والسيادة دونما مزاحمة من القبائل القديمة .

وكان لهذه الهجرة آثاراً كبيرة على التركيب البشري والقبلي لشمالي بلاد الشام ، كما لها نتائج على مستقبل شمالي بلاد الشام السياسي والاجتماعي والحضاري ،وظهرت اول هذه النتائج في تميز شمالي بلاد الشام ودفع الخلافة الأموية نحو جعله جنداً خاصاً .ومع الأيام ازداد تميز هذا الشمال ، وبنفس الوقت برز بين القبائل التي هاجرت إليه قبيلة كلاب ، واخذ بعض زعماء هذه القبيلة يرنو ببصره نحو السيطرة على جميع اجزاء بلاد الشام ، وتحقيق السيادة والامارة على جميع قبائل عرب الشام ، ولقد برز هذا بعد وفاة يزيد بن معاوية ، ووضح اثناء الصراع من اجل الخلافة بعده ، خاصة في معركة مرج راهط سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م ، ففي هذه المعركة قاتل زفر بن الحارث الكلابي تساانده

قبائل الشمال القيسية الأصل ، ضد مروان بن الحكم الذي سانده قبيلة كلب وسواها من قبائل اليمن ، وهزم زفر بن الحارث في هذه المعركة ، وفر نحو الشمال ثم شرقاً حيث اعتصم في مدينة قرقيسيا (البصيرة حالياً في سورية) وامتنع لفترة من الزمن عن الاعتراف بالخليفة الأموي الجديد .

لقد كان لمعركة مرج راهط نتائج كبيرة على تاريخ بلاد الشام بعدها ، فقد أزالت هذه المعركة تقسيمات الأجناد من الناحية السياسية ، وحولت الشام الى دارين يفصل بينهما خط وهمي يمر قرب الرستن على العاصي ويمضي شرقاً داخل بادية الشام ، وصارت الدار الشمالية دياراً لكلاب والجنوبية لكلب .

واستمر الصراع بين كلب وكلاب ، ونتج عن هذا الاستمرار توضح الانقسام السياسي الذي حل ببلاد الشام ، وكان لذلك نتائج كبيرة الغاية على مستقبل عدد من المدن الشامية البارزة ، فلقد تأثرت حمص بشكل كبير ، وبدأت تفقد أهميتها تدريجياً ، كذلك تأثرت مدينة قنسرين ، فأخذت تتقهقر ، وازدادت أهمية حلب ، وتقدمت هذه المدينة لتحتل مكان الصدارة بين مدن الشام ، وذلك على حساب كل من قنسرين وانطاكية ، وأصبحت حلب عاصمة ديار الشمال ، ومركزاً للصراع مع الجنوب ، وفي نفس الوقت عظمت أهمية مدينة دمشق ، وأصبحت مركز الجنوب الرئيسية — بالاضافة لكونها عاصمة الخلافة الأموية — ومع الأيام بدأ الصراع بين كلب وكلاب يتحول الى صراع جنوب بلاد الشام وشمالها ، أو بين حلب ودمشق ، وتوضح هذا بعد زوال الدولة الاموية بفترة من الزمن .

ذلك ان الدولة العباسية ، التي اتخذت من العراق مركزاً لها ، انشغلت كلياً بمشاكل شرقي دار الخلافة ، واولت الاقسام الغربية القليل من العناية . لذلك تطور في منطقة الحدود مع بيزنطة نظام دفاعي ، وكان هذا التطور من الامور التي ساهمت في ازدياد اهمية مدينة حلب . وبداية لتحولها الى مركز سياسي شبه مستقل .

وبعد مصرع الخليفة المتوكل على الله العباسي ، واستيلاء الجند على مقاليد الامور في مركز الدولة العباسية ، اخذت اجزاء كثيرة واقعة على اطراف هذه الدولة ، خاصة في الغرب ، بالانفصال ، وتكوين دول شبه مستقلة ، وانتقلت عدوى الانفصال من قسم الى آخر كل ذلك في الوقت الذي ازدادت فيه امور عاصمة العباسيين اضطراباً وضعفاً ، وكان من بين المراكز التي انفصلت والاقاليم التي استقلت اقليم مصر .

ومارست دول مصر الاسلامية المستقلة بعد قيامها سياسة خارجية محددة تجاه بلاد الشام ، ونبعت هذه السياسة من طبيعة تركيب مصر الجغرافية . كما انها استفادت من تجارب تاريخ العلاقات بين مصر القديمة وبلاد الشام ، فمصر التي هي عبارة عن سهل ليس له حدود ذات موانع طبيعية تحميه ، غزيت دائماً عن طريق بلاد الشام ، لذلك قامت سياسة هذا البلد القديمة على احتلال بلاد الشام للتصدي لكل هجوم طارىء خارج اراضي مصر ، ولقد ترافق هذا الاحتلال في كثير من الاحيان مع مطامح الحكام ورغباتهم في التوسع ، كما انه دفع نحو التوسع الامبراطوري .

وكان الذي حدث بعد قيام دولة مصر الاسلامية ان هذه الدولة نجحت في احتلال بلاد الشام ، انما اخفقت في الاحتفاظ بالقسم الشمالي من هذه البلاد ، وكان من اهم اسباب الاخفاق : بعد الشمال عن مصر ، ووجود قبيلة كلاب التي حرصت على المحافظة على استقلالها في ديارها ، ثم سياسة الامبراطورية البيزنطية التي ابتغت ان لا تكون حدودها المباشرة مع دولة اسلامية قوية ، بل أرادت ان يكون بينها دولة صغيرة حاجزة ، وهكذا حافظت على استقلالها ، واخذ الكلابيون يحاولون اقامة دولة مستقلة فيها . لكن طبيعة تركيب قبيلتهم ثم وجود الدولة الحمدانية في الموصل حرمهم من ذلك ، وساعد على قيام الدولة الحمدانية ، في حلب ، وهكذا غدت مدينة حلب مركزاً لدولة صغيرة تحكم شمال بلاد الشام ، وتتطلع الى احتلال الجنوب ، وفي نفس الوقت بذلت دول مصر الاسلامية المستقلة قصارى جهدها للاحتفاظ بجنوب بلاد الشام وسعت دائماً لاحتلال الشمال ، وعلى هذا الاساس استمر النزاع بين حلب ودمشق ، وتوضح هذا بشكل ملحوظ في القرنين الرابع والخامس / هـ / العاشر والحادي عشر / م / .

وأثناء هذا الصراع ازداد اضمحلال مدينة حمص ، وساعد على ذلك تعرضها في القرن العاشر لغزوات بيزنطية التي هدمتها . ودمرت منطقتها اكثر نحو الانحدار والاضمحلال وصارت منطقة حماة ارض الصراع بين دمشق وحلب وساعد هذا الصراع على دفع حماة وتقدمها ، ولما لم يوصل الصراع بين حلب ودمشق الى نتائج حاسمة دائمة لصالح أحد الطرفين ، فقد استفادت منطقة حماة من ذلك ، وبدأت تتحول منذ أواخر القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي من حقل للصراع الى منطقة عازلة بين القوتين المتصارعتين ، وتطورت مدينة حماة من بلدة صغيرة كانت تابعة لجند حمص ، وبدأت تتحول الى مدينة من أبرز مدن الشام وأكبرها .

ومما زاد من أهمية مدينة حماة وساعد على بروزها موقعها الستراتيجي الهام ، واحاطتها بعدد من المراكز الحصنية مثل : شيزر ، وكفر طاب ، وغيرهما ، ثم لمرور نهر العاصي بها وسقايته لسهولها ، مما وفر لها موارد اقتصادية تدفع بذوي المطامح للاستيلاء عليها ، وتستطيع تحمل نفقات دولة مستقلة ذات ادارة وجند وبلاط خاص بها .

وبعد ما دخلت جموع الصليبيين بلاد الشام في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد لم تستطيع هذه الجموع الاستيلاء على مدينة حماة ، كما ان حصن شيزر كان قد نجا من احتلالهم أيضاً ، وتمركز الصليبيون غير بعيد عن حماة ، وصارت أحد مراكز مقاومة الاحتلال الصليبي .

وفي الوقت الذي رفع فيه الخطر الصليبي من شأن مدينة حماة ، وجد خطر آخر من شأنها أيضاً ، وجاء هذا من تمركز قوى الدعوة الاسماعيلية الجديدة . الحشيشية . في عدد من القلاع والحصون والمراكز الواقعة في غربي حماة ، ولقد وجه الاسماعيليون نشاطهم ضد السلطات السنية للسلطنة السلجوقية ، ثم ضد ورثتها من بعدها ، وصارت حماة نتيجة لذلك أبرز مراكز رصد النشاط الاسماعيلي والتصدي لمخاطره .

ومن المعروف أن بلاد الشام قد تعرضت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر للميلاد لهجرة التركمان التي ترافقت مع قيام السلطنة السلجوقية ، ولقد أثر انسياح التركمان على الوضع السياسي والبشري والقبلي والاجتماعي والحضاري والاقتصادي والديني لبلاد الشام وأطراف الفرات ، والتوجه جنوباً ، واستقر الكثير من القبائل العربية في المناطق الواقعة الى الشرق من مدينة حماه ، وكانت هذه القبائل في حركة دائمة وفي صراع داخلي وخارجي متواصل ومؤثر في نفس الوقت ، ورفع وجود القبائل من شأن حماة ، حيث أصبحت سوقاً لوارداتهم وصادراتهم .

واستدعى هذا وجود سلطات قوية في حماه لتحد من نشاط القبائل ولترصد تحركاتها وهكذا توفر مع الايام لحماه جهاز إداري خاص ، وتهيأت جميع الظروف لقيام دولة مستقلة بها .

واستمرت الحال هكذا الى ان قامت الامبراطورية الايوبية التي اسسها صلاح الدين الأيوبي واقامها على تركة دولة الاتابكة ، ولم ترث امبراطورية صلاح الدين املاك الاتابكة فقط بل ورثت اسس حكمهم التي نبعت من نظام السلطنة السلجوقية التي كانت

عبارة عن اتحاد دويلات كل واحدة منها تحكم من قبـل امير عشيرة تركمانية ، او قائد قوة عسكرية ، وكان قد تطور في عهد السلطنة السلجوقية نظام الاقطاع العسكري ، وعندما قامت دولة صلاح الدين أخذت بأنظمة السلاجقة وطبقتها .

وكانت امبراطورية صلاح الدين في ايامه عبارة عن اتحاد يضم عددا من الدول المتفاوتة الاحجام ، وبعد وفاة صلاح الدين استمر الوضع ذاته ، انما مـع فارق هو : توضح ما كانت بوادره قد ظهرت في أواخر ايام صلاح الدين ، فقد بدا آنذاك واضحا للعيان ضعف هذا النظام وكثرة معائبه ، فقد تصارع اصحاب الدول بـين بعضهم البعض وضد السلطنة المركزية التي اتخذت من القاهرة قاعدة لها ، واستمر النزاع بـين دمشق وحلب ، وبعد زوال الحكم الايوبي وقيام حكم المماليك لم يتغير هذا النمط ، ذلك ان دولة المماليك التي اتخذت من مصـر قاعدة لها ، بذلت قصارى جهدها للمحافظـة على حكمها لبلاد الشام

وكان لقيام غزوات المغول ، وتأسيس حكم الايلخانيين وغزواتهم المستمرة اثر كبير في استمرار اهمية مدينة حماة وتقدمها .

وكان من جملة الدول الايوبية التي قامت زمن صلاح الدين دولة حماة ، فقد اقطع صلاح الدين ابن اخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن ايوب حماة ، وذلك اثناء عمله في سبيل تصفية الدولة الاتابكية وفي سنة ٥٨١ هـ - ١١٨٥ م زاده على حماة المعرة ، وكفر طاب ومنبج ، وميا فارقـين وحمل تقي الدين عمر هـذا لقب المظفر ، وصارت مرتبته مرتبة ملك ، وفي سنة ٥٨٧ هـ - ١١٩١ م توفي الملك المظفر هذا ، وكان صلاح الدين ما يزال حيا ، وعقب وفاته ورثه ابنه محمد بلقب الملك المنصور ، وارسل الملك المنصور الى صلاح الدين يخبره بوفاة ابيه ، ويعلمه بقيامه مكانه وراثة ، فرفض صلاح الدين الاعتراف به لكنـه ما لبث ان تراجع وقرر الملك المنصور حماة ، وسلمية ، والمعرة ، ومنبج ، وقلعة نجم . وجلب هذا الاعتراف الرسمي من السلطان — الامبراطور الى الوجود شـرعيا دولة حماة الايوبية ، وحولها من اقطاعية عسـكرية الى مملكة وراثية .

ومع الايام أخذت هـذه المملكة تتخلى عن ممتلكاتها في الجزيرة وغيرها مقابـل ممتلكات قريبة من مدينة حماه ، وتورط ملوك هذه الدولة في منازعـات افراد البيت

الأيوبي أحياناً ، ووقفوا موقف الحياد احياناً اخرى، حيث شغلوا دور الوسيط المهادن بين المتنازعين ، وقد منح هذا الدور ملوك حماه احتراماً خاصاً ، ووهبهم مكاناً عليــاً بين الحكام الايوبيين ، ويبدو ان ملوك حماه استطاعوا ان يقيموا علاقات تهادن مع جيرانهم الحشيشية في المغرب ومع امراء القبائل البدوية في الشرق لذلك نعمت دولتهم بالاستقرار ، مما ساعد مملكتهم على الرفاه والتقدم .

وبعدما زالت السلطنة الايوبية في مصر ،ولحقتها دويلات بني ايوب في شمال بلاد الشام وجنوبها ، استمرت مملكة حماه الايوبية وبقيت حية ، ولعل مرد ذلك الى النزاع بين حلب ودمشق ثم لنشاط قبائل البدو العربية ، خاصة الفئات المنحدرة من قبيلة طيء وتحالفاتها ، وكانت هذه القبائل تفضل التعامل مع ملك مستقل في حماه من ان تتعامل مع نائب تابع للسلطنة ولعل السلطة رغبت للسبب نفسه استمرار وجود مملكة في حماة تستطيع بطاقاتها الذاتية التعامل مع قبائل البدو ، وتتمكن من كف عاديتهم بطرائقها الخاصة ، والاخذ بمثل هذا المنهج امر معروف في تاريخ بلاد الشام قبل الاسلام وبعده .

ويمكن ان يضاف الى هذا ماسبق الاشارة اليه وهو غزوات المغول الايلخانيين مع نشاط المماليك ضد ارمينية ،فقد كانت حماة قاعدة هامة من قواعد رصد المغول والتصدي لهم ، كما انها كانت محطة هامة للقوات التي كانت تذهب ضد ارمينيه .

الامــير :

ان مصدرنا الاساسي بالنسبة لحياة ابي الفداء هو ماتناثر من أخبار ، ذكرها عرضا في ثنايا القسم الاخير من كتابه في التاريخ الموسوم بالمختصر في اخبار البشر ، ففي جمادي الاولى لسنة ٦٧٢ هـ / تشرين ثاني ١١٧٣ م ولد أبو الفداء اسماعيل بن علي ابن محمود في مدينة دمشق ، ذلك ان اهله من الاسرة الايوبية لمدينة حماه جاؤوا دمشق في تلك السنة جافلين بسبب تواتر اخبار تحرك حملة مغولية كبيرة نحو بلاد الشام .

لكن يبدو ان هذه الاسرة لم تقم طويلا في دمشق ، بل عادت ادراجها الى حماه بعد زوال الخطر المغولي، وليس لدينا في المصادر المتوفرة ما يروي لنا شيئا من اخبار طفولة ابي الفداء انما يبدو ــ قياسا ــ انه تلقى منذ طفولته المبكرة ماكان يتلقاه ابناء طبقته في عصره من ثقافة عربية اسلامية عامة ، وتدريبات عسكرية وخبرة سياسية.

ويشير أبو الفداء إلى أن عمه الملك المنصور أحمد صاحب حماه توفي سنة ٦٨٣هـ — ١٢٨٤م مخلفاً ابنه المظفر محمود ، وعنـد تنصيب هذا الملك الجديد تسلم اعترافاً من السلطان المملوكي في القاهرة وأرفق هذا الاعتراف بعدد من التشاريف — الخلع — وكان أبو الفداء من جملة أمراء البيت المالك الذين لبسوا تشاريف السلطان .

لقد كان أبو الفداء كما يبدو ثاني ثلاثة ذكور ولدوا لأبيه الملك الأفضل ، وهم بالاضافة إليه : بدر الدين حسن الذي كان أكبر منه بثلاث سنين . ثم أسد الدين عمر .

وكان الملك الأفضل هذا شبه شريك لابن أخيه الملك المظفر في ملك حماه ، وقد توفي الملك الأفضل سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م ، وفي أيام حياة الملك الأفضل وبعد وفاته كان أبو الفداء أبرز أبناء أبيه ، لذلك كان ينوب عن والده ويقوم ببعض المهام عوضاً عنـه ، وعلى سبيل المثال نجده يذهب في السنة التي توفي بهـا والده الى مقابلة السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون ، ويقدم له بعض الهدايا باسم أبيه ، وبعد وفاة الملك الافضل التحق أبو الفداء بخدمة ابن عمه الملك المظفر وبدأ يحتل المكانة التي كانت لابيه في المملكة ، ذلك أنه بعد وفاة أبيه مباشرة أعطاه الملك المظفر امرة طبلخاناه واربعين فارساً .

وبعد ما أصبح مؤرخنا واحداً من كبار ضباط جيش حماه الايوبي أخذ يشارك في جميع الاعمال القتاليـة التي كان يقوم بها هذا الجيش منفرداً او مشاركاً ضمن جيوش السلطنة المملوكية . ففي سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م كان ضمن الحملة المملوكية ضـد ارمينية — سيس — وأثناء وجود هـذه الحملة في ارمينية أصيب ابن عمه الملك المظفر بمرض ولم يكن بصحبته طبيبه ، فقام أبو الفداء بمعالجته « فشفاه الله تعالى واعادة الى العافيـة » وتشير هـذه الحادثـة الى أن الطب كان من جملة المعارف التي درسها أبو الفداء وأجاد معرفتها ، وتحوي مصادرنا اشارات أخرى مشابهة فيها ان ابا الفداء كان في الطب طبيباً ، كما اجاد معارف فنون أخرى ، ذلك ان ثقافته كانت ثقافة موسوعية راقية ، وفي هذا دليل على ان الحضارة العربية زمن ابي الفداء كانت حضارة ماتزال تدب فيها الحياة ، لذا كانت ذات ابعاد كثيرة وجوانب مبدعة ، تسيطر عليها أصول العقلية العربية وتتحكم بها .

وفي سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م شارك أبو الفـداء في أعمال السلطنة المملوكيـة العسكرية واستعداداتها الحربية بغية التصدي لحملة مغولية كانت متوقعة ، وفي السنة هذه

بالذات أصيب مع ابن عمه المظفر بمرض حاد نجا هو منه بعد أن كاد ان يؤدي به ، لكن الملك المظفر كان أقل حظاً منه ، ويحدثنا أبو الفداء بخبر ما وقع قائلاً : « وفي هذه السنة، أعني ثمان وتسعين وستمائة ... توفي صاحب حماة السلطان الملك المظفر تقي الدين محمود. وكان مرضه حمى محرقة ، وكان سبب ذلك ، مع فراغ العمر انه كان غاوياً برمي البندق. واتفق له فيه صروعات حسنة ، فأراد أن يرمي النسر من طيور الواجب ، فقصد جبل علاروز ، وهو جبل مطل على قسطون ، وكان ذلك في شدة الحر ، وقتل حماراً وتركه على موضع بذلك الجبل ، وعمل في أغصان الشجر كوخاً ، وكان يجلس في الكوخ ، وأنا معه ، ومملوك له ، ومن يشاهده في رمي البندق، وكان يدخل الى الكوخ في السحر ويظل فيه الى الظهر ولا يتكلم انتظاراً لنزول النسر على جيفة الحمار ، وكنا نشم نتن تلك الجيفة ، واتفق نزول النسر في تلك الحالة ، ولم يقدر له رمية ، ثم عدنا إلى حماه فابتدأ بنا المرض ، وبلغت الموت ، وفي مدة مرضي مرض الملك المظفر وعادني وهو قد ابتدأ به المرض، ثم بعد بضع عشر يوماً توفي».

وكان لوفاة الملك المظفر المفاجئة هذه نتائج كبيرة على مستقبل مملكة حماه الايوبية بعده ، ذلك انه كان شاباً لم يبلغ الثانية والاربعين من عمره ، ويبدو انه لم يكن له ولد يستطيع وراثته ، وكانت السلطنة المملوكية تعاني من عدد من ازمات الصراع على السلطة بين عدد من الامراء . وكان هناك حاجة الى بعض الشواغر الوظيفية العالية لتملأ ببعض قادة المماليك ترضية واسكاتاً ، وكانت وفاة الملك المظفر وشغور عرش حماه فرصة اغتنمتها السلطنة ، وقد ساعد السلطنة ومكنها من النجاح هو ان افراد البيت الأيوبي لم يتفقوا على ترشيح واحد منهم كي يملأ عرش حماة .

وقامت السلطنة بتعيين نائب لها يحكم مملكة حماه، وبعد مدة ابدلته بآخر ، واستمرت تفعل هذا قرابة اثنتي عشرة سنة ، ولقد امضى ابو الفداء هذه المدة كلها في حماه ولم يترك حماه الا حينما كان يذهب في مهمة من المهام ، او حين كان يمضي لزيارات قصيرة لدمشق ، وحينما ذهب في سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م الى الاراضي المقدسة لتأدية فريضة الحج ، وانما هو جدير بالملاحظة انه عرج في طريق عودته من حجه على فلسطين فزار القدس والخليل .

صار ابو الفداء في هذه الفترة ابرز شخصيات حماة ، واخذ يسعى لاستلام مقاليد

الامور فيها ، واحياء حكم اسرته المندثر ، وقد اتصل بالسلطنة اكثر من مرة ، فوعد خيراً ، وفي سنة ٧٠٨ هـ/١٣٠٨ م اضطر السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الى ترك القاهرة والقدوم الى الكرك حيث أخذ يعد العدة لاستعادة عرشه ، وفي سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩ م جاء الناصر الى مدينة دمشق فالتحق به ابو الفداء . وسافر في ركبه مسانداً الى القاهرة ، وبعد ما استعاد الناصر عرشه ، كاد أبو الفداء أن يستعيد مملكة آبائه لولا تدخل احد المماليك الكبار واسمه أسندمر الذي طالب بنيابة حماه لنفسه ، وسبب هذا وقوع النزاع بينه وبين أبي الفـداء لذلك استقر الاخير في مدينـة دمشق ولم يذهب الى حماه .

وفي السنة التالية ٧١٠ هـ/١٣١٠ م سافر الأمير عيسى بن مهنا ، امير عرب الشام وقبائلها الى القاهرة، وهناك اجتمع بالسلطان الناصر وطلب منه تعيين ابي الفداء لحكم حماه فاستجاب السلطان .

الملك

في الثامن عشر من جمادى الاولى لسنة ٧١٠ هـ/ ١٣ تشرين اول ١٣١٠ جاء الى أبي الفداء مرسوم سلطاني بتعيينه نائباً للسلطنة ليقوم بحكم مملكة حماه ، وبعدمضي اكثر من شهر وبعد زوال بعض العقبات، دخل أبو الفداء مدينة حماه وتسلم زمام الامور فيها بلقب الملك الصالح عماد الدين ، وبعد ان استقر قليلاً في منصبه الجديد جهز نفسه وتوجه نحو القاهرة حيث قابل السلطان وقدم بعض الهدايا ، وقد لاقى في القـاهرة ترحيباً واستقبالا حسناً، واوثق أبو الفداء بتمتين علاقاته بالسلطان المملوكي فقام بزيارته مرة ثانية سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م وعاد بعد أن مكث قليلاً الى مقر حكمه وهو يحمل رتبة جديدة ولقباً جديداً أيضاً ، فقد فوض اليه السلطان حكم حماه ملكاً لانيابة ولقبه بالملك المؤيد « وحكمه في حماه يفعل فيها مايختار من اقطاع وولاية من غير مراجعة ، واذن له أن يخطب له بحماه واعمالها على ما كان عليه الملك المنصور » .

ليس في حياة ابي الفداء وحكمه لمملكة حماه ما يثير الانتباه من حوادث هامة ، حيث ان المملكة كانت امورها مستقرة ، وقد تمتع أبو الفداء بحب أهل حماه ، وكان هو حاكماً هادئاً يقسم بالعدل ويبدو انه لم يتسم بالشره وحب المال والمظهر ، فقد كان رجل ثقافة وعلم اكثر منه رجل احتراف للسياسة والحكم ، واستطاع ابو الفداء أن يقيم علاقة طيبة وطيدة مع السلطنة في القاهرة ، وكان يحظى باحترام السلطان ومحبته ، وقد زار

أبو الفداء القاهرة أكثر من مرة قابل خلالها السلطان وقدم له الهدايا ، هذا ونحن لانملك معلومات اكيدة تتعلق بدفع اية ضرائب حولية للسلطنة ، وقد قام أبو الفداء أثناءفترة حكمه بتأدية فريضة الحج مرتين ، قام بالمرة الأخيرة سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م بها برفقة السلطان ، وبعد الانتهاء من الحج عاد مع السلطان الى القاهرة وهناك قام الاخير بمنح أبي الفداء رتبة جديدة هي رتبة السلطنة . ويخبرنا المقريزي عن ذلك بقوله : «وتوجه مع السلطان للحج ، فلما عاد عظم في عين السلطان لما رآه من آدابه وفضائله وعلومه ، واركبه في يوم الخميس سابع عشر من المحرم سنة عشرين وسبعمائة بشعار السلطنة » .

وبعد ما نال أبو الفداء المرتبة الجديدة صار يخاطب في المراسلات الرسميةمخاطبة خاصة من قبل السلطان المملوكي ومن قبل نواب السلطنة في بلاد الشام ، وزار أبو الفداء مصر بعد تسلطنه ثلاثة مرات كانت آخرها سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م ، وفي السنة التالية ٧٢٨ هـ /١٣٢٨ م فقد والدته ، وبعد ذلك بأربع سنوات توفي ابو الفداء في حماه سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، وذلك بعد مرض ألم به ، وقد دفن بعد وفاته في مسجد كان شيده سنة ٧٢٧ هـ ، وهذا المسجد ما يزال قائماً في حماه ، ويعرف باسم مسجد الحيات .

المؤرخ

عرفت بلاد الشام نهضة علمية وثقافية رائعة ، وتوضحت هذه النهضة منذ القرن العاشر وتمثلت هذه النهضة في اعمال عدد من اعلام الفكر من شعراء وادباء ورجال لغة ، وفقهاء وفلاسفة ، كما تمثلت بكتابات عدد من المؤرخين . وكانت معرة النعمان من أبرز مراكز النشاط الفكري في بلاد الشام ، وفي المعرة ظهر عدد كبير من المؤرخين من أشهرهم : أبو غالب همام بن الفضل بن جعفر بن المهذب ، وابن زريق يحيى بن علي التنوخي ، وكان ابن المهذب من تلامذة ابي العلاء ، كما توفي ابن زريق في العشرستين الأولى للقرن الثاني عشر للميلاد .

وقد كتب ابن المهذب تاريخاً للاسلام وقف معظمه لأخبار بلاد الشام ، كما كتب ابن زريق تاريخاً وقف معظمه لأخبار سلاجقة بلاد الشام والحملة الصليبية الاولى .

وقد أحاط بمعرة النعمان عدد من المراكز الثقافية ، لعل من أشهرها بلدة كفر طاب ، وقد عاش في هذه البلدة وحكمها الاسرة المنقذية ، وفي اواخر القرن الحادي

عشر للميلاد ملكت هذه الاسرة حصن شيزر ، وقد ظهر بين أفراد هذه الاسرة عدد من الامراء العلماء، وقامت في شيزر حركة ثقافية رائعة تأثرت بمعرة النعمان وحلب وغيرهما، ومن اشهر امراء الاسرة المنقذية الذين كتبوا في التاريخ ، الاخوة الثلاثة ، اسامة بن مرشد ، وعلي بن مرشد ، ومنقذ بن مرشد . وقد كتب منقذ تاريخاً جعله ذيلا لتاريخ ابن المهذب ، كما كتب علي بن مرشد كتاباً في التاريخ عرف به : أما اسامة الذي كان أوسع اخوانه شهرة ، فقد كان أيضاً اكثرهم انتاجاً في ميدان التاريخ والأدب .

وبعد مادخل الصليبيون بلاد الشام لأول مره ، استولوا — فيما استولوا عليه — على معرة النعمان وهدموها ، وشردوا اهلها ، وقتلوا معظمهم ، كما استولوا على كفر طاب وجعلوها تعاني نفس مصير معرة النعمان، ودفع هذا اعداداً كبيرة من اهالي البلدتين الى الهجرة الى مدينة حماة والاستقرار فيها ، وقبيل قيام الامبراطورية الايوبية بسنوات قليلة تهدمت شيزر بفعل زلزال عنيف ، وسبب هذا ذهاب عدد من سكانها الى حماه .

وهكذا تجمع في حماه عدد من العلماء والكتاب كما تجمع بها بعض المكتبات الغنية ، وعندما قامت الدولة الايوبية في حماه ، كانت هناك بوادر للنهضة العلمية فيها ، وقد احتضن ملوك حماة هذه النهضة وساعدوا على دفعها نحو الامام .

وظهر في حماه زمن الدولة الايوبية عدد كبير من العلماء كتبوا في فنون مختلفة، كان من بينهم جملة من المؤرخين منهم ابن ابي الدم ابراهيم بن عبد الله ، ابي واصل الحموي محمد بن سالم ، ومحمد الحموي ، وكتب ابن ابي الدم تاريخاً للاسلام يعرف عادة باسم التاريخ المظفري(وقد وقفت على عدد من النسخ الخطية له ، كما وقفت على ترجمة فارسية له) وكتب ابن واصل كتاب « مفروج الكروب في اخبار بني ايوب » ، وقد شرع في طباعة هذا الكتاب منذ سنين مديدة في القاهرة ، كما كتب محمد الحموي تاريخاً عرف بالتاريخ المنصوري ، وقد نشر هذا الكتاب بالتصوير في الاتحاد السوفياتي .

لقد تأثر افراد من البيت الأيوبي الحاكم في حماه بالحركة الثقافيه في مدينتهم ، كما تجمع لديهم مكتبات كبيرة ، ولاشك ان ابا الفداء كان امراء البيت الايوبي ثقافة ومعرفة، وكانت ثقافته ثقافة موسوعية شملت فنوناً عديدة مثل الطب ، وعلم الهيئة والفقه ، والأدب ، والجغرافيا ، والتاريخ ، وقد كتب ابو الفداء وصنف في معظم الفنون نثراً وشعراً .

ولعل اهم ما اتجه ابو الفداء كان في ميدان الجغرافيا والتاريخ ، واسم كتابه في الجغرافيا : تقويم البلدان ، وقد لاقى هذا الكتاب عناية كبيرة منذ فترات مبكرة في اوربه ، وعلى الاخص في فرنسا وروسيا .

ويروى بأنه كتب في التاريخ كتاباً في تاريخ حماه،نحن لانملك عنه أية معلومات في الوقت الحاضر ، وكتاباً دعاه باسم « المختصر في اخبار البشر » وقد وصلنا هذا الكتاب وطبع اكثر من مرة وفي اكثر من مكان ، انما طبعات غير علمية صحفت نصه الى حد التشويه ، مما يجعل الحاجة ماسة لتحقيق الكتاب من جديد ونشره بشكل علمي دقيق .

ولقد اوضح ابو الفداء في مقدمة كتابه دوافعه الى تأليفه وغاياته منه ، كما اثبت اسماء اهم المصادر التي عاد اليها بالتأليف . وجاء ذلك بقوله : انه سنح لي ان اورد في كتابي هذا شيئاً من التواريخ القديمة والاسلامية ، يكون تذكرة يغنيني عن مراجعة الكتب المطولة . ثم ذكر اسماء مصادره ، ومعظم هذه المصادر قد وصلنا ، ومن اهمها كتاب الكامل في التاريخ لابن الاثير الجزري ، وقد اعتمد ابو الفداء على هذا الكتاب اعتماداً شبه كامل ، ونحا نحوه في ترتيب رواية الحوادث ترتيباً حولياً .

وقد توقف ابن الاثير في كتابه عند حوادث سنة ٦٢٨ هـ ، وكما كان ابن الاثير قد صنع عند تأليف كتابه الكامل في التاريخ ، حيث اخذ كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري فاختصر ماجاء به من اخبار ، ثم اخذ يكمل رواية احداث تاريخ الاسلام حتى ايامه ، كذلك فعل ابو الفداء ، حيث اختصر مادة ابن الاثير ، ثم اكمل رواية حوادث تاريخ الاسلام حتى سنه ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ م . وكما حدث مع ابن الاثير حين دون حوادث مابعد الطبري ، حيث اهتم بشكل رئيسي باخبار موطنه في منطقة الجزيرة والموصل ، كذلك فعل ابو الفداء حيث نجده يولي اخبار بلاد الشام وخاصة مملكة حماه عناية خاصة .

هذا وكما كان الحال بالنسبة لابن الاثير حين اكتشفت مصادره الاولى ، خاصة كتاب الطبري منها ، لم ينتقص ذلك من قيمة كتابه ولا من قيمة المادة التي اختارها من كتاب الطبري لأن لذوق الاختيار اهمية خاصة ، كما ان طريقة الاختيار ذات فائدة كبيرة في التعرف الى ابن الاثير المؤرخ وما تمتع به من حس تاريخي ونقدي ، هذا الشيء ذاته ينطبق على عمل أبي الفداء .

ويبدو لنا أبو الفداء من ثنايا كتابه ، مصنفاً عادياً ، غلبت عليه صفة الجمع والتدوين الامين ، ليس له فلسفة خاصة ، أو نظرة خاصة نحو حوادث التاريخ العام ، والتاريخ الاسلامي بشكل خاص ، كل ذلك على الرغم من انه كان رجل سياسة وحكم ، وصاحب خبرة عسكرية ، وله ثقافة واسعة ، ثم ان العصر الذي عاش فيه كان عصر فلسفة عربية التاريخ ونظرة مقومة .

ان هذا لاينفي حقيقة هامة هي ان كتاب أبي الفداء مصدر أساسي من مصادر التاريخ الاسلامي ، خاصة فيما يختص بالعصر الايوبي والمملوكي ، ويحتاج هذا الكتاب الى تحقيق علمي حديث ونشر يليق ومكانته ومكانة مؤلفه .

منهج أبي الفداء في البحث

الدكتور حسن الساعاتي

تمهيد :

في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وعلى وجه التحديد في سنة اثنتين وسبعين وستمائة (١٢٧٣ ميلادية)، ولد اسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر ، الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء صاحب حماه . ومما يستحق الذكر أن ميلاده قد حدث بعد فترة قصيرة من وفاة علم من أعلام الاسلام، وواحد من كبار المفسرين ، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، مؤلف الجامع لأحكام القرآن ، الذي توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة (١٢٧٢ ميلادية) . وعلى الرغم من أن أبا الفداء لم يكمل

الستين سنة هجرية من عمره ، فانه عاش حياة حافلة بالأحداث . فقد ولد أميرا من سلالة الأيوبيين ، في مدينة دمشق التي كانت أسرته قد انتقلت اليها . وكان عمه الملك المنصور حاكما على حماه وقتذاك . فلما شب دخل في خدمته ، واشترك معه فيما نشبه من حروب مع الصليبيين . وفي سنة عشر وسبعمائة (١٣١٠ ميلادية) ولاه الملك الناصر محمد بن قلاوون سلطنة حماة ، وجعله صاحبها يفعل بها مايشاء ، دون تعقيب من القاهرة كرسي الرئاسة ، ولقبه بالملك الصالح ، ثم بالملك المؤيد . عندما حج معه وعاد بصحبته الى القاهرة ، وبعد أن لمس منه ماذكاه لذلك . وقد قال ابو المحاسن في المنهل الصافي عن أبي الفداء إنه « كان ملكا عالما عادلا ، سخيا جوادا ، ممدحا عاقلا ، دينا خير ، ذا رأي وتدبير ، ومعرفة وسياسة ، مع الحلم والرياسة ، صاحب معروف وصدقات . ذكيا وفاضلا ، ذا همة عالية ، ونفس زكية ، محبا لأهل العلم والخير ، كثير الاكرام لهم ، يعطي العطايا الجزيلة ، ويجيز على المدائح بالجوائز السنية » .(١)

وعلى الرغم من مشاغل أبي الفداء الكثيرة ، وتدبيره شؤون مدينة حماة والمناطق المجاورة لها ، واهتمامه ببناء المآثر الكثيرة ، فانه كان شغوفا بالاطلاع والبحث والتعمق في معارف شتى . وفي ذلك يقول أبو المحاسن : « ولم يزل المذكور بحماة مكبا على الاشتغال والتصنيف ، وحضرته محط رجال أهل العلم من كل فن ، ومنزلا للشعراء والفضلاء ، على أنه هو إمام بارع مفنن ، ماهر في الفقه ، والتفسير ، والأصلين ، والنحو ، والتاريخ ، وعلم الميقات ، والفلسفة ، والمنطق ، والطب ، مع الاعتقاد الصحيح ، والعروض ، والأدب ، والنظم ، والنثر » .(٢) وقد أقام هذه المعرفة الواسعة على قاعدة وطيدة من معارف حصلها في صغره ، إذ « حفظ القرآن العزيز ، وعدة كتب ، وبرع في الفقه ، والأصول ، والعربية ، والتاريخ ، والأدب » .(٣)

وقد روي عن واسع اطلاعه وعميق معرفته الشيء الكثير . من ذلك ما ذكره الشيخ جمال الدين الاسنوي في طبقاته ، إذ قال : « اتفق قدومه الى الديار المصرية في

(١) نقلا عن تصدير «م. رينو » (M. Renaud) و « البارون ماك كوكين دیسلان » (Le Bon Mac Gockin de Slane) لكتاب تقويم البلدان الذي قاما بتصحيحه وطبعه ، بدار الطباعة السلطانية بباريس ، سنة ١٨٤٠ ميلادية ، ص ١٠-١١ .

(٢) نقلا عن المصدر نفسه ، التصدير ، ص ٩ ، ١٠ .

(٣) المصدر نفسه ، التصدير ، ص ٩ .

في بعض السنين ، واستدعاني الى مجلسه على لسان الشيخ زين الدين بن القويع ، فحضرت معه وصحبتنا الصلاح بن البرهان الطبيب المشهور . فوقع الكلام اتفاقاً في عدة علوم . فتكلم فيها كلاماً محققاً وشاركناه في ذلك ، ثم انتقل الكلام الى علم النبات والحشائش فكلما وقع ذكر نبات ذكر صفته الدال عليه ، والارض التي ينبت فيها والمنفعة التي فيه، في الاستطراد في ذلك استطراداً عجيبا. وهذا الفن الخاص هو الذي يتبجح به الطبيبان الحاضران ، وهما ابن القويع وابن البرهان ، فان اكثر الأطباء لا يدرون ذلك . فلما خرجا ، تعجبا الى الغاية ، وقال الشيخ ركن الدين ، ما أعلم أن ملكاً من ملوك المسلمين وصل الى هذا العلم » (١)

ولئن كان كثير من الملوك والسلاطين في العصور الماضية ، قد ألموا من بعض المعارف والعلوم بطرف ، فان أبا الفداء كان في ذلك مبرزاً ، فقد ضرب بسهم وافر في شتى العلوم وبخاصة الفقه ، والطب ، والحكمة ، وكان عميق المعرفة بعلم الهيئة (٢) وقد أثبت ابن الوردي في تذييله لكتاب الفداء في التاريخ جدارة أبي الفداء وغزارة علمه ، فقال « وكان سخياً محباً للعلم والعلماء ، متقناً يعرف علوماً . ولقد رأيت جماعة من ذوي الفضل يزعمون أنه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه » (٢)

ولأبي الفداء مؤلفات في علوم متنوعة ، أولها في الجغرافية ، وعنوانه كتاب تقويم البلدان ، الذي فرغ من تأليفه في سنة احدى وعشرين وسبعمائة (١٣٢١م)(٣) والثاني في التاريخ بعنوان كتاب المختصر في أخبار البشر ، الذي جمع فيه من الأخبار ما تسنى له جمعه حتى غاية سنة تسع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٩ م) ، فقام بتذييله ابتداء من سنة ثلاثين وسبعمائة (١٣٣٠م) ، ابن الوردي الى نهاية سنة تسع وأربعين وسبعمائة (١٣٥٠ م)(٤) . وثالث مؤلفاته في الفقه تحت عنوان الحاوي وهو نظم في فقه الامام محمد ابن ادريس الشافعي ، ربما كان الغرض من وضعه أن يحفظه طلاب العلم

---

(١) نقلا عن المصدر نفسه ، التصدير ص ١٠ .

(٢) انظر المصدر نفسه ، التصدير ، الصفحة نفسها .

(٣) أبو الفداء ، كتاب المختصر في أخبار البشر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ١٩٥٦ ، ج ٧ ، ص ١٢٢ .

(٤) انظر تقويم البلدان ، التصدير ، ص ٣٥ .

(٥) انظر أبو الفداء ، كتاب المختصر في أخبار البشر ، ج ٧ ، ص ١٨١ .

في سهولة ويسر . وقد أمكننا الاطلاع على هذه المؤلفات الثلاثة . ورابع مؤلفاته في الفلك ، وعنوانه الموازين ، الذي يقول عنه « رينو » و « البارون ديسلان » انه قد يكون ذلك النظم في الفلك المحفوظة نسخة منه في مكتبة «بودليان» في اكسفورد(١) أما المؤلف الخامس والاخير ، فقد كتبه في علوم وفنون متنوعة ، واختار الكناش عنواناً له ، وهو يشتمل على عدة كتب متفرقة : الأول في النحو والتصريف ، والثاني في الفقه ، والثالث في الطب ، والرابع في التاريخ ، والخامس في الاخلاق والسياسة والزهد ، والسادس في الأشياء ، والسابع في فنون مختلفة ، وقد استطعنا الاطلاع على مخطوط الكتاب الأول في النحو والتصريف ، ووجدنا ذكر الكتب السبعة الآنفة الذكر مخطوطاً على هامش الصفحة الأولى (٢) .

والحق أن شهرة أبي الفداء العلمية ، قد قامت على كتاب تقويم البلدان ، الذي عرف في أوروبا على أنه جغرافية أبي الفداء وكتاب المختصر في أخبار البشر . فقد كان لها قراء ومعجبون ، ليس في الشرق فحسب ، بل أيضاً في أوروبا ، التي ترجم بعض

(١) انظر كتاب تقويم البلدان ، التصدير ، ص ٣٠ ، حاشية ٢ .

(٢) في الصفحة الأولى من الكتاب الأول في النحو والتصريف ، كتب الناسخ علي خيري بن عمر المصري هذه الديباجة في الخامس من شعبان سنة ست وثلاثمائة وألف هجرية ، « كتاب الكناش للملك المؤيد عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن الأفضل علي الايوبي الشهير بصاحب حماة ، المتوفي سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة . ذكره العلامة الكتبي في ذيل ابن خلكان في ترجمة الملك المذكور . أما صاحب كشف الظنون فقد ذكره ، إلا أنه قال «لم أقف على مؤلفه» . ويظهر أن هذه النسخة كانت ملكاً لصاحب الكشف المذكور ، كما يرشدنا إليه الخط الواقع عليها المشابه خطه ، إذ قد عاينته في بعض مصنفاته بدار الخلافة العثمانية العلية . ولتعلم أن هذه النسخة هي نسخة المصنف ، وهي الكتاب الاول في النحو والصرف من الكتاب المشار إليه بما أنه مركب على سبعة كتب ، كما تراه في الخطبة . ولست أدري إن كان المؤلف أتم الكتاب كله ، أو مات قبل ذلك والله أعلم » . وقد أخطأ « رينو » « والبارون ديسلان » حينما كتبا أن أبا الفداء ألف مجموعة من عدة أجزاء في الطب بعنوان الكناش . انظر كتاب تقويم البلدان ، التصدير ، ص ٣٠ . ومخطوط الكتاب الاول في النحو والتصريف ، وكذلك مخطوط نظم الحاوي في فقه الشافعية موجودان بدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة .

باحثيها أجزاء منها ، وذلك لما تميزا بـه من الدقة والاحاطة والوضوح . ويعد كتاب تقويم البلدان من أقدم الكتب العربية التي عرفتها أوروبا واهتمت بها ، وذلك لأن أبا الفداء اتبـع فيه طريقة مبتكرة في عرض البيانات عن البـلدان ، في شكل جداول لم يستخدمها جغرافي غيره من قبل . وقـد قسم القسم الأكبر من كتابه ، وهو الخاص بالأقاليم ، إلى ثمانية وعشرين قسماً ، كل منها خاص باقليم منهـا . ويظهر أبو الفداء اهتماماً خاصاً بالشام والبلدان المجاورة لها . أما القسم الأصغر من الكتاب فيحتوي عـلى عرض عام للأرض بعامة ، والأقاليم السبعة ، والمعمور من الأرض ، كما يتضمن أيضـاً المنهج الذي وضعه لكتابه . أما كتاب المختصر في أخبار البشر فتكمن أهميته الخـاصة فيما حواه من أخبار عن الأيوبيين والمماليك ، وعمـا تعرض له العالم العربي من أخطار الصليبيين والتتار ، وعن زوال حكم الأيوبيين نهائياً من بلاد الشام ، وعن العلاقات بين مصر والبلاد الاسلامية الأخرى . ويقول « رينو » و « البارون ديسلان » عن هذا الكتاب إنه أهم الكتب التي تناولت تاريخ العرب الضخم ، التي نشرت في أوروبا ، وقد ترجم إلى اللاتينية مقسماً إلى قسمين ، وانه قد حوى أخباراً مـا كان يتسنى معرفتها بدونه (١) .

وقد اهتدى بصدق حدسه إلى انه لن يعمر طويلا ، فكان يقول ، « مـا أظن أني أستكمل الستين سنة من العمر ، فما في أهلي من استكملها » (٢) . وتوفي في أوائل الستين من عمره ، في الثالث والعشرين من المحرم سنة اثنين وثلاثين وسبعمائة بحماة . ومما يستحق الذكر أن المؤرخ وعالم الاجتماع العربي ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، قد ولد في غرة رمضان من السنة نفسها . فكما عوضت الأمة الاسلامية عن وفاة القرطبي ،أحد كبار الفقهاء والمفسرين ، بمولد أبي الفداء ، فكذلك عوضت عن وفاة هذا الملك العلامة ، الذي جمع بين علوم الدنيا والدين ، بميلاد ابن خلدون .

القواعد العامة لمنهج أبي الفداء :

نود ، بادىء ذي بدء ، أن نؤكد اننا نقصد بالمنهج في بحثنا هذا ، المسلك الذي سلكه أبو الفداء في البحث ، عند تأليف كتبه التي ذكرناها آنفاً ، والتي أمكننا الاطلاع

(١) انظر كتاب تقويم البلدان ، التصدير ، ص ٢٩
(٢) المصدر نفسه ، التصدير ، ص ١٠ .

عليها . ولا نعني بالمنهج ما أصبح مصطلحاً عليه منذ القرن السابع عشر ، من أن المنهج هو « الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة ، تهيمن على سير العقل وتحدد عملياتــه ، حتى يصل إلى نتيجة معلومة »(١) . ومعنى ذلك اننا نقصد من استعمالنا اصطلاح المنهج ، ما يفهم منه بالمعنى العام ، وهو كل طريقة تؤدي إلى غرض معلوم يراد تحصيله (٢) . ذلك لأن أغراض أبي الفداء من تأليف ما كتب كانت معلومة ، سواء في ميدان الجغرافية أو ميدان التاريخ، أو الميادين الأخرى التي طرقها . فلقد كان هدفه في ميدان الجغرافية ، وضع تقويم البلدان في أقاليم شتى ، يمتــاز بدقته ووضوحه من ناحيه ، وبخلوه من النقائص التي شابت مــا ألفه الجغرافيون قبله في الموضوع نفسه من ناحية أخرى . وكان هدفه في ميدان التاريخ ، جمع مــادة تاريخية وفيرة ذات دلالة ، وعرضها في إيجاز ووضوح . وكان غرضه من الكناش ، عرض مذكرات يجمل فيها أهم مــا كان معروفاً عن الموضوعات المختلفة التي تناولها ، دون الدخول في التفاصيل. وكان هدفه من وضع نظم الحاوي ونظم الموازين، تقديم المادة الأساسية في كل من الموضوعين ، في صورة ميسرة لطلاب العــلم ، تسهل عليهم الحفظ من ناحية ، وسرعة تذكرها من ناحية أخرى .

اما القواعد العامة لمنهج ابي الفداء ، فنقصد بها المبادىء التي جعلها اساساً لجمع مادته العلمية من ناحية ، ثم عرضها للقراء من ناحية اخرى . هذه المبادىء هي الوفرة في جمع البيانات ، والدقة في تفسيرها وتفنيدها ، والايجاز في عرضها والوضوح في تناولها . وقد امكننا بلورة هذه القواعد العامة لمنهج ابي الفداء ، بعد قراءة متفحصة لما تيسر لنا الحصول عليه من انتاجه . وسنحاول في بحثنا هذا شرح وجهـــة نظرنا وبيان افكارنا بخصوص هذه القواعد .

القاعدة الاولى :

الوفرة في جمع البيانات : تظهر الوفرة في البيانات الـــتي جمعها ابو الفداء ، في كثرة المصادر التي استقى منها مادة كل بحث من بحوثه . فقد رجع في تأليف كتاب معجم

(١) عبدالرحمن بدوي ، مناهج البحث العلمي ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص٥

(٢) انظر المصدر نفسه . ص٦

البلدان الى كتاب صورة الارض لأبي القاسم محمد بن حوقل ،(١) وكتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، لأبي عبد الله محمد بن محمد الادريسي ، (٢) وكتاب المسالك والممالك لابي القاسم عبد الله بن احمد بن خرداذبة .(٣) وهذه الكتب الثلاثة هي بعض الكتب التي قرأها أبو الفداء ، والمؤلفة في البلاد ونواحي الارض من الجبال والبحار وغيرها . وقد اطلع ابو الفداء على زيجات وكتب مؤلفة في الاطوال والعروض التي تقع عليها المدن ، (٤) كما قرأ كتبا في تصحيح الاسماء وضبطها ، مثل كتاب الانساب للسمعاني ، وكتاب المشترك وضعا والمختلف صقعا لياقوت الحموي ، (٥) وكتاب مزيل الارتياب عن مشتبه الانتساب ، وكتاب الفيصل ، وكلاهما لابي المجد اسماعيل بن هبة الله الموصلي.(٦) ويذكر ابو الفداء كذلك انه اطلع على كتاب القانون المسعودي لأبي الريحان محمد بن احمد البيروني ، (٧) وكتاب المسالك والممالك المعروف بالعزيزي ، الحسن بن احمد المهلبي ،(٨) وكتاب رسم الربع المعمور ، المنسوب الى بطليموس ، (٩) وكتاب تحرير المناظر لإقليدس ، لنصير الدين الطوسي ، (١٠) وقد ذكر له ابو الفداء مؤلفا آخر عنوانه

(١) انظر كتاب تقويم البلدان ، ص١ . ولم يذكر أبو الفداء عنوان كتاب ابن حوقل . ومما يستحق الذكر ان بعض مخطوطات كتابه هذا تحمل عنوان كتاب المسالك والممالك ، انظر الدليل الببليوجرافي القيم الثقافية العربية : مراجع للدراسات العربية ، مطبوعات مركز تبادل القيم الثقافية ، الشعبة القومية للتربية والعلوم والثقافة « يونسكو» ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ٥٣٤ .

(٢) انظر كتاب تقويم البلدان ، ص١ . وقد أشار أبو الفداء إلى هذا الكتاب على انه في الممالك والمسالك .

(٣) انظر المكان نفسه ، ولم يذكر أبو الفداء عنوان كتاب ابن خرداذبة .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص٩

(٥) و (٦) انظر المصدر نفسه ، ص٢

(٧) انظر المصدر نفسه ، ص ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٦ .

(٨) و (٩) انظر المصدر نفسه . ص٢٢

(١٠) انظر المصدر نفسه ، ص٥ . والذي يجعلنا نرجح الاشارة الى هذا المصدر أن أبا الفداء أشار الى النصير الطوسي عندما كان يتحدث عن قرب الشمس من الارض وعظم جرمها وشدة شعاعها وأثرها ، وأنه ضعف هذا التعليل

التذكرة . (١) والشيء الذي يدعو الى الدهشة والتساؤل هو ان ابا الفداء لم يذكر كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي الذي فرغ الى أليفه سنة ٦٢١ هجرية ، (٢) اي قبل فراغ ابي الفداء من تأليف معجمه بمائة عام بالضبط ، اذ كان ذلك في سنة ٧٢١ هجرية . وربما يعزى ذلك الى انه لم يعلم به او لم يستطع الحصول عليه ، على الرغم من أنه قد اثبت قراءته لمؤلفه الآخر ، الذي ورد ذكره آنفاً .

وفيما يتعلق بمؤلفه الثاني كتاب المختصر في أخبار البشر ، يورد ابو الفداء أهم المصادر التي رجع اليها في مقدمة كتابه بوضوح وتسلسل فيقول: « فاخترته واختصرته من الكامل ، تأليف الشيخ عز الدين علي المعروف بابن الأثير الجزري . . ومن تجاريب الأمم ، لأبي أحمد بن مسكويه ، ومن تاريخ أبي عيسى أحمد بن علي المنجم المسمى بكتاب البيان عن تاريخ سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان . . ومن التاريخ المظفري للقاضي شهاب الدين بن أبي الدم الحموي . . ومن تاريخ القاضي شمس الدين ابن خلكان المسمى بوفيات الأعيان . . ومن تاريخ اليمن للفقيه عمارة . . ومن تاريخ القيروان المسمى بالجمع والبيان للصنهاجي ، ومن تاريخ الدول المنقطعة لابن أبي منصور . ومن تاريخ علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي الاندلسي والمسمى لذة الأحلام في تاريخ امم الاعجام ، ومن كتاب ابن سعيد المذكور ، المسمى بالمغرب في أخبار اهل المغرب . . ومن مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، للقاضي جمال الدين بن واصل . . ومن تاريخ حمزة الأصفهاني ، ومن تاريخ خلاط تأليف شرف بن أبي المطهر الانصاري ، ومن سفر قضاة اسرائيل وسفر ملوكهم من أصل الكتب الاربعة والعشرين الثابتة عند اليهود بالتواتر » (٣) .

وتدل كثرة المصادر التي رجع اليها أبو الفداء في كتابيه : تقويم البلدان ، والمختصر في أخبار البشر ، على وفرة البيانات الجغرافية والتاريخية التي اختار منها مادته . وهي وفرة توقع المؤلف ، وبخاصة إذا كان من أمثال أبي الفداء ، في حيرة

---

(١) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٥

(٢) انظر الدليل البيليوجرافي للقيم الثقافية العربية : مراجع للدراسات العربية ، ص ٥٣٨ .

(٣) كتاب المختصر في أخبار البشر ، ص ١٠ ، ١١

شديدة ، وتجعله يعاني معاناة كبيرة، لاختصار هذه البيانات كلها من ناحية ، ولاختيار المناسب والضروري منها بعد تفنيده من ناحية أخرى ، إذا كان يكتنفه الغموض ، أو يسوده شيء من التناقض وهـذه مهمة يسيرة على الباحث المدقق والدارس المحقق . لكن ابا الفداء قد قام بالمهمة خير قيام ، فأحسن الايجاز ، واجاد الانتقاء .

القاعدة الثانيـة :

الدقة في تفسير البيانات وتفنيدها : لقد امتاز انتاج أبي الفداء بالدقة الفائقة ، وذلك راجع للأمانة العلميـة التي كان يتحلى بها ، ولمنطقة السليم في تفهم الامور ، من ذلك مثلا قوله عن طريقـة تأليف كتاب تقويم البلدان :« وحذونا حذو ابن جزلة في كتاب تقويم الابدان في الطب وسمينا كتابنا هـذا تقويم البلدان » (١) . ومغزى ذلك انه يريد تصحيح ماكُتِبَ عن مواقع البلدان من خطوط الطول والعرض،وكذلك تصويب نطق اسمائها ، وذكر مواصفات عنها لم تتوافر في كتب من سبقوه . ويشير الى ذلك بقوله : « فاني لما طالعت الكتب المؤلفة في البلاد ونواحي الأرض من الجبال والبحار وغيرها ، لم أجد فيها كتابا موفيا بغرضي . فمن الكتب التي وقفت عليها في هذا الفن، كتاب ابن حوقل، وهوكتاب مطول ذكر فيه صفات البلاد مستوفياء غير أنه لم يضبط الاسماء ، وكذلك لم يذكر الاطوال ولا العروض ، فصار غالب ماذكره مجهول الاسم والبقعة . ومع جهل ذلك لاتحصل فائدة تامة . . . وأما الزيجات والكتب المؤلفة في الأطوال والعروض ، فانها عرية عن تحقيق الأسامي وعن ذكر صفات المدن، وأما الكتب المؤلفة في تصحيح الأسماء وضبطها ، . . . فانها اشتملت على ضبط الأسماء وتحقيقها من غير التعرض إلى الاطوال والعروض . ومع الجهل بالأطوال والعروض يجهل سمت ذلك البلد ، فلا يعرف الشرقي منها الغربي ولا الجنوبي ولا الشمالي . ولما وقفنا على ذلك وتأملناه ، جمعنا في هذا المختصر ماتفرق في الكتب المذكورة ، من غير أن ندعي الاحاطة بجميع البلاد أو بغالبها،فان ذلك أمر لامطمع في الاحاطة به». (٢)

وينقد أبو الفداء غالب واضعي الكتب المؤلفة في الاطوال والعروض من الزيجات

———————

(١) كتاب تقويم البلدان ، ص٣

(٢) المصدر نفسه ، ص١ ، ٢

وغيرها ، لأنهم « لايحافظون فيها على إثبات الأماكن في مواضعها من الأقاليم ، بل يثبتون بعض أماكن الاقليم في الاقليم الاخر . ومن تأمل ذلك وكشفه ، تحقق صحة ماذكرناه » .(١) وينبه القارىء إلى انه قد راعى ذلك، وأثبت كل مكان في إقليمه.(٢). وعندما يورد أسماء أعجمية كثيرة ، غربي بلاد قسطنطينية ، يقول ، « وجميع هذه الاسماء الأعجمية قد حققناها بالضبط في اخرجداول هذا الكتاب » .(٣) وفي الحديث عن بحر ورنك ، يذكر أنه لم يجد له ذكرا الا في مصنفات أبي الريحان البيروني ، وفي التذكرة للنصير ، فأثبته وفق ماذكره البيروني (٤) . وعندما تناول أنهار بلاد الترك، قرر أنها أنهار عظيمة ، وأنها معروفة للتجار المسافرين فيها ، ولكن غالب المؤلفين قد أهملها ، أما هو فقد أثبتها حسبما تلقاها ممن شاهدها على قدر الطاقة .(٥) ويدل ذلك على أن أبا الفداء كان لايكتفي بما يطلع عليه في شتى المؤلفات في الميدان الذي يكتب فيه ، بل كان ايضاً يرجع إلى اهل الخبرة يستقي منهم البيانات ويستوثق منهم عما يكون قد جمعه منها . (٦)

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٠

(٢) انظر المكان نفسه

(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٠ .

(٤) انظر المصدر نفسه ، ص ٣٥

(٥) انظر المصدر نفسه ، ص ٦٣

(٦) ومثال ذلك ما يذكره أبو الفداء عن باب المندب ، إذ يقول : « وحكى لي بعض المسافرين أن باب المندب دون عدن ، وهو عنها في جهة الشمال بميلة الى الغرب على نحو مجرى وجبال المندب في بر السودان ، وترى جبال المندب من جبال عدن على بعد ، وهو غاية ضيق البحر هناك » . المصدر نفسه ، ص ٢٤ . وكذلك يذكر عن نهر الإتل العظيم ، الذي يقال إنه اكبر أنهار البلاد التي تحيط ببحر الخزر ، « وقد حكى لي بعض التجار الذين ركبوا هذا البحر أنهم لما انتهوا في الشمال إلى آخره تغير عليهم الماء المالح الصافي بماء متغير اللون ، فقيل لهم هذا ماء الإتل حيث اختلط بالبحر » . المصدر نفسه ، ص ٣٦ . وكذلك يقول أبو الفداء في موضع آخر عند الحديث عن يبرين بالقرب من الحسا والقطيف واليمامة ، « وقد أخبرني من أثق به من أهل تلك البلاد.. »=

ومن الأمثلة على منتهى دقته في تفنيد البيانات والحكم عليها ، تحقيقه لجبل القمر في أواسط أفريقية ، إذ يقول : « جبل القمر المذكور قد اختلف في ضبطه ، فبعضهم يجعله مضافاً الى القمر الذي في السماء ويفتح القاف والميم . وقد رأيته في كتاب ياقوت الذي سماه المشترك وضعاً المختلف صقعاً ، مضبوطاً بضم القاف وسكون الميم . وذكره ابن مطرف في الترتيب ولم يضبطه ، بل قال هو مشتق من قمر الطرف، وهو جبل في الخراب الجنوبي ، وعرضه إحدى عشرة درجة جنوبي من خط الاستواء ومنه منابيع نيل مصر من عشر مسيلات تنحدر منه ، ولم يثبت وصول أحد اليه ، بل شاهدوه من بعد . قال النصير الطوسي في التذكرة انهم شاهدوه من بعد وهو أبيض من الثلج الذي عليه . وهو عندي مستبعد ، فان عرض احدى عشرة درجة في غاية الحرارة ، ويعتبر من عرض احدى عشرة الشمالي ، وهو عرض عدن من اليمن ، فان وقوع الثلج في مثل عرض عدن لم يسمع به في زمن من الأزمان . والجانب الجنوبي مثل الشمالي بل أشد حرارة لحضيض الشمس »«١» . ولئن دل ذلك على شيء فانما يدل على أن أبا الفداء كان ينقل من المصادر التي يرجع اليها بعقل ناقد متفحص ، مليء بالمعرفة في شتى العلوم ، وعلى الخصوص علم الهيئة الذي برع فيه .

وفي شرح أبي الفداء لترتيب كتاب تقويم البلدان ، تظهر دقته في تفسير أمور تبدو مختلفة أو جديدة بالمقارنة بما هو وارد في كتب التقاويم السابقة على كتابه . أما الأمر الأول فهو تصنيفه الاقاليم صنفين : أقاليم حقيقية ، وأقاليم عرفية . ويقصد بالاقليم الحقيقي أحد الأقاليم السبعة التي سبق له توضيحها «٢» ويعني بالاقليم العرفي « كل ناحية أو مملكة تشتمل على عدة كثيرة من الأماكن والبلاد ، مثل الشام والعراق وغيرها . وقد يكون الاقليم العرفي بعضاً من الاقليم الحقيقي ، وقد يكون بعضاً من

=المصدر نفسه ،ص٨٥.ويقول أبو الفداء بخصوص بعض البيانات عما يذكر من التفاوت في عمران الأرض « ولكن امثاله من المعارف موكول الى الخبر من جانب الثقة » . المصدر نفسه ، ص١١ .

(١) المصدر نفسه ، ص٦٤ ، ٦٥

(٢) يقول ابو الفداء فيما يتعلق بالاقاليم السبعة ، « اعلم ان معظم العمارة يقع بين ما يجاوز عشر درجات في العرض الى حدود الخمسين . فقسمها أهل الصناعة بالاقاليم السبعة ليكون كل اقليم تحت مدار تتشابه احوال البقاع التي فيه » ، المصدر نفسه ، ص٧

إقليمين مثل الشام ، فان بعضه من الاقليم الثالث وبعضه من الربع . وقد يشتمل الاقليم العرفي على أبعاض الأقاليم السبعة ، كما يحكى عن الصين «١» . وأما الامر الثاني فهو استخراجه لعروض بعض الأماكن وأطوالها ، وهي الاماكن التي لم يقع له أطوالها وعروضها فكان يقرب فيها ويستخرج أطوالها وعروضها على أساس بعدها في الغرب أو الشرق أو الشمال أو الجنوب عن أماكن معروفة العرض والطول «٢» وأما الأمر الثالث فهو بيان عذره لما يبدو في كتابه من اختلاف في الاطوال والعروض. ويقول في ذلك «وربما تجد في كتابنا هذا طول بلد بعينه مختلفاً وكذلك عرضه ، والعذر فيه اننى نقلت الاطوال والعروض من القانون للبيروني ، ومن كتاب الاطوال والعروض للفرس ، ومن كتاب ابن سعيد المغربي ومن كتاب رسم الربع المعمور ، وهذه هي الكتب المعتمد عليها في هـذا الفن ، وقلما تتفق هذه الكتب على عرض مكان بعينه او طوله ، بل لا بد من الاختلاف فيها . وقد نقلنا نحن من مجموع هذه الكتب وهي غير متفقة ، فحصل في كتابنا اختلاف في الاطوال والعروض » (٣) .

وكذلك تظهر دقة ابي الفداء في تفسير البيانات وتفنيدها في كتاب المختصر في اخبار البشر في مواضع شتى . فقد ضمن المقدمة ثلاثة امور تدل على توخيه الدقة ، التي هي عماد كتب الاخبار والتاريخ . فيذكر في الامر الاول « انه ينبغي لمتأمل التواريخ القديمة ، ان يعلم ان الاختلاف فيما بين المؤرخين كثير جدا » (٤) ويضرب مثالا لذلك الاختلاف الكبير بخصوص تاريخ ولادة المسيح . وكذلك فيما يتعلق بما بـين الهجرة والطوفان من سنين . ويقول ان السبب في ذلـك أن الحوادث الغابرة لا تعلم الا من التوراة ، والتوراة ، كما يبين أبو الفداء في الامر الثاني ، مختلفة على ثلاث نسخ . (٥) ويشرح أسباب هذا الاختلاف تحت ما اسماه الامر الثالث . الذي يشير فيـه الى جدول

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٧٢

(٢) انظر المصدر نفسه ، ص٧٣

(٣) المصدر نفسه ، ص ٧٤

(٤) المصدر نفسه ، ص٩ ، ١٠

(٥) كتاب المختصر في اخبار البشر ، ج١ ، ص١١

(٦) انظر المكان نفسه .

اقترحه يتضمن ما بين التواريخ المشهورة من المدد ، ويقول : « ومتى اردت معرفـــة ما بين اي تاريخين منها فادخل في الجدول الى البيت الذي يلتقيان فيه ، ومهاكان فيه من العدد فهو ما بينهما بعد الاجتهاد البالغ في تحقيقه وتحريره » (١) .

وتتجلى دقة ابي الفداء في ذكر حكام بني اسرائيل وملوكهم ، الذي كثر الغلط فيه لبعد عهده ، ولكونه باللغة العبرانية ، السبب الذي يجعل النطق بالفاظه على وجه صحيح امرا عسيرا . ويقول في ذلك : « ولم اجد في نسخ التواريخ الـتي وقعت لي في هذا الفن ما اعتمد على صحته ، لان كل نسخة وقفت عليها في هذا الفن وجدتها تخالف الاخرى إما في اسماء الحكام وإما في مدد استيلائهم . وللبهود الكتب الاربعة والعشــرون ، وهي عندهم متواترة قديمة ، ولم تعرب الى الآن بل هي باللغــة العبرانية فأحضرت منهـا سفري قضاة بني اسرائيل وملوكها . واحضرت انسانا عارفا باللغة العبرانيـة والعربية وتركته يقرأها ، واحضرت بهـا ثلاث نسخ ، وكتبت منها ما ظهـر عندي صحته ، وضبطت الاسماء بالحروف والحركات حسب الطاقة » . (٢)

ويبلـغ ابو الفداء شأوا بعيداً في الدقة والتنقيب والضبط ، عندما يقرر انالنقص بين المدة التي حسبها هو نفسه بين وفاة موسى وابتداء ملك بختنصر والمدة التي حسبها غيره من المؤرخين ،وهو نقص يزيد على ست وعشرين ،إنما حصل من إسقاط اليهودكسورات المدد المذكورة ، ثم يقرر انه « من المستبعد ان يملك الشخص عشرين سنة او تسع عشرة سنة مثلاً ، بل لابد من اشهر او ايام ، مـع ذلك فلما ذكروا لكل شخص مدة صحيحة سالمة من الكسر نقصت جملة السنين القدر المذكور أعني ستاً وعشرين سنةوكسورا» «٣» وهكذا تظهر دقته في ضبط التواريـخ والمدد التي تفصل بين الاحداث بعضها وبعض .

ودقة ابي الفداء في تقصي البيانات الصحيحة والاخبار الصادقة ، قد جعلته يترك الخوض في موضوعات تضطرب البيانات الخاصة بها . من ذلك على سبيل المثال ،ماروي عن ملوك بني عاد ، وكثرة الاختلاف في ذكرهم ، الامر الذي جعل ابا الفـــداء يضرب

(١) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٣

(٢) المصدر نفسه ج١ ، ص٣٢ ، ٣٣

(٣) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٤٣

عنه ، لان جميع ماذكر عنهم مضطرب غير قريب للصحة . «١» ولقد كان ذلك يتفق أيضاً مع القاعدة الثالثة التي جعلها اساساً لمنهجه في البحث ، وهي الاختصار في العرض والإيجاز في السرد ، كما سنبين فيما بعد .

القاعدة الثالثة :

الاختصار في العرض : لقد كان شغل أبي الفداء الشاغل في تأليف مـا ألف من كتب ، التزام الاختصار في عرض البيانات التي أمكنه الحصول عليها . والأمر اللافت لنظر قارىء كتبه ، هو إيجازه الشديد في خطبة كل كتاب ، ودخوله مباشرة إلى لب الموضوع . كما أنه يذكر صراحة وفي وضوح لالبس فيه ، انه انما يكتب مختصرات ، تكون بمثابة مذكرات يكون فيها الغناء عن مطالعة الكتب الكبيرة في كل موضوع من الموضوعات التي عالجها . ولذلك جعل عنوان كتابه في التاريخ : كتاب المختصر في اخبار البشر . وقال في خطبة كتابه هذا، « انه سنح لي أن أورد في كتابي هذا شيئاً من التواريخ القديمة والاسلامية يكون تذكرة يغنيني عـن مراجعة الكتب المطولة ، فاخترته واختصرته من ...»(٢) . ومما تجدر ملاحظته أيضاً اختياره كلمة « أخبار» في العنوان بدلاً من كلمة « تاريخ » . فالأخبار تدل على الايجاز في الرواية ، بعكس التاريخ الذي يدل على الاضافة والتوسع .

وفي كتاب تقويم البلدان ، يقول أبو الفداء،بعد أن ذكر أهم الكتب فيجغرافية البلدان وأشار إلى مواطن القصور فيها : « ولما وقفنا على ذلك وتأملناه ، جمعنا في هذا المختصر ما تفرق في الكتب المذكورة من غير أن ندعي الاحاطة ، بجميع البلاد أو بغالبها ، فان ذلك أملا لا مطمع في الاحاطة به »(٣) . ولما كان أبو الفداء قد اتخذ من الاختصار في عرض البيانات قاعدة له في البحث ، فانه قد التزم بها حتى صار يخشى إيراد أية بيانات يرى انها غير مناسبة ، أو غير ضرورية ، أو غير مفيدة ، كما انه كان عزوفاً عن تكرار البيانات التي يوردها . ويظهر ذلك في كتاب تقويم البلدان في مواضع كثيرة ، منها على سبيل المثال قوله عند الحديث عن المعمورة من الأرض

(١) انظر المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٢٢
(٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٠
(٣) كتاب تقويم ، ص٢ .

والمغمور منها تحت الماء ، وانه لو استحال عنصر إلى عنصر آخر كان بقدره ، « ولا يليق بهذا الكتاب بسط القول في العناصر أكثر من هذا القدر ، فان ذلك أليق بالكتب الحكيمة ، وفيما أوردنا الكفاية فيما نحن بصدده »(١) وعندما يذكر ديار مصر،ويتناول الحديث عن نهر النيل ، يمسك عن الاسترسال قائلاً ، « وقد تقدم ذكره مع ذكر الأنهار في صدر الكتاب فأغنى عن الاعادة »(٢) .

وكذلك في كتاب المختصر في اخبار البشر ، التزم ابو الفداء قاعدة الاختصار في العرض ، وكثيراً ما كان يمسك عن الاسترسال في سرد الاخبار للاسباب التي اوردناها آنفاً . وهناك امثلة كثيرة على ذلك ، منها قوله في نهاية المقدمة : « وأما تاريخ فيلبس فهو مشهور ، وقد ارخ به بطليموس في المجسطي غالب ارصاده ، ولكننا تركناه للاختصار لقربه من تاريخ الاسكندرية لانه متقدم على تاريخ الاسكندر باثنتي عشرة سنة ... وأما أزدشير بن بابك فبين ملكه وبين الاسكندر خمسمائة واثنتا عشرة سنة تقريبا وبينه وبين الهجرة اربعمائة واثنتان وعشرون سنة ، تركناه للاختصار ايضاً .(٣) ومنها ايضا ما ورد في حديثه عن نسخ التوراة التي اصحها واثبتها النسخة المنقولة لبطليموس اذ ينهي الحديث بقوله « وقد تقدمت الاشارة الى هذه النسخة والى النسخة التي بيد اليهود الآن والى نسخة السمرة في مقدمة هذا الكتاب ، فأغنى عن الاعادة » (٤). وعند الحديث عن البطالسة الذين حكموا بعد الاسكندر ، يوجز قائلا : ولكن نذكر منهم ها هنا ما تدعو الحاجة الى ذكره » . (٥) وقد ذكر صراحة خشية من التطويل التي دفعته الى الايجاز حتى عند ايراد اخبار خاصة به ، فقال عن كتاب تقليده بمملكة حماة والمعرة وبارين « ولولا خوف التطويل لاوردنا التقليد عن آخره . لكننا نذكر منه فصولا يحصل بها الغرض طلبا للاختصار » . (٦)

ولقد كان ابو الفداء يمحص الروايات التي يجمعها ، ويغفل منها ما يراه غير مستقيم

(١) المصدر نفسه ، ص١٩ .
(٢) المصدر نفسه ، ص١٠٣ .
(٣) كتاب المختصر في اخبار البشر ، جـ١ ، ص١٥ .
(٤) ، (٧) المصدر نفسه ، جـ١ ، ص٤٧ .
(٥) المصدر نفسه ، جـ٧ ، ص٨١ .

مع المنطق . ومثال ذلك موقفه مما قيل عن الطبقة الأولى من ملوك الفرس ، وهي الطبقة القديمة التي تسمى « الفيشداذية » ، إذ ينهي الحديث عنهم في اقتضاب شديد قائلا: « وقد نقل عن مدد ملكهم وحروبهم أمور يأباها العقل ويمجها السمع ، فأضربنا عنها لذلك ، وذكرنا مايقرب الى الذهن صحته » . (١) ويشبه ذلك أيضا موقفه من الروايات عديمة الفائدة في الموضوع الذي يكتب فيه . ومثال ذلك ماذكره عند الحديث عن « زرادشت » صاحب تعاليم الفرس الدينية الاولى ، اذ قال موجزاً ، « وزرادشت من أهل قرية من قرى أذربيجان . ولهم في خلق زرادشت وولادته كلام طويل لافائدة فيه فأضربنا عنه » . (٢)

وحرص أبي الفداء على التزام الإيجاز في عرض الأخبار جعله يميز بين ما يليق إثباته في كتابه فيثبته وما لا يليق فيتركه ،لأنه ورد مفصلاً في كتب أخرى متخصصة. ومثال ذلك ما ذكره عند الحديث عن البراهمة أصحاب الفكرة ، إذ قال : « والبراهمة لا يقولون بالنبوات وينفونها بالكلية ، ولهم على ذلك شبه مذكورة في الملل والنحل لاتليق بهذا المختصر » «٣» وقد ورد ذلك في نهاية رواية عن أفكارهم وأسلوبهم في التفكير لم تتعد ستة أسطر . وكذلك فعل عند الحديث عن مملكة بنارس ، آخر ممالك الهند ، وملوكها ، إذ قال في اقتضاب شديد : « ولها ملوك وقد أكثر المصنفون فيها الكلام مما لا يليق بهذا المختصر » «٤» .

وان الباحث ليتساءل عن دوافع التزام أبي الفداء الايجاز في بحوثه ، فقد يكون ذلك راجعاً لسجية تمتاز بها شخصيته ، وهي الاقتصاد في الحديث وذكر ما قل ودل . وربما يكون لهدف يريد أن يحققه وهو التخفيف على القارىء بكتابة مذكرات في الموضوعات التي جعلها محاور لبحوثه . وقد صرح هو نفسه بذلك ، كما سبق أن أشرنا ، في خطبة كتاب المختصر في أخبار البشر ، كما أنه يتضح في كتب الكناش السبعة ، وكذلك في نظميه الحاوي والموازين ليسهل على طلاب العلم الفهم والحفظ ثم التذكر . وقد يكون ذلك من

(١) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٥٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٠٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١١٨ .
(٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١١٩ .

شيمة العلماء من الملوك الذين يجمعون بين مشاغل البحث والتأليف ومشاغل الملك وتصريف امور الرعية . وربما يفسر ذلك بأن أبا الفداء كان يؤلف تأليف المعلم لتلاميذه ، فهو لذلك يلتزم الايجاز ، ولكنه أيضاً يجتهد في أن تكون المادة التي يعرضها في كتبه واضحة في تناولها سهلة في عرضها ، كما سنبين في القاعدة الرابعة من قواعد البحث التي اعتمد عليها في تأليفه .

القاعدة الرابعة :

الوضوح في تناول البيانات وعرضها : تمتاز كتابة أبي الفداء بوضوح ارادي ، ونقصد بذلك التزامه بتوضيح ما يكون غامضاً منعاً للبس وسوء الفهم ، وكذلك اجتهاده في تيسير الصعب الذي يحتاج من القارىء الى عملية إعمال فكر شاقة ، قد لا توصله بالضرورة الى الرؤية الكاملة التي يصورها المؤلف . فأما في منع اللبس وسوء الفهم ، فان أبا الفداء كان صريحاً واضحاً في تحقيقاته ، كما فعل ، على سبيل المثال ، عندما كان يتحدث عن بطون كنانة ، إذ قال : « ومن بطون كنانة الأحابيش وكان الحليس بن عمر ريس الأحابيش نوبة أحد . ومن لم يقف على ذلك اذا سمع ذكر الاحابيش في نوبة احد ظن انهم من الحبشة ، وليس كذلك ، بل هم عرب من بني كنانة . كذا ذكره في العقد ، وهؤلاء إخوة النضر بن كنانة وولدهم »(١) . وكذلك فعل أبو الفداء بخصوص نسخ التوراة الثلاث ، وهي السامرية والعبرانية واليونانية ، ليبين ما بينها من اختلافات كبيرة في التواريخ ، ويقرر الركون الى النسخة اليونانية المعتمدة من المحققين من المؤرخين ، إذ أنها ، على النقيض من النسختين الاخريين ، ليس بها ما يقتضي الانكار من جهة الماضي من عمر الزمان . وهي توراة نقلها اثنان وسبعون حبراً ، قبل ولادة المسيح بقريب ثلاثمائة سنة ، لبطليموس اليوناني ... لذلك اعتمدنا على هـذه التوراة دون غيرها »(٢) .

وقد فعل أبو الفداء الشيء نفسه في كتاب تقويم البلدان ، فبذل جهداً كبيراً في توضيح أمور ملتبسة ، منها ما يتعلق بفروق الزمن بالنسبة للسائرين القادمين من المشرق ، والذين يسيرون في الوقت نفسه قادمين من المغرب ، والمقيمين الذين يستقبلون هؤلاء

---

(١) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١٢ .

وأولئك . ويبدأ شرحه بذكر جملة جديدة الدلالة وهي : « مسألة لتنبيه الذهن على ما نحن فيه »(١) . وكذلك فعل ليوضح التفاوت بين رأي القدماء ورأي المحدثين في طول الاقاليم السبعة ، ومساحة كل إقليم ، ودور الأرض ، وأنه راجع الى الخلاف بينهم في الاصطلاح على الذراع والميل والفرسخ ، وأن هذا الخلاف حقيقي بالنسبة الذراع ، « لأنه عند القدماء اثنتان وثلاثون إصبعاً ، وعند المحدثين أربع وعشرون إصبعاً ، وذراع القدماء أطول من ذراع المحدثين بثماني أصابع . وأما الميل فهو عند القدماء ثلاثة آلاف ذراع وعند المحدثين أربعة آلاف ذراع ، والخلاف بينهم فيه انما هو لفظي ، فان مقدار الميل عند الجميع شيء واحد وان اختلفت أعداد الاذرع .. »(٢) . وقد وضح كذلك على طريقته، الفرق بين الاقليم الحقيقي والاقليم العرفي ، كما سبق أن ذكرنا في القاعدة الثانية الخاصة بالدقة في تفسير البيانات وتفنيدها . ويقول في تحديد الاقاليم العرفية ، أعلم ان الامر في تحديد الاقاليم العرفية لايجري كما يجري في تحديد الدار أو البستان ونحوهما ، لان غالب الدور والبساتين تكون قطعاً مربعة أو متساوية الجوانب . وليس الامر في الاقاليم العرفية كذلك ، فان بعض جوانبها يكون مداخلا لاقليم آخر وبعضها يكون فيه تقويس وبعض جوانبها أعرض من الجانب الآخر . والذي يحدد المكان انما يحدده بالجهات الاربع وهي الشرق والغرب والجنوب والشمال ، وذلك لايصدق في الاقاليم العرفية على ما ذكرناه »(٣) .

ولقد كان كلف أبي الفداء بالوضوح في بسط الآراء هو الذي هداه إلى الابتكار والتفنين . فقد كان أول جغرافي يجدول المعلومات من البلدان على وضع التقاويم على حد تعبيره . وقد جعل في كل جدول بيتاً لضبط الأسماء ، « فان في هذه الاسامي أسماء أعجمية لايُهتدى اليها بغير ضبط ، وكذلك في الأسماء المشهورة أسماء قد غيرتها العامة ... »(٤) . وهذه الجداول المبتكرة تمكن من بسط البيانات في إيجاز واضح على القارىء بجد يسير . وهذا هو الشيء الأصيل المبتكر في كتاب تقويم البلدان . وكذلك في كتاب المختصر في أخبار البشر ، يقرر أبو الفداء أنه اقترح جدولاً يتضمن مابين التواريخ المشهورة من

(١) كتاب تقويم البلدان ، ص٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص١٥ .
(٣) المصدر نفسه ، ص٧٤ ، ٧٥ .
(٤) المصدر نفسه ، ٧٣ .

المدد . ويردف قائلاً ، « ومتى أردت معرفة مابين أي تاريخين منها فادخل في الجدول الى البيت الذي يلتقيان فيه ، ومهما كان فيه من العدد فهو مابينهما بعد الاجتهاد البالغ في تحقيقه وتحريره » (١) . ولذلك استحق عن جدارة ماقاله ابو المحاسن فيه ، كماسبق أن ذكرنا في التمهيد ، أنه « إمام بارع مفنن ».

خاتمـــة :

ذلك منهج أبي الفداء في البحث ، التزم به في مؤلفيه الكبيرين القيمين في الجغرافية وفي التاريـخ . فاستحق أن يكون رائداً من الرواد المسلمين الأوائل في ميادين المعرفـة المتنوعة ، الذين بزغوا نجوماً وضاءة في سماء الفكر ، في زمان لم يكن فيه ذكر في العالم شرقية وغربية الا لعلماء الأمة الاسلامية المترامية الأطراف . وليس الاحتفـال بذكرى مولد ابي الفـــداء تكريماً له ، بقدر ماهو إحياء لتراثنـــا القومي ونشـره بين العـامة والخاصـــة ، ليتبينوا مافيه من أصـالة ويتدبروا مافيـه من إبداع وإثراء للمعرفـة الانسانية .

ولنذكر القارىء بأن العصر الحاضر هو عصر العلم والتقنية (التكنولوجيا) ، اللذين يتعاونان في كل مجالات التنمية لتحقيق المجتمع العدالي ، الذي تسعى مختلف النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية الحديثة الى تحقيقه . ومن سمات العـلم والتقنيـة في عصرنا هذا وفرة البيانات ، وتقديمها في إيجاز ووضوح ؛ لأن المجتمع المعاصر أصبح يمتاز بالسرعة في التحصيل والتفكير والتخطيط والانجاز . وهذه كلها أسس التغيير السريـع المدبر للمجموعات والجماعات . ولقد سلك أبو الفداء منذ قرابة سبعمائة عام ، طريق التأليف الخصب ، الموجز الدقيق ، الواضح ؛ فليكن رائداً لنـــا ، نحن العرب ، في الاقتصاد في الحديث والكتابة ، والاكتفاء بما قل ودل ، في ايجاز غير مخل .

(١) كتاب المختصر في أخبار البشر ، جـ١ ، ص١٤ .

المؤرخ أبو الفداء ونزعته العلمية

الدكتور كامل عياد

يعتبر ابو الفداء ، الملك المؤيد صاحب حماة ، من ألمع الشخصيات في تاريخ العرب والاسلام . فهو احد الامراء الايوبيين الذين حكموا مصر وبلاد الشام اكثر من ثمانين عاماً وامتازوا بالشجاعة وأبلوا بلاء حسناً في محاربة الصليبيين وطردهم من هذه البلاد .

وقد برهن ابو الفداء على كفاءة فائقة في ادارة أمارة حماة . فكان كثير العناية بمصالح الناس ، شديد الاهتمام بعمران البلاد وازدهارها . كذلك أظهر مهارة ولباقة

في علاقاته السياسية مع سلاطين المماليك الذين كانوا ، بعد الايوبيين ، يتعاقبون بسرعة في تولي السلطة ، ثم إنه كان ، مثل الكثيرين من امراء الايوبيين ، ينظم الشعر الجيد ويحب أهل العلم والادب فيقربهم اليه ويشجعهم ويجيزهم بسخاء على مدائحهم له ، بل كان قد خصص رواتب دائمة لبعض الشعراء مثل ابن نباتة .

على ان أبا الفداء انما اشتهر في الدرجة الاولى بأنه هو نفسه كان من كبار العلماء العرب . ويتفق المؤرخون الذين بحثوا في سيرته على أنه قد شارك في علوم وفنون كثيرة من فقه وفلسفة وطب وغير ذلك وأن اجود ما كان يعرفه علم الهيئة . ويذكر الرواة إنه نظم كتاب (الحاوي الصغير) في الفقه الشافعي تأليف نجم الدين عبد الغفار القزويني وألف كتاباً صغيراً في (الموازين) وكتاباً في الطب من عدة مجلدات بعنوان (الكناش) . وينسب اليه أيضاً مؤلفات أخرى مثل (اللطائف السنية في التواريخ الاسلامية) . الا أنه لم ينتقل الينا من آثاره سوى بعض الاشعار و كتابين مشهورين هما : (تقويم البدان) و (المختصر في تاريخ البشر) .

يتبين من الأخبار أن أبا الفداء كان يمارس الطب عملياً في بعض الاحيان : فنراه مرة يعالج ابن عمه الملك المظفر ، صاحب حماة قبله ، لما مرض في طريق العودة من الحرب في الاناضول حتى شفي (١) ، ومرة أخرى مرض والده الملك الأفضل محمد وكان يرافقه في رحلة الى مصر فأرسل اليه السلطان رئيس أطبائه الذي صار يأتي اليه بكرة وعشية فيجده حاضراً ليبحث معه في المرض ويقدر الدواء ويمزجه بيده في دست من الفضة . وقد اضطر رئيس الاطباء الى أن يعترف بمهارته في الطب ويقول له : « ياسيدي، والله ما محتاج الي ، وما أجيء الا امتثالاً لأمر السلطان » (٢) .

ويذكر الشيخ الآسنوي في كتابه (طبقات الشافعية) انه اتفق قدوم ابي الفداء الى الديار المصرية في بعض السنين فاجتمع في مجلسه عدد من العلماء بينهم الطبيبان المشهوران زين الدين بن القويع والصلاح بن البرهان . وقد جرى البحث في عدة علوم ثم انتقل اتفاقاً الى علم النباتات والحشائش ، فكان أبو الفداء ، كما ذكر نبات ، تكلم على صفاته

(١) أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر . طبعة استانبول سنة ١٢٨٦هجرية المجلد ٤ صفحة ٣٦ .

(٢) ابن شاكر الكتبي ، ذوات الوفيات . طبعة القاهرة ١٢٩٩ المجلد ١ صفحة ١٧ .

والارض التي ينبت فيها والمنفعة التي فيه مع الاستطراد في ذلك استطراداً عجيباً .وهذا الفن كان مما يتبجح الطبيبان المذكوران بالتخصص فيه بينما أكثر الاطباء يجهلونه ،لذلك أظهرا ، بعد الخروج من المجلس ، منتهى التعجب وقال ركن الدين بن ابقولع(١) : « ماعلم أن ملكاً من ملوك المسلمين وصل الى هذا العلم . »(٢)

ويروي ابو الفداء عند ترجمته لحياة الشيخ جمال الدين بن واصل ، قاضي القضاة في حماة ، الذي كان مبرزا في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والهيئة بالاضافة الى اصول الدين والفقه والتاريخ إنه كان في شبابه يتردد كثيرا الى ابن واصل ليعرض عليه مايحله من اشكال كتاب (اقليدس) ويستفيدمنه معارف اخرى.(٣)

إن الاتجاه العلمي في تفكير أبي الفداء الذي تشير اليه امثال هذه القصص نلمسه بوضوح في كتابيه : (تقويم البلدان) و (المختصر في تاريخ البشر) .

أما كتاب (تقويم البلدان) الذي انتهى ابو الفداء من تأليفه في سنة ٧٢١ هـ/١٣٢١م. فهو ليس ، كما أدعى أحد المستشرقين عبارة عن مجموعة هزيلة نقلت من المصادر القديمة(٤)، بل إنه موسوعة مبتكرة تعتمد على دراسات الجغرافيين العرب المشهورين أمثال (البيروني) و « ابن حوقل » و « الشريف الادريسي » و « ابن سعيد المغربي » تتضمن محاسنهم وتتحاشى الكثير من أخطائهم .

وقد اشتهر الكتاب في العصور التالية حتى نال ثقة جميع الباحثين وقام الكثيرون بتلخيصه والتعليق عليه واقتبس عنه « القلقشندي » أجزاء كثيرة من كتابه المشهور « صبح الأعشى » .ثم ترجم الكتاب في اواخر القرن السادس عشر الى اللغة التركية (٥) وبعد أن ترجمت أقسام منه الى اللغة اللاتينية منذ القرن السابع عشر ترجم كله الى الفرنسية

---

(١) المختصر في تاريخ البشر ١٩٦/٣

(٢) ابن تغري بردى ، « المنهل الصافي » في ترجمة ابي الفداء

(٣) المختصر ٢٩/٤ــ٤٠

(٤) المستشرق الهولاندي « كرامرس Krmers » في كتاب « تراث الاسلام ـ Legacy of Islam » طبعة اوكسفورد سنة ١٩٣١ ص ٩١

(٥) ترجمة الى التركية محمد بن علي سباهي زاده كما ذكر حاجي خليفة في كتاب كشف الظنون ، المجلد ٢ ص ٣٩٣ « طبعة فلوغل »

في منتصف القرن التاسع عشر . ومؤخرا نرى عالما كبيرا مثل الاستاذ « سارتن C , Sarton » صاحب الكتاب المشهور « مدخل الى تاريخ العلم » يصف أبا الفداء بأنه كان أعظم عالم جغرافي في عصره .»١« وليس من شأني هنا أن اتولى البحث في خصائص كتاب « تقويم البلدان » .

وحبذا لو أقدم الاختصاصيون من الجغرافيين العرب على دراسة الكتاب وتحليل محتوياته وبيان قيمته العلمية ومكانته في تاريخ علم الجغرافيا .

وحسبي في حديثي هذا أن أحاول وصف كتاب (المختصر في تاريخ البشر) وأن أستعرض الأمور التي امتاز بها أبو الفداء المؤرخ والتي تنم عن نزعته العلمية ..

يلاحظ منذ البداية أن أبا الفداء انما أراد أن يجمع « شيئاً من التواريخ القديمة والاسلامية يكون تذكرة تغنيه عن مراجعة الكتب المطولة » ويقول في المقدمة ، إنه اختاره واختصره على الاخص من كتاب (الكامل في التاريخ) تأليف عز الدين بن الأثير .

من المعروف أن ابن الأثير في كتاب الكامل إنما اختصر بدوره (تاريخ الانبياء والملوك) للبصيري مع اضافة فصول عن أيام العرب ومعلومات عن المغرب ثم سجل الاحداث التي وقعت بعد عصر البصيري الذي كان قد توقف عند سنة ٣٠٢ ه فوصل ابن الاثير حتى سنة ٦٢٨ ه .

وعلى الرغم من أن كتاب (الكامل) قد اعتبر خير ما ألف من الحوليات في التاريخ الاسلامي لما امتاز به من مادة غزيرة وبتبويب حسن وأسلوب شيق ولغة واضحة وتعابير دقيقة ، فان ابن الاثير قد غفل عن بعض الامور الهامة ووقع في كثير من الأخطاء عدا انه كان يهمل في الغالب ذكر مصادره وينحرف ويتحيز أحياناً عند عرض الحوادث .

وقد لاحظ أبو الفداء هذه الشوائب وعرف ان كتاب « الكامل » ليس كاملا من جميع الوجوه . وكان طبيعياً أن عالماً محققاً ، واسع الاطلاع مثله لا يمكن أن يقتصر على النقل والاقتباس ، بل لا بد له من أن يسعى الى التأكد من صحة الاخبار وضبط

(١) G. Sarton. Introduction to the History of Science
vol. III p 793 — 799

التواريخ والاسماء بالرجوع الى مصادر موثوقة كلما وجد الى ذلك سبيلا . ولهذه الغاية فقد استعان بمجموعة من المؤلفات القيمة قلما نجد لبعضها ذكراً عند غيره من المؤرخين فعلاوة على كتب معروفة مثل « تجارب الامم » لابن مسكويه و « وفيات الأعيان » لابن خلكان و « المغرب في أخبار أهل المغرب » لابن سعيد المغربي و « تاريخ اليمن » للفقيه عمارة اليمني ، يشتمل ثبت المراجع بالأخص على « كتاب البيان عن تاريخ سني الزمان عـلى سبيل الحجة والبرهـان » لأبي عيسى بن المنجم ثم « تاريخ سـني ملوك الأرض » لحمزة الأصفهاني .

هنا لابد من التساؤل ، من هو أبو عيسى بن المنجم ؟ لقد ورد ذكره في كتاب الفهرست لابن النديم «١» الذي يروي أخبار آل المنجم جميعاً ويقول أن جـد الأسرة يحي بن أبي منصور هو فارسي اشتغل بالنجوم وأسلم على يد المأمون . وقـد نبغ عدد من أولاده وأحفـاده ، فاشتهر بعضهم بالادب ورواية الشعر والتأليف في مختلف الفنون ومنادمة الخلفاء ، ثم يقول ابن النديم :

« ومن أفاضل آل المنجم أبو عيسى أحمد بن علي بن يحيى ، له من الكتب (كتاب تاريـخ سني العالم) . » دون أن يذكر شيئاً عن تاريـخ مولد المؤلف أو موته أو عن محتوى الكتاب . ولكنه في ترجمة أخيه أبي عبد الله هارون يخبرنا أن هذا توفي في سـنة (٢٨٨) . وعلى الرغم من أن (تاريخ) أبي عيسى لم يكتب له الانتشار ولم يصل إلينا إلا إنه يمكننا أن نتفق مع المستشرق (روزنتال) Fsanz Rosenthal الذي يقول في كتابه (علم التاريخ عند المسلمين)(٢) إن أبا عيسى بن المنجم قد ألف كتابه (تاريخ سني العالم) قبل الطبري بعدة عقود وإن هذا التاريـخ ربما كان بحثاً مرتباً حسب السنين على النمط اليهودي - المسيحي يبدأ منذ الخليقة وهبوط آدم والطوفان ويروي قصص الأنبياء وأخبار الفرس والروم وإنه ربما لم يتطرق إلى تاريـخ الاسلام قط ..

ومهما كان الامر فان أبا الفـداء في القسم الاول من « المختصر في تاريـخ البشر » الخاص بالامم القديمة يعتمد كل الاعتماد على كتاب أبي عيسى بن المنجم . ويبدو أن أبا

---

(١) ابن النديم ، الفهرست . طبعة القاهرة ١٣٤٨ صفحة ٢٠٧

(٢) روزنتال ، علم التاريخ عند المسلمين « ترجمة الدكتور احمد صالح العلي » طبعة بغداد ١٩٦٣ ص١٠٣

عيسى قد استقى معلوماته من مصادر سريانية وبزنطية . فهو عند تحديد تاريخ (هيلين) و (موسى) مثــلا يستند الى كتاب (الرد على جوليان) الذي ألفه (كيرلس — Cyrillis) رئيس أساقفة الاسكندرية في النصف الاول من القرن الخامس الميلادي . وهو يقول : « المنقول عن أصحاب السير من اليونان أن « أميرس » « أي هوميروس » الشاعر اليوناني كان موجوداً في سنة « ٥٦٨ » لوفاة موسى . »(١) ونلاحظ أن مثـل هذا التحديد الزمني ينطبق على التقديرات الحديثة .

وبوجه عام فإن الاخبار التي اقتبسها أبو الفداء عن أبي عيسى بن المنجم فيا يتعلق باليونانيين والرومان تمتاز بالدقة وتقرب كثيراً من الصحة خلافاً لما يذكره أكثر المؤرخين العرب من قصص خيالية وأساطير . وقد أقدم أبو الفداء مرة واحدة على معارضــة رواية أبي عيسى ولكــن من المصادفات الغريبة أنه كان هو المخطيء في هذه الحالة . فقد قال أبو عيسى بن المنجم « إن جميع العلوم العقلية مأخوذة عن اليونانيين مثل العـلوم المنطقية والطبيعية والآلهية والرياضية . وكان العالم بهذه العلوم يسمى فيلسوفاً وتفسيره محب الحكمة . ومن فيلاسفتهم « طاليس » الملطي الذي كان في زمن « بخت نصر » . » وهذا صحيـح . ولكن أبا الفداء رجـع الى كتاب الملل والنحل للشهرستاني الذي ذكر أن الفيلسوف اليوناني « ابندقليس » كان في زمن « داود » والفيلسوف « فيثاغورأس » كان في زمن « سليمان » وأنه أخذ الحكمة من معدن النبوة . وهنا أخذ أبو الفداء يحسب التواريخ القديمة فتبين له أن « بخت نصر » قد عاش بعد سليمان بأكثر من « ٤٠٠ » سنة واستنتـج من ذلك ان قول أبي عيسى بأن الفلسفة اليونانية ظهرت في عهد « بخت نصر » غير مطابق لما ذكره الشهرستاني الذي اعتمد هنا على روايته دون مبرر ...»(٢)

أمــا (حمزة الأصفهاني) الذي كان ، على الرغم من نزعته الشعوبية ، مشهوداً له بالفضل والمعرفة الواسعة والنظرة الفاحصة والآراء الجريئة فقد تأثر أبو الفداء بطريقته العلمية في ضبط التواريخ وتحقيقها . وهو في كتابه (تاريخ سني ملوك الأرض) يذكر ملوك الفرس والروم وغيرهم فضلاً عـن أنساب حمير وسائر دول العرب من غسان ولخم وكندة . وكان اهتمامه منصرفاً الى تحقيق سني الولادة والوفاة . وفي كتابه قائمــة بأسماء الكتب الفارسية الكثيرة التي استقى منها معلوماته .

(١) المختصر ٨٨/١

(٢) المختصر ٨٨/١

لاحظ أبو الفداء أن الأخبار المأخوذة عن المؤرخين قبل الاسلام مضطربة جداً لانهم كانوا يؤرخون من ابتداء ملك كل من تملك منهم، فكثرت بدايات تواريخهم . وكان هذا ، كما قال حمزة الاصفهاني ، « سبباً في فساد تواريخهم فساداً لا مطمح في اصلاحه مع ما انضم الى ذلك من بعد العهد وتغير اللغات وقدم الكتب المؤلفة في هذا الفن ، فصار تحقيق التواريخ القديمة متعذراً أو في غاية التعسر »(١) .

وقد تأثر أبو الفداء أيضاً بأبحاث (أبي الريحان البيروني) الذي يعتبر من أكبر العلماء والمفكرين المسلمين . على أن أبا الفداء قد اقتصر على كتاب واحد هو (القانون المسعودي) في الهيئة والنجوم الذي استفاد منه عند تأليف (تقويم البلدان) فاقتبس عنه خطوط الطول والعرض وأوصاف كثير من المدن ونقل رأي البيروني في مساحة الأقاليم السبعة ومقارنته بين أبحاث الهنود واليونانيين وتصريحه القائل : « الروم والهند أصدق سائر الأمم عناية بهذه الصناعة (بقصد علم الهيئة ووصف المعمورة) ولكن الهند لا يبلغون غاية اليونانيين فيعترفون لهم بالتقدم ولذلك نميل الى آرائهم ونؤثرها »(٢) .

كذلك اقتبس أبو الفداء عن (القانون المسعودي) بعض المعلومات التاريخية المتعلقة بقياصرة الرومان (٣) . وكان من المنتظر أن يستفيد أبو الفداء من كتابين آخرين للبيروني لها صلة وثيقة بالتاريخ هما : أولاً كتاب (الآثار الباقية عن القرون الخالية) الذي يبحث في تقاويم وعصور الأمم القديمة ، وثانياً كتاب (تحقيق ما للهند من مقولة) الذي يبحث في فلسفة الهنود وآرائهم الدينية . الا ان الكتاب الثاني لا يأتي ذكره أبداً عند أبي الفداء ، الذي يعتمد في الفصل الخاص بأمم الهند وطوائفهم على الشهرستاني . أما كتاب (الآثار الباقية) فانه يشير اليه مرة واحدة وذلك عند شرح اسم اليهود فينقل عن الشهرستاني قوله بأن هذا الاسم مشتق من هاد الرجل أي رجع وتاب وإنه إنما لزمهم لقول موسى : إنا هدنا اليك أي رجعنا وتضرعنا . ثم يضيف ما قاله البيروني من أن ذلك ليس بشيء وأن اسم اليهود إنما أطلق عليهم نسبة الى يهوذا ، أحد الأسباط ، فان الملك استقر

(١) المختصر ١/ ٤

(٢) ابو الفداء ، تقويم البلدان ، طبعة « رينو » باريس ١٨٤٠ ص ١١

(٣) المختصر ١/ ٦٤ – ٦٥

في ذريته وأبدلت الدال المعجمة دالاً مهملة كما يوجد في كلام العرب . وهناك مؤلف آخر للبيروني يذكره أبو الفداء مرة واحدة أيضاً هو كتاب الجواهر (١) .

من المعروف ان المؤرخين المسلمين قد أستوحوا طريقة التاريخ على السنين من المؤرخين الاغريق والسريان المسيحيين الذين اتبعوا بالاخص الاسقف (اويسبيوس Ousebius) في كتابه التواريخ (Ehronicles) الذي نشر في اوائل القرن الرابع وقد ظل مؤلفو الحوليات في بلاد الغرب ايضا يعتمدون عليه حتى القرن الرابع عشر اذ يبدأون تاريخ العالم بالخليقة وهبوط آدم ثم الطوفان ونوح وتتابع سائر الانبياء والملوك . وقد وضع (اويسبيوس) جداول زمنية تحدد التواريخ الهامة من ولادة ابراهيم الى وفاة موسى ومن عهد داود الى بخت نصر والى قسطنطين كما حاول تنسيق هذه التواريخ مع مختلف انظمة التقويم من كلدانية وفارسية ويونانية ورومانية . وكان (اويسبيوس) يعتمد بالدرجة الاولى على التوراة . ونرى البيروني في كتابه (الآثار الباقية) يشير الى (اويسبيوس) فيقول : « كان اصحاب المسيح عليه السلام يحتاجون الى تقديم المعرفة بفصح اليهود يستنبطون منه اول الصوم فكانوا يستفتون اليهود فيه ويسألونهم عنه . وهم للعداوة بينهم كانوا يخبرونهم بخلاف الحقيقة ليضلوهم .. ومع ذلك لم تكن تواريخهم متفقة الى ان تجرد لحسابهم كثير من حسابهم فحسبوها على ادوار مختلفة واعمال متنوعة . والذي اجمعوا على استعماله هو الجدول الذي يسمونه (خرانيقون) وزعموا ان (اويسبيوس) ، اسقف قيسارية حسبه مع ٣١٨ نفراً من الاساقفة في السنودس الاول اي المجمع المسكوني في بنقية سنة ٣٢٠ . (٢) .

وقد استند ابو الفداء أيضاً الى التوراة واعتبرها من اهم المصادر لمعرفة التواريخ القديمة ، كما وضع جدولا يتضمن التواريخ المشهورة بالنسبة الى الهجرة . على أن أبا الفداء قد لاحظ الاختلاف الكبير بين نسخ التوراة الثلاث المتداولة وهي : السامرية والعبرانية واليونانية . فقال ان الاولى والثانية مفسودتان وأن المحققين من المؤرخين قد اختاروا التوراة اليونانية التي ليس فيها مايقتضي الانكار من جهة الماضي من عمر الزمان . ثم انه يشير الى الاسطورة التي نسجت حول نقل هذه التوراة من العبرانية في

(١) المختصر ١٠٢/١

(٢) البيروني ، الآثار الباقية من العصور الخالية ، طبعة « سخاو » لايبزيغ ١٩٢٣ صفحة ٨٥

عهد الملك بطليموس الثاني « فيلادلفوس » (٢٨٥ — ٢٤٧ قبل المسيح » ، اذ تروي الاخبار ان القيم على كتب متحف الإسكندرية أخبر الملك بانه قد جمع أحسن الاثار من اداب الشعوب في ٩٩٥ كتاباً ولكن ليس بينها ، مع الأسف ، أعظم كتاب في العالم أي التوراة ، فطلب الملك من رئيس الكهنة في القدس ارسال نسخة من أسفار موسى الخمسة ومعها « ٧٢ » عالما فرض عليهم العزلة كل واحد منهم في حجرة حتى انتهوا من الترجمة ولما قورنت النسخ المترجمة تبين أنها جميعاً مطابقة بعضها مع بعض . وقد سميت هذه التوراة اليونانية Septuaginta أي السبعينية .

ويقول ابو الفداء (١) إنه اعتمد على هذه التوراة دون غيرها في تحديدالمدة بين هبوط آدم والطوفان ومابين الطوفان ومولد ابراهيم الخليل ثم بين هذا ووفاةموسى.. على أن أبا الفداء يعود في مكانين آخرين الى القول بأنه اعتمد على نسخة التوراة العبرانية في سبيل ضبط الأسماء . فهو يصرح (٢) : « وهذا الفصل ، أعني فصل (حكام بني اسرائيل وملوكهم) قد كثر الغلط فيه لبعد عهده ولكونه باللغة العبرانية فتعسرالنطق بالفاظه على الصحة . ولم أجد في نسخ التواريخ التي وقعت لي في هذا الفن ما اعتمد على صحته لأن كل نسخة وقفت عليها وجدتها تخالف الاخرى إما في اسماء الحكام واما في عددهم واما في مدداستيلائهم . . ولليهودالكتب الاربعةوالعشرون وهي عندهم متواترة، قديمة ولم تعرب الى الان ، بل هي باللغةالعبرانية فأحضرت منها سفري قضاة بني اسرائيل وملوكها وأحضرت انسانا عارفا باللغة العبرانية والعربية وتركتــه يقرأها وكتبت منها ماظهر عندي صحته وضبطت الأسماء بالحروف والحركات حسب الطاقة .. » ثم يقول(٣) : « وقربنا في ضبط هذه الاسماء غاية ما أمكننا. فان فيها احرفا ليست من حروف العربي وفيها إمالات ومدات لايمكن أن تعلم بغير مشافهة . لكن ماذكرناه من الضبط هو اقرب مايمكن . فليعلم ذلك . »

والى جانب المصادر الرئيسية السابقة كان أبو الفداء يرجع في موضوعات معينة الى الكتب الاختصاصية . فهو ، مثلا ، بعد ان نقل أسماء فراعنة مصر الاولين وأخبارهم

(١) المختصر ٦/١
(٢) المختصر ٢١/١
(٣) المختصر ٣٢/١

عن تاريخ ابن سعيد المغربي أراد اتمام السلسلة بمراجعة كتاب خاص بملوك مصر في قديم الزمان لمؤلف اسمه « ابن حنون الطبري » لا نعرف عنه اليوم شيئاً . ثم ينتقل الى كتب اليهود التي تذكر أن فرعون الذي غزا بني اسرائيل على أيام الملك « رحبعم » بن سليمان هو « شيشاق » أي « ششنق » الاول مؤسس الاسرة الليبية ، ويعلن أبو الفداء على ذلك قائلاً : الاول وهو الاصح ، أي أصح من اسم « بولة » الذي يذكره ابن حنون (١) .

وفي الفصل الخاص بأمة اليونان نقل أبو الفداء تراجم حياة فلاسفة اليونان الكبار سقراط وأفلاطون وأرسطو عن الشهرستاني ثم استعان بكتاب « تاريخ الحكماء » لابن القفطي في سبيل معرفة أسماء الفلاسفة اليونانيين المتأخرين وعلى الاخص الذين عاشوا منهم في الاسكندرية واشتغلوا بالعلوم الرياضية والطب (٢) .

مثلما راجع أبو الفداء مصادر عديدة ومثلما سعى الى استقصاء المعلومات ومقارنتها وتمحيصها فيما يتعلق بالامم القديمة كذلك فعل القسم الثاني من كتابه أي قسم التواريخ الاسلامية . فكان في كثير من الموضوعات يرجع الى مؤلفات الاختصاصيين لتلافي النقص أو تصحيح الأخطاء لدى ابن الاثير . هكذا نراه عند الكلام على غارة « التتر » التي يصفها بأنها أعظم مصيبة نكب بها المسلمون يعتمد على كتاب « تاريخ ظهور التتر » تأليف محمد بن أحمد النسوي الذي كان كاتب الانشاء لدى جلال الدين بن محمد خوارزم شاه والذي رافقه في حروبه مع التتر وأصبح أخبر الناس بأحوال الخوارزميين وجيرانهم فنقل عنه أبو الفداء وصف بلاد الصين ونشأة جنكيزخان (٣) .

ويعتمد أبو الفداء على (كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان) لأبي العرب الصنهاجي في تصحيح تاريخ مقتل أبي عبد الله الشيعي ، داعية المهدي مؤسس الدولة الفاطمية إذ أورده ابن الأثير في سنة (٢٩٦) في حين يذكر الصنهاجي ان ذلك كان في سنة (٢٩٨) ويضيف ابو الفداء قائلاً : « وهو الأصح عندي ، كما ذكر ذلك ابن

---

(١) المختصر ٦١/١

(٢) المختصر ٩٠/١

(٣) المختصر ١٢٩/٣ و ١٥٤

خلكان أيضاً »(١) . وعند البحث في دولة بني حماد بافريقية يقتبس أبو الفداء معلوماته من كتاب الصنهاجي أيضاً(٢) ..

أورد ابن الأثير موت محمود بن شبل الدولة بن صالح بن مرداس ، صاحب حلب في سنة (٤٦٩) . وهنا يقول أبو الفداء : « لكنني وجدت في (تاريخ حلب) تأليف كمـال الدين المعروف بابن العديم أن محموداً المذكور مرض في سـنة ٤٦٧ وحدث به قروح في الأمعاء مات بها في تلك السنة فملك بعده ابنه نصر الذي لم يذكر ابن الأثير تاريخ مقتله بينا قال ابن العديم إن ذلك كان يوم الأحد مستهل شوال سنة (٤٦٨)(٣) .

حقاً إن تفكير أبي الفداء كان يسيطر عليه الاتجاه الرياضي . فهو مولـع بحساب التواريخ ومقارنتها وضبطها . ولنذكر مثالاً آخر : لما رأى أبو الفداء أن ابن الأثير قد ذكر قلعة (شيزر) القريبة من حماة مدعياً أنها لم تزل لبني منقذ يتوارثونهـا من أيام صالح بن مرداس صاحب حلب ، صرح بأن الأمر ليس كذلـك لأن ابن مرداس توفي سنة (٤٢٠) بينا كان تملك بني منقذ لشيزر في سنة (٤٧٤) أي بعد مدة أربع وخمسين سنة . ويضيف أبو الفداء قائلاً : « ونحن نورد أخبار بني منقذ محققة حسبما نقلناها من تاريخ مؤيد الدولة أسامة بن مرشد وهو أفضل بني منقذ »(٤) .

كان أبو الفداء ، كما تقدم ذكره ، يتردد الى قاضي قضاة حماة جمال الدين بن واصل للدراسة . والمعروف ان ابن واصل الذي اشتهر بكتابه « مفرج الكروب في اخبار بني ايوب » كان قد توجه في سنة ٦٥٩ هجرية « ١٢٦١ ميلادية » رسولاً من قبل الملـك الظاهر بيبرس الى الامبراطور « مانفريد » . وقد انتهز أبو الفداء الفرصة ليسأله عـن مشاهداته في ايطاليا ويجمـع مادة لكتابه في التاريـخ فعلم منه ان كلمة امبراطور معناها ملك الأمراء وان مملكة «مانفريد» تشمل جزيرة صقلية وبلاد « ابولية » و «لومباردية» من البر الطويل « اي ايطاليا »وان الامبراطورية « مانفريد » كان مثل والده«فريدرين الثاني » مصافياً للمسلمين ومحباً للعلوم . وقد اكرم ابن واصـل الذي صنف له كتاباً في المنطق بعنوان « الامبروزية » نسبـة الى الامبراطور . وذكر ابن واصل انه إقام في

(١) المختصر ٢/٧٠
(٢) المختصر ٢/١٣٨
(٣) المختصر ٢/٢٠٢
(٤) المختصر ٣/٣٣

مدينة من مدائن « ابولية » تبعد عن رومية مسيرة خمسة ايام [يقصد بذلك « فوجيا »] وان هنالك بالقرب منها مدينة تسمى « لوجارا » « اي Lu cera» اهلها كلهم مسلمون ، كان قد نقلهم الامبراطور « فريدريك الثاني » من صقلية ليكونوا حرساً خاصاً له . وكان اكثر اصحاب الامبراطور « مانفريد » مسلمين ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة (١) .

ولننتقل الآن الى ناحية اخرى تدل على نزعة ابي الفداء العلمية ويتجلى فيها حسه التاريخي ونعني بذلك محتوى كتاب « المختصر في تاريخ البشر » . فما هي المواد التي كان يختارها ابو الفداء من المصادر الموجودة بين يديه وما هي طريقته في انتقاء هذه المواد ؟

من المعلوم ان الاخبار التي تتناقلها الأجيال ويدونها الرواة كثيرة تشمل اموراً متنوعة جداً من تعاقب الملوك والحكام والقادة ووصف الحروب والثورات والانقلابات وتسجيل نصوص القوانين والمراسلات والمعاهدات ثم تراجم احوال الفلاسفة والعلماء والادباء والشعراء والاشادة بالاعمال العمرانية والآثار الفنية وذكر الكوارث الطبيعية من زلازل وفيضانات وأوبئة ومجاعات وغير ذلك .

هذه الحوادث ليست جميعها مهمة تستحق الحفظ ، كما إن الاخبار عنها ليست دوما موثوقة ، صحيحة . وقد امتلأت كتب التاريخ بكثير من القصص الخرافية والاساطير .

ان المؤرخ الحقيقي هو الذي يستطيع تمييز الاخبار الصادقة من الكاذبة والذي يعرف الاحداث الهامة التي ينبغي تسجيلها قبل غيرها . ولا شك في ان ابا الفداء كان قادراً على نقد الرواة وتمحيص الأخبار واختيارالمواد اللازمة كما يدرك اناهمية الحادث التاريخي تقاس بمدى تأثيره في الاوضاع الحاضرة والمستقبلة .

واذا كنا لا ننكر ان (المختصر في تاريخ البشر) يتضمن بعض الحوادث التافهة والاخبار المشبوهة والقصص السخيفة فلا بد من الاعتراف بان هذه الشوائب قليلة وانه عند مقارنته مع نظائره يبرهن على نزعة علمية ونظرة انتقادية وتفكير عقلاني . انه

---

(١) المختصر ٤٠/٤

بالاجمال ، يمتاز على كثير من سائر كتب التاريخ باقتصاره على الامور الهامة والاخبار الصحيحة .

إن ابا الفداء ، بعد ان ينقل قصص الانبياء كما كانت ترويها اذ ذاك كافة المؤلفات التاريخية في الشرق والغرب بالاستناد الى شهادة الكتب الدينية ، يبدأ في ذكر طبقات ملوك الفرس فيقول إنهم ينقسمون الى أربع طبقات وإن ملوك الطبقة الاولى القديمة « تروى عن مدد ملكهم وحروبهم أمور يأباها العقل ويمجها السمع فأضربنا عنها لذلك ولم نذكر الا ما يقرب الى الذهن صحته » .(١) وفي الواقع يدعي المؤرخون مثلاً أن « جم » حكم مدة سبعمائة سنة وثلاثة أشهر وأن الملك « بيوراسب » حكم مدة ألف سنة. ولكن أبا الفداء لم يشر الى ذلك ، بل وجه اهتمامه الى اساليب الادارة والسياسة لدى ملوك الفرس ولخص مبادىء ديانة « زرادشت » ثم تعاليم « مزدك » التي تدعو الى التساوي في الاموال بين الناس والاشتراك في النساء(٢) وتؤمن بالتنجيم والطلاسم والتي كان لها تأثير في آراء بعض الفرق حتى العهد الاسلامي مثل القرامطة .

وعند ذكر القبط نقل ابو الفداء عن كتاب « طبقات الامم » لصاعد الاندلسي قوله : إن سكان مصر كانوا اهل ملك عظيم في الدهور الخالية وظهر بينهم علماء بضروب العلوم خاصة الطلسمات والنيرنجات والكيمياء وانهم كانوا أخلاطا من الامم ما بين قبط ويونان وعماليق وروم وغيرهم وذلك لكثرة من تداول عليهم فان اكثر من تلك مصرهم الغرباء (٣) .

ولما تكلم على اليونان قال إنهم كانوا طوائف قبل « فيلبس المكدوني » ثم بعد ان ذكر الاسكندر وخلفاءه استعرض فلاسفة اليونان وبحث في آرائهم ومؤلفاتهم .

وفي الفصل عن ملوك الرومان بحث في القياصرة وفتوحاتهم بينما اقتصر في الفصل عن أمم الهند على ذكر مختلف الفرق والطوائف والمذاهب . ثم قال عن أهل الصين بأنهم أحسن الناس سياسة وأكثرهم عدلاً وأحذقهم في الصناعات ولا سيما في النقش والتصوير .

(١) المختصر ٤١/١

(٢) المختصر ٥٣/١

(٣) المختصر ٥٩/١ و ٨٦

كان أبو الفداء يكتفي بالصفات العامة التي اشتهرت بها مختلف الأمم لانه لم يكن في استطاعته أن يعرف عنها تواريخ مظبوطة . لذلك نراه عندما يذكر بلاد « عاد » التي تعرف بالاحقاف يقول: « لقد كثر الاختلاف في أمرهم وجميع ما ذكر من ذلك مضطرب، غير قريب للصحة فأضربنا عنه »(١) . وعند ذكر ملوك كندة يروي قصة أمرىء القيس التي ورد فيها أن ملك الروم دس له السم في حلة فقال : « وهذا عندي من الخرافات» (٢) .

وفي الحقيقة كان أبو الفداء يتحاشى دوماً رواية القصص الخرافية التي كانت تزخر بها كتب المؤرخين المعاصرين له والتي كان يجهر بكافحتها . وقد نقل عن ابن الاثير أن الناس بالموصل في سنة « ٦٠٠ » أصابهم وجع في حلوقهم فشاع أن امرأة من الجن يقال لها أم عنقود مات ابنها وأن كل من لا يعمل مأتماً يصيبه هذا المرض فكان النساء وأوباش الناس يلطمون على عنقود ويقولون : يا أم عنقود اعذرينا ، قد مات عنقود وما درينا. ثم يضيف أبو الفداء قائلاً : « وإنما أوردنا هذا لان رعاع الناس الى يومنا هذا وهو سنة « ٧١٥ » يقولون بأم عنقود وحديثها ، ليعلم تاريخ هذا الهذيان متى كان »(٣) .

بقدر ما كان ابو الفداء يعرض عن رواية الاساطير والخرافات والقصص العجيبة كان يحرص على الاكثار من الاخبار والابحاث العلمية . هكذا عندما ذكر في حوادث سنة (٢٥٩) وفاة محمد بن موسى بن شاكر احد الاخوة الثلاثة الذين يقول « انه كانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكان الغالب عليهم الهندسة والحيل (اي الميكانيك) والموسيقى ، اخذ يبحث في المهمة التي عهد بها اليهم الخليفة المأمون وهي تحقيق ما ورد في كتب الاوائل عن دور الارض (اي محيطها) . فشرح بالتفصيل كيف ساروا الى صحراء سنجار ومسحوا طول الدرجة فظهر انها ٥٦ ميلا وثلثا الميل ، ثم قارن ذلك بما اثبته (بطليموس) في كتاب المجسطي « ان التفاوت يبلغ عشرة اميال وان ذلك انما يرجع الى الخلل في العمل إذ لا يمكن الاحتراز عن المساهلة والمسامحة تارة في استقامة المشي وتارة من جهة الدرع وغير ذلك » وفي الاخير يعلق ابو الفداء على بعض ما نقله احد المؤرخين « من ان الذي وجد في ايام المأمون لحصة الدرجة ستة وستون ميلاً وثلثا الميل » قائلاً :

(١) المختصر ١٠٣/١
(٢) المختصر ٧٩/١
(٣) المختصر ١٩٤/٢

وهذا غير صحيح . فان ذلك هو حصة الدرجة على رأي القدماء . واما في ايام المأمون فقد وجد ان حصة الدرجة ستة وخمسون ميلا وثلثا ميل وبضرب هـذه الامثال في ثلاثمائة وستين وهي درجات الفلك يكون الحاصل (٢٤) الف ميل وقد تحقق ذلك في علم الهيئة . (١)

ولما سجل أبو الفداء بين حوادث سنة « ٦٤٩ » وفاة الشيخ علم الدين قيصر بن أبي القاسم المعروف بتعاسيف وصفه بأنه كان اماماً في العلوم الرياضية وأنه اشتغل بالديار المصرية والشام ثم سار الى الموصل وقرأ على الشيخ كمال الدين موسى بن يونس علم الموسيقى ثم عاد الى الشام وتوفي بدمشق (٢) وكان قبل ذلك عند ترجمة حياة الملك المظفر تقي الدين محمود بن المنصور قال عنه انه كان يحب أهل الفضائل والعلوم وانه استخدم الشيخ علم الدين قيصر الذي بنى له أبراجاً بحماة وطاحوناً على النهر العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة ، وعملت هذه الكرة بحماة ، وقال القاضي جمال الدين بن واصل : « وساعدت الشيخ علم الدين على عملها . وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ويسأل عن مواضع دقيقة فيها » (٣)

ويذكر المؤرخون أن الامبراطور « فريدريك الثاني » كان ، بعد رحيله من القدس ، بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضية فعرضها الملك على الشيخ علم الدين الذي كتب جوابها (٤) .

ويبدي أبو الفداء اهتماماً كبيراً بالمدارس فيذكر مثلاً كيف ابتدأ الوزير نظام الملك بعمارة المدرسة النظامية في بغداد سنة « ٤٥٧ » وفرغ من ذلك سنة « ٤٥٩ » ، « ١٠٦٧ ميلادية » وتقرر التدريس بها للشيخ أبي اسحق الشيرازي وكيف اجتمع الناس يوم الافتتاح لحضور الدرس ولكن تأخر الشيخ أبو اسحق لانه سمع شواذاً ان

(١) المختصر ٢/ ٥٢ ، تقويم البلدان ص١٤

(٢) المختصر ٣/ ١٩٥

(١) المختصر ٣/ ١٨١

(٤) المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . طبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٤/ ص٢٣٢

أرض المدرسة مغصوبة وكيف تول الشيخ يوسف بن الصباغ إلقاء الدروس بها مدة عشرين يوماً ثم اجتهدوا بأبي اسحق حتى قبل التدريس بها (١) .

كانوا المؤرخون العرب قد بدأوا منذ صدر الاسلام يهتمون بتراجم أحوال الصحابة والتابعين ورواة الحديث فنشأت كتب « الطبقات » الأولى لهؤلاء ثم اتسعت دائرة الاهتام فشملت الفقهاء والمتصوفين والنحاة والشعراء والأدباء والفلاسفة والأطباء وغيرهم.وفي هذا الصدد أبدى المستشرق النمساوي« شبرنغر Sprenger الملاحظة التالية: « من المبادىء الاساسية النبيلة عند العرب والمسلمين احترام الذات والكرامة الشخصية فان لكل فرد قيمته ومكانته ، لذلك فان الكتب التي ألفها المسلمون في التراجم والانساب تفوق في عددها كل ما كتبته الامم الاخرى السابقة والمعاصرة لهم معاً . »

ولم يقتصر الامر على كتب التراجم، بل ان التواريخ العامة و بالأخص الحوليات جميعا تشتمل على تراجم حياة الكثيرين من « الأعيان » . ومثل غيره من الحوليات كان ابو الفداء أيضا يذكر ضمن حوادث كل سنة المشاهير الذين ماتوا فيها . الا ان هناك فرقا بينه وبين اكثر المؤرخين الذين كانوا يحشرون اكبر عدد ممكن من اسماء الاشخاص سواء كانوا بارزين حقاً أو مجرد مشتغلين بالقراءة والحفظ أو الخطابة والوعظ أو الفقه والقضاء ، فقد كان أبو الفداء يقتصر على الشخصيات البارزة من كبار علماء اللغة والادباء والشعراء وكان يؤثر على الأخص الاطباء والفلاسفة .

كان أبو الفداء بارعاً في تصوير حياة هذه الشخصيات بكلمات قليلة تبرز الصفات المميزة ، كما كان يروي عن أبطاله بعض القصص والاشعار التي تعكس البيئة والظروف التاريخية ولا تخلو أحيانا من نكتة ظريفة أو دعابة لطيفة .

هكذا كتب أبو الفداء ترجمات وافية ، جيدة لأبي بكر الرازي والفارابي وابن سيناء ونصير الدين الطوسي ثم للشافعي والاشعري وسيبويه والفرا والجاحظ . وفدلكم باسهاب عن الامام فخر الدين الرازي الذي يقول عنه إنه كان أوحد زمانه في المعقولات والاصول ويروي كيف ثار عليه فقهاء الكرامية.والحنفية بهراة في ماوراء النهر ونسبوه الى الزندقة ومذهب الفلاسفة فاضطر الى الاتصال بصاحب غزنة ثم بالسلطان خوارزم

(١) المختصر ٢/١٩٤ — ١٩٥

شاه اللذين حظي لديها وينقل من نظم فخر الدين الرازي الابيات التالية (١) :

نهاية إقدام العقول عقال
وأكثر سعي العالمين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا
وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا
سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ويروي أبو الفداء قصة أمين الدولة ابن التلميذ الذي كان طبيب دار الخلافة في عهد المقتفي ويصفه بأنه كان حاذقاً ، فاضلاً ، ظريف الشخص ، عالي الهمة ، يصيب الفكر ويقول عنه إنه كان شيخ النصارى وقسيسهم وله في الادب يد طولى وكان متفنناً في العلوم وخلف تصانيف حسنة منها كتاب (القراباذين) وهو المعتمد عليه عند الاطباء . ومن معاصري ابن التلميذ ابو البركات بن ملكان الحكيم صاحب كتاب المعتبر في الحكمة وكان بينهما لتنافس كما يقع كثيراً بين أهل كل صنعة . وكان أبو البركات يهودياً ثم أسلم في آخر عمره . وكان متكبراً بخلاف ابن التلميذ الذي نظم فيه هذه الابيات :

لنا صديق يهودي ، حماقته
اذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب أعلى منه منزلة
كأنه بعد لم يخرج من التيه (٢)

وعند ذكر محمد بن عبد الملك بن زهر الاندلسي — الاشبيلي الذي كان فاضلاً في الادب وكان طبيباً مثل والده عبد الملك وجده الوزير والفيلسوف زهر ، يروي أبو الفداء هذين البيتين اللذين نظما في ابن زهر :

قل للوبا أنت وابن زهر
قد جزتما الحد في النكاية

(١) المختصر ٣/١٠١ — ١٠٢ و ١١٨
(٢) المختصر ٣/٤٥

ترفقـــا بالـــورى قليـــلا
في واحـــد منكـــما كفـــاية (١)

وفي حوادث سنة (٥٨٤) يذكر أبو الفداء وفـــاة محمد بن الكاتب المعروف بالتعاويذي الشاعر المشهور الذي شاعت قصائده في الغزل والنسيب والذي له غير ذلك أشياء حسنة أيضاً منها الابيات التي صنعها على إثر مصادرة جماعة من اهل الدواوين في بغداد وهي :

يا قاصداً بغداد جز عن بلدة
للجـــور فيهـــا زجرة وعتـــاب
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد
ســـدت على الراجي بها الأبواب
والنـــاس قد قامت قيامتهم فلا
أنســـاب بينهـــم ولا أسبـــاب
والمرء يسلمـــه ابوه وعرسه
ويخونـــه القـــرباء والأحبـــاب
لا شـــافع تغـــني شفاعتـــه ولا
جـــان له ممـــا جناه متـــاب (٢)

واخيراً يتعرض ابو الفداء في حوادث سنة ٦١٢ الى الوجيه المبارك بن أبي الازهر الذي اشتغل بعلم العربية وولي تدريس النحو بالمدرسة النظامية وكان حنبلياً ثم انتقل الى مذهب أبي حنيفة ثم صار شافعياً فقال فيه ابو البركات زيد التكريتي :

ألا مبلغ عني الوجيـــه رســـالة
وإن كان لاتجدي اليه الرســـائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل
وفارقتـــه إذ اعوزتك المـــآكل

(١) المختصر ٣ / ١٠٢
(٢) المختصر ٣ / ٨٠

وما اخترت رأي الشافعي تديناً
ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لاشك صائر
الى مالك فافطن الى ما أنت قائل(١)

قبل الحكم على قيمة كتاب أبي الفداء من الوجهة التاريخية العلمية لابد لنا من الاعتراف بأن (المختصر في تاريخ البشر) ينقصه الكثير من المزايا التي نجدها في كتاب ابن الأثير (الكامل في التاريخ) مثل تنوع المعلومات ووفرة الوثائق والتوازن بين مختلف العصور والاقاليم والتعليقات والتأملات حول الاحداث الهامة والاسلوب الجميل في عرض الوقائع بصورة متسلسلة ، متماسكة .

وفي الواقع لم يفكر أبو الفداء ، بادىء الأمر ، في تأليف كتاب شامل . فلم يضع مخططاً لأجزاء الكتاب وفصوله ولم يقصد توجيه الكلام الى القراء وشرح آرائه في احداث التاريخ . فهو انما قام بتدوين بعض التواريخ « تكون تذكرة له تغنيه عن مراجعة الكتب المطولة » . وقد كتب هذه المذكرات بأسلوب بسيط ، بل جاف ومختصر للغاية . ثم أخذ يسعى الى تمحيص الاخبار التي جمعها وحاول ربط بعضها ببعض .

وقد اختصر التواريخ القديمة في خمسة فصول تقع في « ١٠٠ » صفحة ثم أتبع ذلك بالتواريخ الاسلامية مرتبة على السنين وملخصة من ابن الأثير فخصص « ٣٤٠ » صفحة للمدة الطويلة منذ ظهور الاسلام حتى بداية الحروب الصليبية « أي مدة ٥٠٠ سنة » في حين أن الفترة التالية ومدتها « ٢٤٠ » سنة فقط قد شغلت « ٣٧٠» صفحة .

على الرغم من هذه العيوب فقد نال كتاب أبي الفداء شهرة واسعة سواء في العالم الاسلامي أو في بلاد الغرب . وفي حياة أبي الفداء نفسه أقدم بعض العلماء على كتابة ذيول له مثل ابن الوردي ثم ابن حبيب الدمشقي وابن الشحنة الحلبي . وفي الغرب نشر قسم التواريخ الاسلامية مع ترجمة لاتينية منذ اوائل القرن الثامن عشر ثم نشر القسم الأول في القرن التاسع عشر مع ترجمات لاتينية وفرنسية وانكليزية . وفي سنة ١٨٥٦ ترجم الكتاب في الهند الى لغة الاوردو .

(١) المختصر ٣ / ١٢٣

السبب في هذا التقدير هو أن أبا الفداء استطاع اختصار مجموعة من الكتب التاريخية القيمة ضاع بعضها وألف منها خلاصة مكثفة ، منقحة . واذا كان الباحثون في الوقت الحاضر لم يعودوا يرجعون الى كتاب المختصر في تاريخ البشر كمنبع للمعلومات عن العصور القديمة والاسلامية الاولى بعد أن نشرت المصادر الأصلية ، المفصلة ، فان الفصول الاخيرة من الكتاب ، المتعلقة بالعصر الذي عاش فيه المؤلف ولا سيما زمن الحروب الصليبيـة وعهد الأيوبيين والخوارزميين والتتر والمماليك ، مازالت تستحق كل اهتمام لان قسماً كبيراً من حوادث هذه الفترة قد شاهدها أبو الفداء بنفسه واشترك فيها مباشرة ، مثل حصار قلعة المرقب(١) وحصار طرابلس(٢) ، أو اطلع عليها من الشهود المعاصرين وقد أحسن وصفها بأسلوب مبين ، واضح ، دقيق ، بعيد عن التزويق والتنميق ، عدا انه كان شديد الحرص على ضبط التواريخ وتحديد أوقات الحوادث بذكر اليوم من الشهر القمري والشمسي معاً في كثير من الاحيان . ثم ان أبا الفداء يمتاز باقتصاره على الشؤون الهامة التي يعرضها بطريقة موضوعية ، حيادية . ولعل من أهم العوامل التي دفعت المستشرقين الى الاعتماد على كتاب المختصر في تاريخ البشر هو التزام المؤلف بهذه الطريقة حتى عندما يسرد حوادث الحروب الصليبيـة دون أن يبدو عليه شيء من التعصب والانحياز . .

لقد كان أبو الفداء يتمسك بالحياد وقول الحق حتى عندما يتكلم على أقاربه من أمراء الايوبيين . فنراه مثلاً لا يتردد في وصف الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص بأنه كان عسوفاً لرعيته (٣) . في حين أن مؤرخاً آخر كتب بعد أبي الفـداء يقول عن شيركوه انه كان من احسن الملوك سيرة ، طهر بلاده من الخمور والمكوس والمنكرات ، فكانت في غاية الأمن والعدل ، لا يتجاسر أحد من الفرنج ولا العرب (البدو) أن يدخل بلاده الا أهانه غاية الاهانة (٤) . واذا كنا لا نستغرب من شيخ مثل ابن كثير أن يمدح صاحب حمص ، للاسباب التي اشار اليها ، فهل نتهم أبا الفداء بأنه قد تأثر بعلاقات التنافس المشهورة

(١) المختصر ٤ / ٢٢

(٢) المختصر ٤ / ٢٤ — ٢٥

(٣) المختصر ٣ / ١٧٣

(٤) عماد الدين بن كثير : البـداية والنهاية في التاريخ — طبعة القاهرة ١٣٥٨ المجلد ١٣ صفحة ١٥٤ .

بين حمص وحماة فتحامل على جاره ؟ ولكن يبدو أن أبا الفداء كان على حق في وصف قريبه بالتعسف اذ نرى المؤرخ (ابن واصل) ايضاً يقول عن الملك المجاهد شيركوه « أنه كان عنده حيف وعسف وانه خرب بذلك حمص وأطرافها فتفرق اهلها في البلاد »(١) .

ويمكن أن نلمس روح الحياء والانصاف لدى أبي الفداء في انتقاده للمؤرخ المشهور أبي الفرج ابن الجوزي الذي كان كثير الوقيعة في العلماء ويضرب أبو الفداء مثلاً على ذلك تهجمه على عبد الكريم السمعاني صاحب كتاب (الأنساب) ثم يقول : « وانما ذنب السمعاني عند ابن الجوزي هو أنه شافعي. فان ابن الجوزي لم يبق على احد غير الحنابلة»(٢).

ان نزعة أبي الفداء العلمية وطريقته الانتقادية ، الموضوعية ، الحيادية — كل ذلك يدفعنا الى أن نهتم بشخصية هذا العبقري وندرس آثاره ولبين قيمتها العلمية ونبرز مكانته في تاريخ الحضارة البشرية ...

---

(١) المقريزي ، كتاب السلوك صفحة ٣٢٥ .
(٢) المختصر ٣ / ١٠٦ .

أبو الفداء وتعليل التاريخ

الدكتور عمر فروخ

اذا استعرض الباحث كتب التاريخ العامة ، ابتداء بكتاب « فتوح البلدان » البلاذري (ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) وانتهاء بالكتاب العظيم «كتاب العبر» لابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥) – على ما بين هذه الكتب من تفاوت في الشمول أو الصحة أو الدقة أو المكانة – فان هذا الباحث ليعجب أن يرى كتاب «المختصر في أخبار البشر» لابي الفداء (ت ٧٣٢ هـ = ١٣٣١) يبرز بروزاً واضحاً ثم يكثر الاهتمام به منذ أيام

أبي الفداء الى ايامنا نحن . فكيف استحق هـذا الكتاب الصغير المختصر أن يثبت على اختلاف نزعات القراء وتباين معايير المؤرخين ؟

اذا كانت الشهرة حظوظاً، كما يقول ابن رشيق القيرواني (ت ٤٦٣ ﻫ = ١٠٧١ م)، فان ذلك حكم يصدق في الأدب الذي عناه ابن رشيق ولا يصح في البحث العلمي الذي نحن بسبيله . إن المعانين للادب إنشاء وتأريخاً ومناقشة لا يستطيعون — لطبيعـة الأدب شعراً في الأكثر ونثراً في الاقـل — أن يخضعوا مناهجهم وأحكامهم للدقة والثقة اللتين تخضع لها العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية على كثرة ثم العلوم الاجتماعية كالتاريخ والسياسة والاقتصاد على قلة . واذا أنا أتيت بهـذه الموازنة هنا — بين كتب العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية من جانب وكتب العلوم الاجتماعية والادبية من جانب آخر — فلان كتاب « المختصر في أخبار البشر » لأبي الفـداء من أقرب كتب التاريخ ، وهي ميدان البحث هنا ، الى نطاق العلم .

ان معظم المؤلفين في معظم فروع المعرفة يذكرون في مقدمات كتبهم غاياتهم من تأليف كتبهم ثم يبسطون أشياء من المنهاج الذي يريدون أن يتناولوا بـه الموضوعات التي سترد في كتبهم . لقد فعل ذلك عبد الله بن المقفع (ت ١٤٢ هـ = ٧٤٩ م) في كتابه « كليلة ودمنة » أول الكتب المؤلفة التي وصلت الينا، ثم ما زال يفعل ذلك كل مؤلف الى أيامنا هذه ، وان كان كتابه أحياناً لا يحتاج الى بسط لسبب تأليفه . جاء في مقدمة الحلقة الثانية عشرة من سلسلة أعلام العرب: « القلقشندي في كتابه صبح الاعشى: عرض وتحليل » بقلم الدكتور عبد اللطيف حمزة(١) ما يلي (ص ٣ — ٤) :

« ان ثقافتنا العربية .... خليقة بأن يعنى بها ... بحيث نعتبر أنفسنا آثمين في حق عروبتنا اذا نحن تركنا تراثنا العربي القديم مكتوباً بخطوط أصحابه وأعلامه معروضاً بطريقتهم التي كانت ملائمة للعصر الذي عاشوا فيه . ومن هنا يدعونا داعي العروبة ، من آن لآن ، الى أن نعمد الى هذا التراث فنقوم بنشره .... ثم لا يكفينا نشر هذا التراث القديم .... حتى نأخذ في عرضه كذلك بطريقة حديثة تلائم أذواق الجيل الذي نحن فيه ، وللاجيال التي تأتي بعدنا أن تفعل فعلنا » .

(١) عبد اللطيف حمزة .

ومع أن هذا الرأي من الدكتور عبد اللطيف حمزة يحتمل الجدل ، فانه بلا ريب يمثل اتجاهاً له مبرراته في أحوال كثيرة .

تعليل التاريخ — أو فلسفة التاريخ ، كما يقول الكتاب الغربيون — منهج وضعه على الاسس العلمية عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ = ١٤٠٥ م) لم يسبقه الى ذلك سابق في الشرق وفي الغرب . ان فيقو الايطالي (١٦٦٨ — ١٧٤٤ م) ، وقد ولد بعد وفاة ابن خلدون بقرنين ونصف قرن ، لما وضع كتابه في تعليل التاريخ سماه « العلم الجديد »(١) . ومعنى هذا أن هذا العلم « تعليل التاريخ » كان جديداً في الغرب الاوروبي . ولم يدر فيقو أن العالم المسلم عبد الرحمن بن خلدون قد سبقه الى أحسن آرائه وأتم(٢) قبل قرنين ونصف قرن من الزمن .

ومن الحق أن يسمى هذا العلم « مصطلح التاريخ » كما سماه الدكتور أسد رستم (ت ١٩٦٥ م) وجعله مبنياً على « مصطلح الحديث »(٣) . ان العلماء المسلمين ، لما بدأوا يروون أحاديث رسول الله منذ أيام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ — ٧٩٥ م) ، قد حرصوا على الاستيثاق من عدالة رجال السند وعلمهم ومن صحة المتن أو كلام الرسول المروي . وقد وضع علماء الحديث في الازمنة المتعاقبة قواعد وشروطاً تحدد المنهج العلمي المثالي في هذا الباب وتقيدوا نظرياً وعملياً بتلك الشروط تقيداً تاماً . ان

---

(١) Principi de una scienza nuova d intorna alla natura delle natione (Napoli , ottobre 1725 =
مبادىء علم جديد تتصل بطبيعة الأمم (نابولي ، تشرين الأول — اكتوبر عام ١٧٢٥م).

(٢) راجع « دراسات عن ابن خلدون » ، تأليف ساطع الحصري (الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٣) ص ١٨٩ وما بعده ، ثم ١٩٤ وما بعد ثم ١٩٩ : « يتبين من التفاصيل التي ذكرناها آنفاً أن ابن خلدون يتفوق على فيكو تفوقاً كبيراً ، من حيث شمول النظر ونزعة التعمق وطريقة البحث والاستقراء..واذا اخذنا فرق الزمن بنظر الاعتبار فاننا نضطر الى التسليم بأن رجحان كفة ابن خلدون في ميزان المفاضلة يصبح أكثر بروزاً وأشد بداهة . ان مقدمة ابن خلدون كتبت سنة ١٣٧٧ للميلاد في حين أن « العلم الجديد » نشر سنة ١٧٢٥ .» (١٩٩ — ٢٠٠) .

(٣) مصطلح التاريخ ، وهو بحث في نقد الاصول وتحري الحقائق التاريخية وايضاحها وعرضها ، للدكتور أسد رستم (المطبعة الاميركية في بيروت ١٩٣٩) .

رواية الحديث في الاسلام لم تكن من باب العلم والتاريخ فحسب ، بل كانت من الامور الدينية فان الكذب في رواية حديث رسول الله مع العمد يخرج صاحبه من الاسلام ويبوئه مقعداً من نار جهنم(١) . ويحسن أن أورد هنا مقطعاً من كتاب « مصطلح التاريخ» للدكتور أسد رستم « المقدمة ، الصفحة و – ز » :

« والواقع أن الميثودولوجية(٢) الغربية التي تظهر اليوم لاول مرة بثوب عربي(٣) ليست غريبة عن علم مصطلح الحديث بل تمت اليه بصلة قوية. فالتاريخ دراية ورواية كما أن الحديث دراية ورواية . والقواعدالتيوضعها الأئمة منذ قرونعديدة للتوصل الى الحقيقة في الحديث تتفق في جوهرها واتجاهها والانظمة التي اكتشفها علماء أوروبا فيما بعد في بناء علم الميثودولوجية ولو أن مؤرخي اوروبة في العصور الوسطى والعصور الحديثة اطلعوا على مصنفات الأئمة المحدثين لما تأخروا في بناء علم المصطلح حتى أواخر القرن الثامن عشر . وبامكاننا أن نصارح زملاءنا في الغرب فنؤكد لهم بأن ما يفاخرون به من هذا القبيل نشأ وترعرع في بلادنا ، ونحن أحق الناس بتعليمه والعمل باسمه وقواعده».

استعرض الدكتور أسد رستم عدداً من أوجه التحقيق في عدد من كتب الحديث ثم توسع في الاستشهاد برسالة للقاضي عياض بن موسى بن عياض المغربي السبتي « ٥٤٤ هـ — ١١٤٩ م » عالم المغرب وامام اهل الحديث في وقته. هذه الرسالة تتعلق بالمصطلح فيالحديث وقد مدحها الدكتور رستم كثيراً واثنىعلىمؤلفها وأكثر الاستشهاد بفقراتها وتمنى أن يوفق في نشرها ، ولكن الفرصة لم تواته .

* * *

(١) في الحديث الشريف: «من كذب علي عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

(٢) الميثودولوجية : طريقة للبحث على أسس معينة .

(٣) يشير الدكتور أسد رستم الى أنه أول من عالج هذا الموضوع الغربي « بالفنون المعجمة » في اللغة العربية .

ونأتي الآن الى تلمس اشياء من أوجه تعليل التاريخ عند أبي الفداء .

لم يضع أبو الفداء نظرية في تعليل التاريخ ، ولكنه جاء في مقدمة كتابه «المختصر في تاريخ البشر » . وفي ثناياه بعدد من الآراء والاحكام والتحقيقات والموازنات مما يعد في باب تعليل التاريخ على الحصر . ويحسن أن نشير هنا الى أن أبا الفداء توفي سنة ٧٣٢ للهجرة ، في السنة التي ولد فيها عبد الرحمن بن خلدون .

وبما أن أبا الفداء قد اعتمد كتاب « الكامل في التاريخ » لابن الأثير « ت ٦٣٠ هـ ١٢٣٣ م » في الاخبار السابقة على زمانه ، كما كان ابن الاثير قد اعتمد في الاخبار السابقة على زمانه « تاريخ الرسل والملوك »(١) . للطبري « ت ٣١٠ هـ — ٩٢٣ م » . فيحسن أن أجيء هنا بغاية كل مؤلف من هذين المؤلفين من تأليف كتابيهما قبل أن اتوفر على الكلام على تعليل التاريخ عند أبي الفداء .

قال الطبري في مقدمة تاريخه(٢) :

« وأنا ذاكر في كتابي هـذا من ملوك كل زمان من ابتداء ربنا جل جلاله خلق خلقه ...من انتهى الينا خبره.. من رسول له مرسل أو ملك مسلط او خليفة مستخلف.. وجمل ما كان من حوادث الامور في عصره وأيامه ، اذ كان الاستقصاء(٣) في ذلك يقصر عنه العمر وتطول به الكتب.... ولم نقصد بكتابنا هذا قصد الاحتجاج لذلك(٤) بل لما ذكرنا من تأريخ الملوك الماضين وجمل من اخبارهم وأزمان الرسل والأنبياء ومقادير أعمارهم وأيام الخلفاء السالفين وبعض سيرهم ومبالغ ولاياتهم والكائن الذي كان من الأحداث في أعصارهم . ثم اني متبع اخر ذلك كله .... ذكر صحابة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .... ثم متبعهم ذكر من كان بعدهم من التابعين (٥) على نحو ما شرطنا من ذكرهم.

---

(١) يعرف أيضاً بعنوان « تاريخ الامم والملوك » .

(٢) طبعة ليدن « مصورة خياط ، بيروت ١٩٦٥ » ص ٥ — ٧ .

(٣) الاستقصاء : تتبع الحوادث في أقصى تفاصيلها أو جمع جميع الحوادث .

(٤) لم نقصد الاحتجاج لذلك : أقامة الحجة (الدليل) على صحة ما أوردناه من الحوادث .

(٥) التابعون : الذين لم يدركوا رسول الله ولكن أدركوا أصحاب رسول الله

ثم ملحق بهم ذكر من كان بعدهم من الخلف لهم وزائد في أمورهم للابانة عمن حمدت منهم روايته وتلقت أخباره ومـن رفضت منهم روايته ونبذت أخباره ، ومن وهن منهم نقله وضعف خبره والسبب الذي من اجله نبذ من نبذ منهم خبره والعلة التي من أجلهـا وهن من وهن منهم نقله .....

« وليعلم الناظر في كتابنا هذا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه مما شرطت أني راسمة فيه إنما هو على مارويت من الاخبار التي أنا ذاكرها فيه والاثار التي أنـا ذاكرها فيه والاثار التي أنا مسندها الى رواتها فيه دون ماادرك بحجج العقول واستنبط(١) بفكر النفوس الا اليسير القليل منه ، اذا كان العلم بما كان من أخبار الماضين وما هـو كائن من أنباء الحادثين غير واصل الى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم الا باخبار المخبرين ونقل الناقلين دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النفوس . فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وانما أتي من قبل بعض ناقليه إلينا ، وأنا أدينا ذلك على نحو ماأدي إلينا » .

وقال ابن الأثير (٢):

« اني لم أزل محبا لمطالعة كتب التواريخ ومعرفة مافيها ، مؤثرا للاطلاع على الجلي من حوادثها وخافيها ، مائلا الى المعارف والاداب والتجارب المودعة في مطاويها . فلما تأملتها رأيتها متباينة في تحصيل الغرض يكاد جوهر المعرفة بها يستحيل الى العرض : فمن بين مطول قد استقصى الطرق والروايات(٣) ومختصر قد أخل بكثير مما هو آت . ومع ذلك فقد ترك كلهم العظيم من الحادثات والمشهور من الكائنات ، وسود كثير منهم الأوراق بصغائر الأمور التي (كان) الإعراض عنها أولى وترك تسطيرها أحرى...وقد أرخ كل منهم الى زمانه . (ثم) جاء بعده من ذيل عليه وأضاف المتجددات بعد تاريخه اليه . والشرقي منهم قد أخل بذكر أخبار الغرب ، والغربي قد أهمل أحوال الشرق . فكان الطالب اذا

(١) استنبط : استخرج .

(٢) الكامل في التاريخ (نشر دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م) ، ١ ص ٢-٦ .

(٣) استقصى الطرق والروايات ، استقصى الروايات (حاول جمع كل الحوادث التي وصلت اليه على صور مختلفة) بالطرق المختلفة (من طرق الرواة المتعددين) .

أراد أن يطالع تاريخاً متصلا الى وقته يحتاج الى مجلدات كثيرة وكتب متعددة مع ما فيها من الاخلال والاملال .

فلما رأيت الامر كذلك شرعت في تأليف تاريخ جامع لأخبار ملوك الشرق والغرب وما بينها ليكون تذكرة لي أراجعه خوف النسيان ، وآتي فيه بالحوادث والكائنات من أول الزمان متتابعة يتلو بعضها بعضاً الى وقتنا هذا .

« ولا أقول إني أتيت على جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ ، ... ولكني أقول انني قد جمعت في كتابي هذا ما لم يجتمع في كتاب واحد ...

« فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الامام أبو جعفر الطبري اذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف اليه . فأخذت ما فيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة منها . وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها ، وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه . فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت اليها من غيرها ما ليس فيها وأودعت كل شيء مكانه ، فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقاً واحداً .

« فلما فرغت منه (١) أخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها الى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه . ووضعت كل شيء منها موضعه ، الا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فاني لم أضف الى ما نقله أبو جعفر (٢) شيئاً الا ما فيه زيادة بيان أو اسم انسان أو ما لا يطعن على أحد منهم في نقله . وانما اعتمدت عليه من بين المؤرخين اذ هو الامام المتقن حقاً الجامع علماً وصحة اعتقاد وصدقا .

« على أني لم أنقل الا من التواريخ المذكورة (٣) والكتب المشهورة ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه . ولم أكن كالخابط (٤) في ظلماء الليالي ولا كمن يجمع الحصباء واللآلي (٥).

---

(١) فلما فرغت منه: لما انتهت الحوادث المذكورة في كتاب « الكامل في التاريخ».
(٢) أبو جعفر : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .
(٣) المذكورة : المحمودة ، الموثوقة .
(٤) الخابط : الذي يسير على غير هدى .
(٥) الحصبا : صغار الحجارة . اللآلي جمع لؤلؤة . كمن يجمع الحصباء واللآلي : كمن يجمع الاشياء الثمينة والاشياء التافهة (يعالج الأمور بغير معرفة) .

« على أني مقر بالتقصير ، فلا اقول ان الغلط سهو جرى به القلم ، بل أعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم . وقد سميته اسماً يناسب معناه : الكامل في التاريخ .

وقال أبو الفداء (١) :

« انه سنح لي أن أورد في كتابي هذا شيئاً من التواريخ القديمة والاسلامية يكون تذكرة يغنيني عن مراجعة الكتب المطولة فاخترته واختصرته من الكامل لابن الاثير الجزري ومن تجارب الامم لابن مسكويه (٢) ومن تاريخ أبي عيسى (٣) أحمد بن علي المنجم المسمى بكتاب البيان عن سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان (٤) ومن التاريخ المظفري (٥) للقاضي شهاب الدين بن أبي الدم الحموي ، ومن تاريخ القاضي ابن خلكان المسمى وفيات الاعيان (٦) ومن تاريخ اليمن للفقيه عماره (٧) ومن تاريخ القيروان المسمى بالجمع والبيان للصنهاجي (٨) ومن تاريخ الدول المنقطعة

(١) تاريخ الملك المؤيد اسماعيل أبي الفـداء صاحب حماة (المختصر في اخبار البشر) ، القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ٤-٢ : ١

(٢) ابن مسكويه (ويقال أيضاً : مسكويه) ، أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١ هـ) ، له كتاب « تجارب الامم وتعاقب الهمم » (وهو مطبوع) .

(٣) أبو عيسى احمد بن علي المنجم (لم أهتـد الى شيء عنه ولا الى شيء عن كتابه المذكور) .

(٤) على سبيل الحجة والبرهان (يبدو إنه كان فيه تحقيق لحساب التواريخ ولأزمان الحوادث) .

(٥) أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله بن أبي الدم الحموي (ت٦٤٢ هـ) له التاريخ المظفري (وهو تاريخ مبسوط مفصل للشعوب الاسلامية في ستة مجلدات (موجـود (وقد طبعت أقسام منه) .

(٦) ابن خلكان (ت ٦٨١ هـ) ، وكتابه « وفيات الاعيان » طبع مراراً .

(٧) ابو محمد عمارة بن أبي الحسـن علي بن زيدان اليمني (ت ٥٦٩ هـ) ، له « تاريخ اليمن » (وهو مطبوع) .

(٨) أبو محمد عبدالعزيز بن شـداد الصنهاجي (ت بعد ٥٤٠ هـ) له « كتاب الجمع والبيان في أخبار القيروان فيما وفي سائر بلاد المغرب من الملوك والأعيـان » وبعضه منشور) .

لابن أبي منصور (١) ومن تاريخ علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي الاندلسي المسمى لذة الاحلام في تاريخ أمم الاعجام ومن كتاب ابن سعيد المذكور (٢) المسمى بالمغرب (٣) ومن مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل (٤) ومن تاريخ حمزة الاصفهاني (٥) ومن تاريخ خلاط (٦) تأليف شرف بن ابي المطهر الانصاري ومن سفر قضاة بني اسرائيل وسفر ملوكهم (٧) وألفت التواريخ القديمة من هذا الكتاب على مقدمة وخمسة فصول . وأما التواريخ الاسلامية (٨) فرتبتها على السنين حسب تأليف الكامل لابن الاثير . ولما تكامل هذا الكتاب سميته المختصر في أخبار البشر » .

في هذا المقطع من مقدمة كتاب « المختصر » اربعة امور : صنع نسخة موجزة تجمع التاريخ القديم والتاريخ الاسلامي ليستخدمها المؤلف — اعتماد ابي الفداء كتاب الكامل لابن الاثير وكتباً اخرى سماها — الاهتمام بضبط الحوادث من حيث وقوعها وتفاصيلها ومن حيث زمانها .

(١) لم أهتد الى شيء عن ابن ابي منصور ولا عن كتابه .

(٢) علي بن موسى المعروف بابن سعيد المغربي (ت ٦٨٥ هـ) لم أهتد الى شيء عن كتابه « لذة الأحلام » .

(٣) يرد في كتاب نفخ الطيب لابن سعيد المغربي هذا مرة « المغرب في حلى المغرب » ومرة « المغرب في اخبار المغرب » — وفي ما أخذ ابو الفداء في « المختصر في أخبار البشر » وفي ما أخذ المقري في « نفخ الطيب » مايوحي بأننا أمام كتابين مستقلين لا أمام كتاب واحد يعرف بعنوانين . هذا موضوع يحتاج الى دراسة مستقلة .

(٤) جمال الدين أبو عبدالله محمد بن سالم ابن واصل الحموي (ت ٦٩٧ هـ) له كتاب « مفرج الكروب في أخبار بني ايوب » (وهو مطبوع) .

(٥) أبو عبدالله حمزة بن الحسن الاصفهاني (ت قبيل ٣٦٠ هـ) له كتاب « تواريخ سني ملوك الارض والانبياء » (وقد طبعت مختارات منه) .

(٦) لم اهتد الى شيء عن تاريخ خلاط هذا .

(٧) سفر قضاة بني اسرائيل وسفر ملوك بني اسرائيل (راجع الكلام عليها في المتن ، ص) .

(٨) التواريخ الاسلامية : الاحداث التاريخية بعد مجيء الاسلام .

ذكر منهاج العمل . وفي ما يلي تفصيل هذه الامور ونقدها :

١ — ان الغاية الرئيسية من تأليف « المختصر » كانت رغبة ابي الفداء في انشاء تذكرة (نسخة موجزه : مختصرة) للتواريخ القديمة (الاحداث التي وقعت قبل مجيء الاسلام) وللتواريخ الاسلامية (الاحداث التي وقعت بعد مجيء الاسلام) ليستخدمها ابو الفداء شخصياً فيرجع اليها كلما احتاج الى مراجعة شيء من احداث التاريخ بدلاً من ان يرجع الى الكتب المطولة .

هذه الغاية (اختصار كتب التاريخ المطولة في مجلد واحـد صغير) بعيدة عن الامكان وعن العمل المعقول. وأبعد من ذلك عن العقل أن يكون المجلد المختصر للاستخدام الشخصي ، ذلك لأن الجهد المبذول فيه أعظم جداً من النفع المرتجى منه . ولا ريب في أن أبا الفداء قد قلد في ذلك ابن الأثير لأن ابن الأثير كان قد ادعى أيضاً أنه ألف تاريخاً في اثني عشر جزءاً (نحو سبعة آلاف وخمسمائة صفحة) ليكون تذكرة له يراجعه خوف النسيان (١ : ٢) .

غير أن ذكر هذه الغاية يخط أمام أعيننا منهج أبي الفداء في التأليف ويكشف لنا عن مدركه للتاريخ : أترى التاريخ عند أبي الفداء حوادث مادية متفرقة يمثل منها « ما حدث » فقط ، أم التاريخ سلسلة متعاقبة من الأحداث ترسم أمام عيوننا صورة لتطور البيئة الاجتماعية بكل ما في تلك البيئة من النشاط الانساني .

يبدو لنا أن أبا الفداء لم يستطع أن يفي بالشرط الذي شرطه على نفسه من إنشاء مختصر صحيح للتاريخ الانساني ، قبل الاسلام وبعد مجيء الاسلام ، ذلك لأن أحداث الحياة سبقته حينما أصبح أميراً على حماة ثم ملكاً ، فلم يستطع أن يملأ السنين بما وقع فيها من الأحداث . من أجل ذلك رأيناه يؤرخ في سبع صفحات من الجزء الثاني (ص ١٣ — ١٩) لثلاث وعشرين سنة فيقول مثلاً (٢ : ١٨): ثم دخلت سنة ثمان وثمانين ومائة فيها توفي العباس بن الأحنف الشاعر . . . ثم دخلت سنة احدى وتسعين ومائة (٢ : ١٩) (ولم يذكر فيها شيئاً) ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ومائة : فيها سار الرشيد من الرقة الى خراسان فنزل ببغداد ورحل عنها الى النهروان لخمس خلون من شعبان واستخلف على بغداد ابنه الأمين . ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين ومائة .....
(٢ : ١٩) . فلا ريب عندنا في أن في هذا النوع من الاختصار إخلالاً شديداً .

ولا شك في أن أبا الفداء كان يشعر أحياناً بالحاجة الى الاختصار الصحيح فيقول

مثلا (١ : ٨٢) : « وعدم مهلهل (فقد وضاعت أخباره) واختلف في صورة عدمه تركنا ذكره للاختصار ». ويقول أيضاً (١ : ٩٩ ص)، والبراهمة لا يقولون بالنبوات وينفونها بالكلية . ولهم على ذلك شبه (١) مذكورة في (كتاب) الملل والنحل (٢) لا تليق بهذا المختصر » . وينقل أبو الفداء شيئاً من اعتقاد اليهود في الآخرة ومن الثواب والعقاب في رأيهم ثم يستطرد الى ذكر الزنا في التوراة (١ : ٩١ — ٩٢) مما لا يتفق مع إرادة الاختصار .

٢ — ذكر ابو الفداء في المقدمة انه اختار كتابه « المختصر في اخبار البشر » من الكامل في التاريخ لابن الاثير (١ : ٢) . ثم انه قال (٣: ١٥٨) ، في اخبار سنة ٦٢٨ للهجرة : « وفي هذه السنة انتهى التاريخ الكامل تأليف الشيخ عز الدين بن علي المعروف بابن الاثير الجزري المنقول غالب هذا المختصر منه ، فانه الفه من هبوط آدم الى سنة ثمان وعشرين وستمائة » .

وذكر ابو الفداء في المقدمة ايضا انه اختصر في كتابه « المختصر » اخبارا من اثني عشر كتابا سماها (راجع ، فوق ، ص) ومن سفر قضاة بني اسرائيل و (السفر السابع في التوراة) ومن سفر ملوك بني اسرائيل (وهما سفران : الحادي عشر والثاني عشر في التوراة) . ومعظم الكتب التي أخذ منها ابو الفداء معروف ومطبوع وبعضهاطبع مراراً وبعضها طبع مختارات . غير ان اربعة من هذه الكتب لم اعرفها ، وهي (كما وصفها ابو الفداء) :

(أ) تاريخ ابي عيسى احمد بن علي المنجم المسمى بكتاب البيان عن تاريخ سني العالم على سبيل الحجة والبرهان ، وهو مجلد لطيف (١) .

(ب) تاريخ الدولة المنطقة لابن ابي منصور (٢) ، وهو نحو اربعة مجلدات .

(ج) تاريخ علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد المغربي الاندلسي المسمى كتاب لذة الاحلام في تاريخ امم الاعجام ، وهو نحو مجلدين .

---

(١) الشبه جمع شبهة : جدال فيه تشكيك بأدلة جانبية .

(٢) الملل والنحل الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) في الاغلب أو لابن حزم (ت ٤٥٦ هـ) .

(١-٢-٣) وما بعد راجع ، فوق ، ص . الحواشي :) .

(د) تاريخ خلاط (٣) تأليف شرف بن ابي المطهر الانصاري .

(هـ) ثم ان ثمة مجالا للبحث والتحقيق في كتاب « المغرب » لابن سعيد : أهو كتاب واحد : المغرب في حلى (او في اخبار) المغرب ، أم هو كتابان احدهما « المغرب في حلى المغرب » وثانيها « المغرب في اخبار المغرب » ؟ (١) ولكن تحقيق هذا هنا بعيد عن نطاق هذا المقال ، فانا هنا معني بمنهاج ابي الفداء في تعليل التاريخ لاعصار كتابه التي هي ، فيما أعتقد ، موضوع مستقل في برنامج هذا المهرجان .

وابو الفداء لم يكتف بالأخذ من المصادر التي سماها في مقدمة كتابه ، بل استعان بعدد آخر من المصادر نعرفها من الجمل التالية :

٧٥:١ ونقلت ذلك من مجموع بخط القاضي شمس الدين بن خلكان . ورأيت في تاريخ ابن الاثير خلاف ذلك .

٨٠:١ قال الشهرستاني : وعمرو بن لحي المذكور هو اول من جعل الاصنام على الكعبة ... وقد ذكر الشهرستاني ان ذلك كان في ايام سابور .

٨٥:١ انتهى النقل من كتاب العقد لابن عبد ربه .

ومن الصحاح (٢) الأمة الجماعة هو في اللفظ واحد وفي المعنى جمع .

٩١:١ قال الشهرستاني في الملل والنحل : هاد الرجل اي رجع وتاب ... انتهى كلام الشهرستاني .

من كتاب خير البِشر بخير البَشر (٣) قال فيه : وليس في التوراة ذكر القيامة .

---

(١) راجع شيئاً من مناقشة هذا الموضوع (باعتبار العنوانين لكتاب واحد): « المغرب في حلى المغرب » (حققه شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ١٩٥٣ م) ، ص ٢٣ وما بعد (من مقدمة المحقق) ؛ ثم راجع عدداً من ملاحظات الدكتور احسان عباس في حواشي « نفح الطيب (بيروت ، دار صادر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م) ١ : ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٣٧٢ ، ٣٣ .

(٢) الصحاح : تاج اللغة وصحاح العربية ، ويعرف أيضاً بعنوان الصحاح (وبعناوين أخرى) لأبي نصر اسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣ هـ) .

(٣) خير البشر (بكسر الباء وفتح الشين) بخير البشر (بفتح ففتح : محمد رسول الله) لابن ظفر الصقلي (ت ٥٦٥ هـ) .

٩٤:١ من كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، قال : والنصارى في تجسد الكلمة مذاهب .

٩٥:١ ومما نقلناه من كتاب نهاية الادراك في دراية الافلاك للخرقي (١) .

٩٩:١ ومما نقله المسعودي .

١٠٣:١ قال صاحب الاغاني (٢) : كان السبب في سكنى اليهود خيبر .

١٠٤:١ قال الشهرستاني في الملل والنحل .

١٠٦:١ وانشد بن عبد البر في كتاب الصحابة .

١١٣:١ كذا ذكر في العقد .

١١٨:١ فذكر صاحب السيرة (٣) وكثير من اهل العلم ان اول الناس اسلاما بعدها (بعد خديجة) علي بن ابي طالب .

من المستغرب جداً أن أبا الفداء قد اولى التوراة وأخبار التوراة عناية كبيرة : كان الطبري قد أتى في كتابه في التاريخ بجملة صالحة من أخبار بني اسرائيل ، ولكن استناد الطبري في ذلك كان الى آيات القرآن الكريم والى الاحاديث الشريفة (فيما يتعلق بالازمنة التي مرت بين أحداث التاريخ القديم) . وكذلك فعل ابن الأثير ، وربما وجدنا في تاريخ الطبري وتاريخ ابن الاثير أخباراً مرجعها الى التوراة ، ولكن الطبري وابن الأثير أخذاها من طريق الرواة المسلمين. وفي تاريخ الطبري وتاريخ ابن الاثير أخبار مأخوذة من غير نسبة الى راو ، والغالب أنها أخذت مما شاع من الآراء على لسان القصاصين . وربما استند ابن الاثير الى التوراة في رواية هذه الاخبار بشيء من

---

(١) بهاء الدين ابو محمد عبدالجبار بن محمد الخرقي (ت بعيد ٥٢٧ ﻫ) ، له كتاب « منتهى الادراك في تقاسيم الأفلاك » (بروكلمان ١ : ٦٢٤ . الملحق ١ : ٨٦٣) ، وهو عنوان آخر للكتاب نفسه .

(٢) أبو الفرج الاصفهاني (ت ٣٥٦ ﻫ) .

(٣) السيرة (كتاب سيرة رسول الله) في الاصل لمحمد بن اسحق (ت ١٥١ ﻫ) . والغالب أن أبا الفداء يعني أبا محمد عبدالملك بن هشام (ت ٢١٨ ﻫ) صاحب (سيرة رسول الله) (وهي الى حد كبير منقولة من سيرة ابن اسحاق) .

التصديق أو بشيء كثير من الشك ، فيقول مثلاً : « وأما التوراة أن الله رفع ادريس (١ : ٤٠) ، وقال غيره من أهل التوراة (١ : ٨١) . وذكر خرافة تتعلق بمولد يعقوب وأخيه عيصو (١ : ١٢٦ — ١٢٧) أسندها الى السدّي ، وهو اسماعيل بن عبد الرحمن السدّي الكوفي (ت ١٢٨ هـ — ٧٤٥ م) وكان إخبارياً قصاصاً . والاشارة الى مولد عيصو ويعقوب موجودة في التوراة (سفر التكوين ٢٥ : ٢٥ وما بعد) . أما من أين جاء السدّي بالتفاصيل الخرافية فالاغلب أنه سمعها من بعض القصاصين اليهود . والرواية نفسها عن السدّي موجودة في تاريخ الطبري (١ : ٣٥٨ — ٣٥٩) .

وقد أحسن ابو الفداء صنعاً لما أهمل خرافة العيص (عيصو) ويعقوب .

وأبو الفداء قد خصّ التوراة بقدر وافر من عنايته . لما أراد ابو الفداء أن يؤرّخ الاحداث العظام (هبوط آدم وولادة أبنائه وأحفاده والطوفان ومقادير السنين بينها ثمّ بين بعثة كلّ نبي وآخر) قال (١ : ٣ — ٤) : « وسبب هذا الاختلاف أن (الاحداث) من هبوط آدم الى وفاة موسى ، لا يُعلم الا من التوراة . والتوراة على نسخ : السامرية والعبرانية واليونانية . أما (التوراة) السامرية فتنبىء . . . أن نوح قد ادرك من عمر آدم فوق مائتي سنة . فنوح (إذن) قد ادرك جميع آبائه الى آدم ، وهذا غاية المنكر ! فقد ظهر لك فساد هذه التوراة . واما التوراة العبرانية فتنبىء انّ نوحاً ادرك عمر ابراهيم الخليل ثمان وخمسين سنة . وهذا ايضاً غاية المنكر. فان نوحاً لم يدرك ابراهيم اصلاً ولا يجوز ذلك .

ثمّ يذكر أبو الفداء النسخة اليونانية من التوراة فيقول (١ : ١٠٥-١٠٦) : وسني هذه التوراة (العبرانية) تنقص عن التوراة اليونانية — وهي التي عليها العمل — ألفا وأربع مائة وخمساً وسبعين سنة ... وأمّا التوراة اليونانية فهي التي اختارها المحققون من المؤرخين نقلها (من اللغة العبرانية الى اللغة اليونانية) اثنان وسبعون حبراً (من اليهود) قبل ولادة المسيح بقريب ثلاثمائة لبطلميوس اليوناني الذي كان بعد الاسكندر بطليموس واحد (راجع أيضاً ١ : ٣٤ — ٣٥) .

ويبدو أنّ أبا الفداء كان يعرف النسخ الثلاث فانّه يستعرض أشياء في النسخة السامريّة ، أو توراة السَمَرَة كما يسمّيها أيضاً (١:٤) . ثمّ هو يذكر التوراة العبرانية ويقول انّها مفسودة (١ : ٤) ، ثمّ يؤكّد ذلك على الصفحة التالية فيقول : « فقد ظهر فساد هذه التوراة العبرانية ، وهي التوراة التي بيد اليهود الى زماننا هذا وعليها اعتمادهم » .

ثم يتكلّم على التوراة اليونانية فيقول « وهي التي عليها العمل » (١ : ٥ ، السطر ١٤) ، « وهي التوراة التي اختارها المحقّقون من المؤرّخين » (١: ٥ س) ، « فلذلك اعتمدنا على هذه التوراة دون غيرها » (١:٦ ، السطر ٢) . فنسخة التوراة المنقولة لبطليموس (أي الى اللغة اليونانية) أصحّ نسخ التوراة وأثبتها » (١ : ٣٥ ، السطر ١٦) .

ومع أن أبا الفداء يفسّر أحياناً عدداً من الأسماء العبرانية والفارسية باللغة العربية، فاننا لا نستطيع أن نزعم أنه كان يقرأ التوراة باللغة العبرانية أو باللغة اليونانية. والمعقول أنه عرف الفروق بين هذه النسخ الثلاث من المصادر التي كانت بين يديه ، من تاريخ أبي عيسى احمد بن علي المنجم ، وهو المسمى « كتاب البيان عن تاريخ سني زمان العالم على سبيل الحجة والبرهان » . وربما كان بين يديه نسخة للتوراة بالعربية من نقل سعديا بن يوسف الفيومي المصري (ت٩٤٢ م = ٣٣١هـ) . وكان سعديا هذا مفكراً يهودياً من نشاطه الثقافي نقل التوراة الى اللغة العربية (١) .

ويذكر أبو الفداء انه استند في اخبار اليهود الى سفر قضاة بني اسرائيل (السابع في التوراة) والى سفر ملوك بني اسرائيل (وهو قسمان هما السفر الحادي عشر والسفر الثاني عشر من التوراة) ، وهو يذكر ان هذه الأسفار هي من الكتب الأربعة والعشرين الثابتة عنـــد اليهود بالتواتر (١:٣) . وهو ينقل ايضاً من سوى هذه من كتب اليهود (١ : ١١٠) .

ولقد بدا لي ان اطيل في اهتمام ابي الفـداء بالتوراة على انها مصدر من مصـــادر التاريـخ ، وخصوصاً فيما يتعلق بمقادير الأزمان التي مرت منذ الخليقة الى فجر التاريخ فإلى الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة ، لثلاثة اسباب :

(أ) لأن أبا الفداء أحب أن يأخذ عدداً من الأحداث مقيدة بأزمانها أخـذاً

مباشراً من التوراة ، ما دامت هذه الأحداث تتعلق بأصحاب التوراة . ولقد غاب عن أبي الفداء أن التوراة ليست مصدراً تاريخياً موثوقاً لأن معظم التاريخ اليهودي تاريخ مصنوع موضوع . وأبعد شيء عن التاريخ الصحيح تعيين أزمنة الحوادث التاريخية بالسنين المألوفة على ما نرى في التوراة .

(ب) لأن أبا الفداء قبل أن يستخدم المادة التاريخية الموجودة في التوراة عرض لشيء من النقد الخارجي (التفريق بين نسخ التوراة وحكاية نقل التوراة الى اللغة اليونانية) ولشيء من النقد الداخلي (مقارنة التواريخ المذكورة في التوراة بأمثالها في الازياج : جداول حركات الكواكب ومطالع النجوم) . ومع أن في طرفي المقارنة كثيراً من الوهم والغفلة عن الحسبان الصحيح (في جعل عمر العالم بضعة آلاف من السنين فقط) فان محاولة أبي الفداء لجلاء عدد من الشكوك والسعي في تصحيح الاحداث والتواريخ — وان لم يصح له شيء منها — اتجاه علمي صحيح ومنهاج تاريخي عاقل .

(جـ) ان أبا الفداء قد أرسى لنا قاعدة جديدة في دراسة التاريخ

ان المسلمين لم يحاولوا بعد دراسة اليهودية والنصرانية دراسة شاملة . هنالك أشياء من السرد الوصفي لتاريخ اليهودية وتاريخ النصرانية مفرقة عند ابن حزم والشهرستاني وعند ابن خلدون . وهناك شيء من الجدل والردود في الملل والنحل لابن حزم وفي أماكن أخرى ، من غير استيعاب ولا استنفاد . ويحسن بنا اليوم أن نستجيب في ذلك لأبي الفداء : اذا كان المستشرقون من اليهود في الأكثر ومن النصارى في الأقل قد درسوا الاسلام وتاريخ الاسلام دراسة أراد معظمهم أن يشوه بها الاسلام وتاريخ الاسلام ، فما الذي يمنع العلماء المسلمين اليوم أن يدرسوا اليهودية والنصرانية وتاريخهما دراسة موضوعية ، لا نحاول بها تقريظاً ولا تجريحاً وانما نقوم من خلال ذلك بمقارنة واقعة . فان الدراسات المقارنة مفيدة في تاريخ الحضارات بالاضافة الى أنها اليوم زي شائع تدعو اليه المؤسسات الدولية ويدعو اليه المفكرون التقدميون .

٣ — اهتمام أبي الفداء بالاستيثاق من الاحداث وبضبط تواريخها (راجع الرقم ٢ ، فوق : ص) .

٤ — ذكر منهاج أبي الفداء في العمل (من أمور ذكرها في مقدمة كتابه ثم من أمور وردت في ثنايا كتابه) .

هاتان الخاصتان تدخلان في تعليـل التاريخ على الحصر ، وسيأتي الكلام عليها في مكانها

* * *

فاذا كانت الكتب التي أخذ منها أبو الفداء معروفة أو اذا كان معظمها معروفا ، فما تكون قيمة « كتاب المختصر في أخبار البشر بعد ذلك ؟

يبقى لهذا الكتاب قيمتان رئيستان :

القيمة الأولى : ان هذا الكتاب يستأنف الحوادث المقصودة من تأليفه استئنافا مستقلا بعد سنة ٦٣٨ للهجرة (١٢٣٠ م) ، وهي السنة التي يقف عندها تاريخ الكامل لابن الاثير .

قال ابو الفداء (٣ : ١٥٨) : وفي هذه السنة (٦٢٨ هـ) انتهى (وقف) التاريخ الكامل تأليف الشيخ عز الدين علي المعروف بابن اثير الجزري المنقول غالب هذا المختصر منه ، فانه ألفه من هبوط آدم الى سنة ثمان وعشرين وستمائة . وتوفي عز الدين المذكور في سنة ثلاثين وستمائه ......

وفيما يلي مثال من انتقال ابي الفداء من النقل عن ابن الاثير الى تتميم تاريخ الكامل لابن الاثير(في ذكر جلال الدين خوارزمشاه - أو خوارزمشاه - ملك خوارزم في فارس وما وراء النهر ، نهر جيحون في التركستان ، واسم جلال الدين خوارزمشاه: جلال الدين محمد بن تكش) :

قال ابن الأثير : لما انهزم جلال الدين من التتر على آمد نهب التتر سواد آمد وأرزن وميافارقين (١٢ : ٤٩٩) ..... وخرجت (انتهت) هذه السنة (٦٢٨هـ) ولم نتحقق لجلال الدين خبرا ، ولانعلم هل قتل او اختفى أو لم يظهر نفسه خوفا من التتر أو فارق البلاد الى غيرها . والله أعلم . وفي اواخر هذه السنة أطاع أهل بلاد أذربيجان جميعا للتتر وحملوا اليهم الأموال والثياب ..... وغير ذلك . وسبب طاعتهم ان جلال الدين لما انهزم على امد من التتر تفرقت عساكره وتمزقوا كل ممزق وتخطفهم الناس. وفعل التتر بديار بكر والجزيرة واربل وخلاط مافعلوا ولم يمنعهم أحد ولاوقف في وجههم واقف . وملوك الاسلام منحجرون في الأثقاب . وانضاف الى هذا انقطاع أخبار جلال الدين فانه لم يظهر له خبر ، ولاعلموا له حاله ، سقط في أيديهم وأذعنوا

التتر (١٢ : ٥٠٢) ..... وترددت رسلهم (رسل التتر) الى ديوان الخلافة والى جماعة من الملوك يطلبون منهم أنهم لاينصرون! (الا ينصروا) خوارزم شاه (١٢ : ٥٠٣) .... وأما جلال الدين فالى اخر سنة ثمان وعشرين وستمائة لم يظهر له خبر . وكذلك الى سلخ (آخر) صفر من سنة تسع (وعشرين وستمائة) لم نقف له على حال (١١ : ٥٩٣) .

واوضح ابو الفداء قصة جلال الدين فقال (٣:١٥٤–١٥٨) :

ولما تمكن التتر من بلاد اذربيجان سار جلال الدين يريد ديار بكر ليسير الى الخليفة (المستنصر بالله الذي تولى الخلافة من سنة ٦٢٣ إلى سنة ٦٤٠ للهجرة ، والذي جاء قبل المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد) ويلتجىء إليه ويعتضد بملوك الأطراف على التتر ويخوفهم عاقبة امرهم . فنزل بالقرب من آمد فلم يشعر إلا والتتر قد كبسوه ليلاً وخالطوا مخيمه . فهرب جلال الدين وقتل على ما نشرحه ... ومن تاريخ ظهور التتر تصنيف كاتب إنشاء جلال الدين النسوي المنشىء المقدم الذكر في سنة ست وعشرين وستمائة ما اخترناه واثبتناه من اخبار خوارزم شاه محمد وابنه جلال الدين لملازمة النسوي المذكور جلال الدين في جميع سفراته وغزواته الى ان كبس جلال الدين — والمنشىء المذكور كان معه ، ولذلك كان اخبر بأحوال جلال الدين ووالده من غيره — قال محمد المنشىء المذكور ...

وملخص ما بقي ان جلال الدين حارب التتر مدة طويلة وانتصر عليهم مراراً على بقاع كثيرة. ثم ان التتر تغلبوا عليه فحاصروه فاستطاع ان ينجو مهزوماً الى جبل عند قرية من قرى ميافارقين وفي ذلك الجبل اكراد يتخطفون الناس فأخذوه وسلحوه ثم قتلوه في حديث طويل ، في منتصف شوال من سنة ٦٢٨ . وقد كان ابن الأثير قد ذكر في آخر صفر من سنة ٦٢٩ (اي بعد ذلك بأربعة اشهر ونصف شهر) انه لم يعرف شيئاً عما آل إليه امر جلال الدين .

ومع هذا الاتجاه العاقل الحكيم في كتاب « المختصر في أخبار البشر » ، فان هذا الكتاب لا يزال ينوء بسيئتين رئيستين : سيطرة القصة وشيء من الغفلة عن العوامل الفاعلة في الاجتماع الانساني .

(أ) لا تزال القصة تسيطر على عدد من الجوانب في سرد التاريخ عن أبي الفداء ، فهو يحاول ما أمكن جمع أكثر ما يمكن من الحوادث في أقل ما يمكن من اللفظ

مع الميل الشديد الى تقييد تلك الحوادث بالتواريخ الدقيقة . ومع أن في هذا شيئاً من البراعة وحسن المعالجة التاريخ سنتكلم عليها في باب حسنات أبي الفداء ، فان في هذا أيضاً من السوء ما يصرف المؤرخ عن فهم التاريخ – التاريخ الذي هو إدراك تطور الاجتماع الانساني – الى جعل التاريخ مجموعاً من الأحداث المتراكمة . من ذلك مثلاً ما ذكره أبو الفداء من بعض أخبار اليمن ، قال (١ : ٧٢ – ٧٣) :

وكان أول ملك على العرب بأرض الحيرة مالكُ بن فهم بن غنم بن دوس بن عدثان بن عبد الله بن وهزان بن كعب بن الحارث بن مالك بن نصر بن الأزد ، والأزد من ولد كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان ملكه في أيام ملوك الطوائف قبل الأكاسرة . ثم ملك بعده أخوه عمرو بن فهم ثم ملك بعده أخوه جذيمة بن مالك بن فهم ، وكان به برص فكنوا عنه وقالوا جذيمة الأبرش . وعظم شأن جذيمة المذكور ، وكانت له اخت تسمى رقاش فهويت شخصاً من اياد كان جذيمة قد اصطنعه ، وكان يقال له عدي بن نصر بن ربيعة . وهويها عدي المذكور ايضاً . وكان عدي المذكور متسلماً مجلس شراب جذيمة ، فاتفقت معه رقاش على ان يخطبها من اخيها جذيمة حال غلبة السكر عليه فففعل ذلك واذن له جذيمة فدخل عدي برقاش . فلما اصبح جذيمة وعلم بذلك عظم عليه . فهرب عدي المذكور ...

هذ السرد لحوادث متلاحقة اكثرها من بنات الخيال يحبب الى نفوس عوام الناس لانها تعالج التاريخ من جانبه القصصي الخرافي : يجعل الاقوياء ضعافا والضعاف بارعين في انتهاز الفرص . ولا ينسى ابو الفداء ان يدخل الجن على مسرح روايته هذه . ان رقاش بعد ان حبلت من عدي ويخها اخوها جذيمة . ولدت رقاش صبيا فسمته عمرا والبسته طوقا . وتزعم العرب إن الجن اختطفت عمرا (ابن رقاش) ثم وجده شخصان يقال لهما مالك وعقيل فأحضراه الى جذيمة ففرح به جذيمة فرحا عظيما فقال لمالك و عقيل اللذين احضراه اقترحا ما شئتما ، فقالا : منادمتك ما بقيت وبقينا . فهما اللذان يضـرب بهما المثل فقال كندماني ان هذا الذي ذكر ابو الفداء هنا لا يمثل ما جرى في التاريخ بقدر ما يمثل ما يجري في عقول العامة من الشر في الاحوال التي تكون الشعوب فيها ضعيفة جاهلة .

واسوأ من ذلك في السرد القصصي ذلك الاثر الذي تركه الاهتمام بالتوراة في تفكير ابي الفداء واسلوبه . قال ابو الفداء (١ : ١٠) في خبر ولد اسماعيل :

وكان هناك (في مكة) قبائل جرهم فتزوج اسماعيل منهم امرأة وولدت له اثني عشر ولداً ذكراً منهم قيذار ..، ثم ولد لقيذار ابنه حمل بن قيذار ، ثم ولد لحمل نبت بن حمل — ويقال له نابت ، وقيل نبت بن قيذار ، وقيل نبت بن اسماعيل . وفي ذلك كلام كثير — ثم ولد لنبت سلامان بن نبت ، ثم ولد لسلامان الهميسع بن سلامان بن نبت ، ثم ولد للهميسع اليسع بن الهميسع ، ثم ولد لليسع أدد بن الهميسع ، ثم ولد لأدد ابنه أد بن ادد ، ثم ولد لأد ابنه عدنان بن اد بن ادد ، وقيل عدنان بن ادد . ثم ولد لعدنان معد ...

هذا سرد طويل مسهب (بفتح الهاء) لا فائدة منه في فهم التاريخ لأنه مصنوع موضوع . وقد بناه ابو الفداء على ما عرف في التوراة من سرد الانساب . وكان اجدر به ان يأخذ بالحديث الشريف الذي نهى عن تتبع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم فوق عدنان (٦) ؟

ومن المآخذ على ابي الفداء انه يروي في عدد من الاحيان اخبار الامم كأنها اخبار اشخاص من افراد الناس او يروي حركة الزمن كأنها حركة فرد في احواله العادية . قال ابو الفداء (١ : ١٩) :

ثم اقبل موسى الى اهله فسار بهم نحو مصر حتى اتاها ليلا . واجتمع به هرون، فسأله (هرون) من انت ؟ فقال انا موسى . فاعتنقا وتعارفا . ثم قال موسى : يا هرون ، ان الله ارسلنا الى فرعون فانطلق معي اليه . فقال هرون : سمعاً وطاعة ! فانطلقا اليه ، واراه موسى (اي ان موسى ارى فرعون) عصاه ثعباناً فاغراً فاه حتى خاف منه فرعون فأحدث في ثيابه .

لا ريب في ان هذه الحادثة ايضاً من روايات اليهود . وما كان لأبي الفداء ان يقبلها على هذا الشكل البعيد عن مجرى التاريخ الواقع المشاهد في العادة .

ومن سيئات القصص الشعبي الاستطراد ، لأن المنطق في السرد يحتاج الى ثقافة ومراس . وقد نقل ابو الفداء عن كتاب « خير البِشَر بخير البَشَر » (لابن ظفر الصقلي)ان التوراة ليس فيها ذكر بعث ولا جنة ولا نار ، وكل جزاء فيها انما هو معجل في الدنيا ...

وليس فيها (في التوراة) ذم الدنيا ولا الزهد فيها ولاوظيفة صلوات معلومة، بل الأمر بالبطالة والقصف واللهو (١ ، ٩٢) .

وبعد كلمة « اللهو » ينتقل ابو الفداء بالاستطراد مباشرة الى قوله : ومما تضمنته التوراة ان يهوذا بن يعقوب في زمان نبوته زنى بامرأة ابنه ... ثم يستمر في مثل ذلك نحو عشر اسطر لا صلة لها بقول ابن ظفر (ولو قاله ابن ظفر لكان مخطئاً) . فكيف يجوز لابي الفداء ان يقول : « ان فلاناً في زمان نبوته زنى ... » الا ان يكون ناقلاً من أخبار رواها اليهود من غير ان يترك لسليقته التاريخية ان تميز بين ما يجوز تأريخه وما لايجوز تأريخه، ومن الغريب ان يتفطن ابو الفداء لتمييز ذلك في التاريخ الاسلامي ولا يفطن له في التاريخ القديم !

(ب) وفي التاريخ القديم عند أبي الفداء أشياء من القلة عن العوامل الفاعلة في التاريخ الذي هو الكائنات(١) المشاهدة في الاجتماع الانساني . فهو لا يزال يقبل في التاريخ القديم خاصة محالات لا يقبلها العقل ومبالغات تكاد تكون خرافات ، وكان في صدر تاريخه لا يزال متأثراً بأخبار التوراة . من ذلك كله مثلاً :

١ : ٧ — ٨ ثم ان ابليس أراد دخول الجنة ليوسوس لآدم فمنعته الخزنة ، فعرض(٢) نفسه على الدواب أن تحمله حتى يدخل الجنة ليكلم آدم وزوجه . فكل الدواب أبى ذلك غير الحية فانها أدخلته الجنة بين نابيها ، وكانت الحية اذ ذاك على غير شكلها الآن .

١ : ١٦ — ١٧ ثم ان الله تعالى عافى أيوب ورزقه [ورد الى امرأته شبابها وحسنها (وهذا افتراء من اليهود على الله وعلى العلم)] .

١ : ٤٦ أزدشير بهمن (ملك فارس) غزا رومية في ألف ألف مقاتل !

١ : ٦١ دلوكة المشهورة بالعجوزة ، وهي من بنات ملوك القبط ، وكان السحر قد انتهى اليها — وطال عمرها حتى عرفت بالعجوزة — وصنعت على أرض مصر من اول ارضها في حد أسوان الى آخرها سوراً متصلاً .

١ : ١٤ س وابراهيم اول من اختتن ولبس السراويل .

---

(١) الكائنات جمع كائنة : الواقعة ، الحادثة التاريخية .

(٢) تقصد التوراة أن الحيوانات تستطيع أن تدخل الى الجنة وتخرج منها كلما شاءت .

١ : ١٩ فانطلقا (اي موسى وهرون) اليه (الى فرعون) واراه موسى عصاه ثعباناً فاغراً فاه حتى خاف منه فرعون فأحدث في ثيابه .

١ : ٢٠ ثم توفي موسى.... قيل كان هو ويوشع يتمشيان فظهرت غمامة سوداء فخافها يوشع واعتنق موسى . فانسل موسى من قماشه ، وبقي يوشع معتنق الثياب ، وعدم موسى (هذه الصورة من الموت مروية عن الحاكم بأمر الله الفاطمي ايضاً) .

١ : ٣٧ فأنزل (الله) عليه (على المسيح ، للمسيح) سفرة (مائدة) حمراء مغطاة بمنديل فيها سمكة مشوية وحولها البقول ما عـدا الكراث ، وعند رأسها ملح وعند ذنبها خل ومعها خمسة ارغفة على بعضها زيتون وعلى باقيها رمان وتمر .

١ : ٩٦ ثم خرج المسيح ليـلة الجمعة الى الجبل فـعى به يوذا — وكان احد تلاميذه — الى كبراء اليهود واخذ منهم ثلاثين درهماً رشوة ودلهم عليه (هل يظن ابو الفداء ان كبراء اليهود ما كانوا يعرفون المسيح ؟)

١ : ٧٠ ثم ملك شداد بن عاد واجتمع له الملك وغزا البلاد الى ان بلغ الى اقصى المغرب .

١ : ٢٠٢ وقد اختلف في عمر (الحسن) . والصحيح انه خمس وخمسون سنة واشهراً . وقيل حج الحسن خمساً وعشرين حجـة ماشياً ، وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة .

لقد كان من الواجب على ابي الفداء العالم الجغرافي والفلكي ان يدرك ان اليوم والليلة الف واربعمائة واربعون دقيقة ، وان صلاة الف ركعة يدوي فيها المصلي بضع مائة مرة (بحسب ما يجمع من الركعات) ويكبر فيهـا سبعة آلاف مرة ويقرأ فيها فاتحة الكتاب الف مرة ويقول فيها سبحان ربي العظيم وسبحان ربي الأعلى ستة آلاف مرة ويقرأ التحيـات خمسمائة مرة والصلاة الابراهيمية خمسمائة مرة تستغرق اكثر من يوم وليلة — هذا اذا تجاوزنا الحركات في الركعات الألف والاطمئنان فيها والخشوع وما يسبقها ويلحقها من التسبيح ثم قبلنا الا يقرأ المصلي فيها بعد الفاتحة شيئاً .

القيمة الثانية : في كتاب ابي الفداء « المختصر في اخبار البشر » لمحات واضحة من تعليل التاريخ .

كان ابن خلدون (٧٣٢ – ٨٠٨ هـ) يشعر أنه وضع علم تعليل التاريخ ويعلن ذلك ، وقد كان الجزء الاول من كتابه في التاريخ – وهو المشهور في عالم الكتب بعنوان « المقدمة » – مَعْلماً من معالم فلسفة التاريخ يعلو جميع المعالم في هذا الفن . غير أن أبا الفداء (٦٧٢ – ٧٣٢ هـ) ، وقد توفي في السنة التي ولد فيها ابن خلدون قد تنبه الى أشياء من تعليل التاريخ لايخفض من مكانتها كثيراً أنها غير مجموعة كلها في مكان واحد من كتابه . فمن خصائص أبي الفداء في ذلك مايلي :

١ – أولى خصائص المؤرخ الحق أن يعنى بتعليل التاريخ – بربط نتائج الاحداث بأسبابها الايجابية المباشرة الصحيحة . ولا يتأتى ذلك الا لمن كان ملماً بعدد من المعارف، فاذا اقتصر المؤلف على نقل أحداث التاريخ عن الذين سبقوه الى الذين يعاصرونه ،ولو كان في ذلك أميناً كل الامانة، فانه لايكون إلا قاصاً او قصاصاً او حاكياً او «حكواتياً» بلغة عوام الناس .

كان أبو الفداء مؤلفاً واسع التأليف له : المختصر (في التاريخ) وتقويم البلدان (في الفلك والجغرافية) والكناش (في الصرف والنحو) ومختصر سنن البيهقي (في الحديث) وطبقات الشعراء (في الادب) ويبدو ان له كتباً اخرى قد ضاعت . فلقد كان ابو الفـداء جغرافياً ومؤرخاً واديبـاً وشاعراً كما كان ملماً بالحديث والفقه والطب وبأشياء كثيرة من اديان القدماء من الصابئة والمجوس ومن اديان اليهود والنصارى . وربما اورد ملاحظات توحي بأنه كان على شيء من الإلمام بعدد من اللغات .

وكانت معرفته بالجغرافية السياسية والجغرافية الفلكية واسعة جداً . والجغرافية بفروعها مهمة جداً في فهم التاريخ، ذلك لان احداث التاريخ تتحرك بالجغرافية أو في الجغرافية . ثم يجب ان يكون ابو الفداء قد برع في العلم الرياضي حتى بلغ الى المنزلة التي بلغ اليها في الجغرافية الفلكية من تقويم البلدان – معرفة اماكنها بالاضافة الى خطوط الطول ، وخطوط العرض .

وفي ما يلي اشياء من تفسيره للتاريخ وأحداثه :

– اما لفظة التاريخ فانه (اي التاريخ) محدث في لغة العرب لانه معرب من ماه روز (وكان عمر بن الخطاب قد سأل الهرمزان الفارسي كيف يفعـل الفرس في تعيين الايام والشهور ، فقال الهرمزان) : ان لنا حساباً نسميه ماه روز ، ومعنـاه حساب

الشهور والايام . فعربوا الكلمة فقالوا مؤرخ ؟ ثم جعلوا اسمه التاريخ .. وقد وضعنا زايجة(١) تتضمن ما بين الهجرة وبين التواريخ القديمة المشهورة من السنين (١:١٢٩ وما بعد) .

— وذكر ابو الفداء (١:٥٢) كيف توصل ابناء موسى بن شاكر المنجم الى معرفة دور (محيط الارض) في ايام المأمون ونقل القصة كاملة عن ابن خلكان(٢) . ثم قال : اقول : كذا نقله ابن خلكان . ونقل غيره من المؤرخين ان الذي وجد لحصة الدرجة ستة وستون ميلا وثلثا ميل(٣) ، وهو غير صحيح ، فان ذلك حصة الدرجة على رأي القدماء(٤) . واما في ايام المأمون فانه وجد حصة الدرجة ستة وخمسون ميلا. وقد تحقق ذلك في علم الهيئة « الفلك »(٥) ان هذا يدل على ان ابا الفداء كان ينقل عن علم . ثم ان هذا ايضاً يدل على معاناة علم الفلك .

وتقويم البلدان المختلفة (توقيعها على سطح الارض : معرفة بعد بعضها عن بعض) امر على شيء كبير من الصعوبة لان الارض كرة ولذلك يكون بين كل بلدين خطوط مستقيمة كثيرة ، وهذا واضح جداً عند ابي الفداء ، فانه كثيراً ما يذكر عدداً من تقويمات بلد ما ثم يفضل واحداً منها(٦) . ولقد اهتم المسلمون بعلم تقويم البلدان لانه علم يساعد على معرفة القبلة . من اجل ذلك اتخذ المسلمون نقطة المقارنة في ذلك مكة المكرمة ، كما اتخذ العالم المعاصر بلدة غرينيتش في انكلترة قرب لندن نقطة يقيسون

(١) كذا في الأصل . الزيج (وجمعها أزياج ، زيجة ، زيجات) ، في الاصل ، جداول لمواقع النجوم وحركاتها .

(٢) وفيات الاعيان (حققه احسان عباس) ، بيروت ٥ : ١٦٢ — ١٦٣ .

(٣) الدور (الخط الذي يستدير على نقطة مفروضة) مقسوم عند علماء الهندسة، منذ ايام الكلدانيين ، ثلاثمائة وستين قسماً يسمي كل قسم منها درجة (مهما كان قياس ذلك القسم من الدور . ففي قياس دور الارض(محيط الارض) قيل ان مدى الدرجة تساوي ستة وستين وثلثاً من الاميال .

(٤) القدماء : العلماء الذين كانوا قبل الاسلام (ويطلق ذلك على علماء اليونان خاصة) .

(٥) راجع « تاريخ العلوم عند العرب » لكاتب هذا المقال ، ص ١٦١ — ١٦٢ .

(٦) Sarton , Introd . to the hist , of Science III 135 , 136

جميع البلدان بالاضافة اليها . وقد وجد سارطون ان ابا الفداء قد اتى بخط العرض لمدينة دمشق صحيحاً (٣٣° ـ ٣٠° شمالاً) . غير اننا نستطيع تعليل اخطاء القدماء في ضبط عروض المدن بقلة الادوات والآلات العلمية عندهم وقلة دقتها . ولم يكن ابو الفداء في ذلك ناقلا فقط (في ما ذكره صحيحاً وفي ما ذكره قريباً من الصحيح) ، بل كان عالماً ايضاً، فانه كان اكبر الجغرافيين في زمنه في بلاد الاسلام وفي غير بلاد الاسلام(١)

— ويتبع تحقيق عروض الارض تحقيق عروض الزمن (التواريخ) .

قال ابو الفداء: قال الشهرستاني : وعمرو بن لحي هو اول من جعل الاصنام على الكعبة ...وقد ذكر الشهرستاني ان ذلك كان في ايام سابور قبل الاسلام بنحو اربعمائة سنة . (هذا) ان كان سابور بن ازدشير بن بابك ، واما ان كان سابور ذا الاكتاف فهو ابعد عن الصواب لانه بعد سابور الاول بمدة كثيرة (١ : ٨٠) .

وربما تحرى ابو الفداء الدقة في ذكر التواريخ فأرخ باليوم وبالساعة(٢). (انظر فوق ، ص ، ثم ٤ : ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٠ وما بعد ، ١٥ س ، ١٩ ، ٢٢) . وربما جاء بالتاريخ الميلادي الى جانب التاريخ الهجري ، وربما جاء ايضاً بالتاريخ القبطي ، زيادة في تحري الدقة في ضبط الزمن .

وفي هذه السنة (٦٩٢ هـ) خرج الملك المظفر محمود صاحب حماة ... من حماة يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان الموافق لرابع شهر آب ..... (٤ : ٣٠)

وسار الملك المظفر محمود صاحب حماة بعسكره ووصل حلب يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الآخرة (سنة ٦٩٧ هـ) وسابع نيسان .... فخرجوا (اي العساكر الذين مع الملك المظفر) من دربند بغراس الى مرج انطاكية في الحادي والعشرين من رجب من هذه السنة الموافق لرابع ايار .... ودخلنا من باب اسكندرونة ونزلنا على باب حوص يوم الجمعة تاسع رمضان من هذه السنة الموافق للعشرين من حزيران (٤ : ٣٦ ، راجع ايضاً ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢) .

ان النيل وفي يوم الاحد الثالث والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة

(١) Ibid , 200 , cf , 308

(٢) انظر ، فوق ، ص

(٧١٢ هـ) الموافق للسابع والعشرين من آب من شهور الروم ورابع ايام النسيء بعد مسري من شهور القبط (٤ : ٧٠) .

– وكان ابو الفداء عارفاً بالطب ويطبب ايضاً .

وحصل للملك المظفر وهو نازل على حموص قليل مرض،ولم يكن صحبته طبيب. فاقتصر على ما كنت اصفه له واعالجه به . فشفاه الله تعالى وعاد الى العافية . والنعم عليّ واحسن اليّ على جاري عادته (٤ : ٣٧) .

وابو الفداء شاعر، وقد اكثر من الاستشهاد بشعره في كتابه (راجع ٤ : ١٠٤، ١٠٩، ١١١ – ١١٢، ١١٢، ١١٣، الخ) . ولذلك فائدتان اولاهما ان الشعر يدل على الأدب ويسبغ على اسلوب التاريخ – وهو في الاصل اسلوب جاف ، اذا لم يكن قصة تروى مزركشة بالخيال – شيئاً من الطلاوة . وثانية تينك الفائدتين ان ابا الفداء عني بالشعراء خاصة فأورد تراجم موجزة لنفر كثيرين من الشعراء والادباء مع شيء من المختارات اليسيرة ، ولم يكتف بذكر وفياتهم مجردة كما فعل ابن الأثير .

٢ – وابن دعائم تعليل التاريخ عرض الروايات على محك العقل .

ذكر ابو الفداء الملوك الفيشدادية (وهم طبقة كل قدماء ملوك الفرس) فقال (١ : ٤١) : وقد نقل عن مدد ملكهم وحروبهم أمور يأباها العقل ، ويمجها السمع فأضربنا عنها لذلك وذكرنا مايقرب الى الذهن صحته .

وذكر أبو الفداء الاسكندر بن فيلبس باني الاسكندرية (الاسكندرو المقدوني) وقال أن نفراً من المؤرخين يجعلون الاسكندر هذا هو ذا القرنين المذكور في القرآن الكريم ، وهذا عنده خطأ . قال في ذلك (١ : ٤٧ ـ ٤٨):

وقد قيل عنه (عن الاسكندر بن فيلبس المقدوني) إنه انصرف من المشرق الى جهة الشمال وبنى السد (سد الصين) على يأجوج ومأجوج.والصحيح انالاسكندر المذكور لم يكن منه (أي بناء السد) ، بل (الذي بنى السد) ذو القرنين الذي ذكره الله في القرآن ، وهو ملك قديم كان على زمن ابراهيم الخليل عليه السلام ..، وقد غلط من ظن أن باني السد هو الاسكندر الرومي . وكذلك قد استفاض على السنة الناس أن لقب الاسكندر المذكور ذو القرنين ، وهو أيضاً غلط . فان لفظة ذو عربية محض ، وذو القرنين من القاب العرب ملوك اليمن ...

والمتطلعون الى التآليف في تاريخ الأدب يأخذون بالروايات الغريبة فيروون مثلا أن أمرأ القيس قد عشق ابنة قيصر فحملت الغيرة قيصراً على أن اهدى الى امرىء القيس حلة مسمومة . فلما لبس امرؤ القيس الحلة المسمومة تهرأ لحمه ثم مات . قال أبو الفداء (١ : ٧٩) : وقيل ان ملك الروم سم (امرأ القيس) في حلة. وهو عندي من الخرافات .

وفيها (سنة ٥٨٣ هـ) حضر المركيس في سفينة الى عكا ، وهي للسلمين — ولم يعلم المركيس بذلك . واتفق هجوم (همود) الهواء ، فراسل المركيس الملك الافضل وهو بعكاء يقترح أمراً بعد آخر والملك الأفضل يجيب المركيس الى ذلك ، الى أن هب الهواء فأقلع المركيس الى صور واجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صورا ، وكان وصول المركيس الى صور وإطلاق الفرنج الذين يأخذ السلطان بلادهم بالأمان ويحملهم الى صور من اعظم أسباب الضرر التي حصلت حتى راحت عكاء وقوي الفرنج بذلك (٣ : ٧٦) .

ومن المشهور بين الطامحين الى كتابة التاريخ أن المناذرة والغساسنة كانوا ملوكا . والمعاصرون لنا يفهمون من لفظ « ملوك العرب » مايفهم نحن في العصر الحديث. ولكن تفسير ذلك ليس من شأن هذا المقال . ولكن من شأن هذا المقال أن أبا الفداء عرف حقيقة المناذرة والغساسنة .

قال ابو الفداء (١ : ٧٥ — ٧٦) : وكانت المناذرة آل نصر بن ربيعة عمالاً (جباة للأموال) للأكاسرة على عرب العراق مثل ما كان ملوك غسان عمالاً للقياصرة على عرب الشام .

٣ — ومن خصائص أبي الفداء البارة أنه لم يكن مؤرخاً راوياً للأحداث ، كما كان الطبري وابن الأثير مثلا ، ولكنه كان معانياً لأحداث التاريخ ، فلقد كان ملكاً وقائداً . فما ذكره من الأحداث التي كانت في أيامه كان بمثابة يوميات له دونها بعد أن خبرها وشارك في مجراها ، وما كان من الاحداث قبل أيامه كان اوضح في ذهنه مماكانت تلك الحوادث نفسها في ذهن الطبري وابن الأثير لأن ابا الفداء كان يعرف من مجرى التاريخ في البلاط وفي الميدان أكثر مما كانا يعرفان .

٤ — والمؤرخ وصاف للحضارة بجميع وجوهها : ما علا منها وما سفل ، وما

بعد منهـا ومادتا ..وما كان منهـا لقومه وما كان لغـير قومـه . والمؤرخ المنصف يذكر ذلك كله باكثر مايطيق من الأمانة . ولقد سرد أبو الفداء من الفـاظ الصـابئة واليهود والنصـارى مالا يجوز في الاسـلام ولا يجوز لمسلم ، الا أن يكون ناقـلاً غير معتقد .

في « تاريخ ابي الفداء » صفحة مهمة جداً في تاريخ الحضارة والثقافة (١:٨٦) تدل على ان ثمة ديناً واحداً اوحى به الله الى عباده . ولكن النـاس يضلون عن الدين مرة بعد مرة في الاحقاب المتطاولة فيبعث الله بعد كل فترة من الزمن من يجدد للناس دينهم . هذه الفكرة فكرة اسلامية تكثر الشواهد عليها من القرآن الكريم ومن الحـديث الشريف . ويحسبنا هنا الحديث : « ان الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهـذه الامة دينها » (او كما قال) .

اما الصفحة المرادة فهي التالية (١ : ٨٦) :

« ذكر امة السريان والصابئين من كتـاب ابي عيسى (وفي نسخة : ابي سعيد) المغربي قال : امة السريان هي اقدم الامم ، وكلام آدم وبنيه بالسرياني . وملتهم هي ملة الصابئين ويذكرون (اي الصابئون) انهم اخذوا دينهم عن شيث وادريس ولهم كتاب يعزونه الى شيث ويسمونه صحف شيث يذكر فيه محاسن الأخلاق مثل الصدق والشجاعة والتعصب للغريب ا وما اشبه ذلك ويأمر بـه ، ويذكر الرذائل ويأمر باجتنابها . وللصابئين عبادات منها سبع صلوات منهن خمس توافق صلوات المسلمين والسادسة صلاة الضحى والسابعة يكون وقتها في تمام الساعة السادسة من الليل (نصف الليل) . وصلواتهم كصلاة المسلمين من النية وان لا يخلطها المصلي بشيء من غيرها . ولهم الصلاة على الميت بلا ركوع ولا سجود . ويصومون ثلاثين يوماً ، وان نقص الشهر الهلالي صاموا تسعة وعشرين يوماً . وكانوا يراعون في صومهم الفطر والهلال بحيث يكون الفطر وقد دخلت الشمس الحمل (١) . ويصومون من ربع الليل الأخير الى غروب قرص الشمس ، ولهم اعياد

(١) تدخل الشمس برج الحمل (بفتح ففتح : الجدي ، الخروف الصغير) في أول فصل الربيع (في رأي قدماء الفلكيين) .

عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة (١) بيوت أشرافها(٢) والخمسة المتحيرة زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد . ويعظمون بيت مكة . ولهم بظاهر حران (٣) مكان يحجونه . و (هم) يعظمون أهرام مصر ويزعمون أن أحدهما قبر شيث بن آدم ، والآخر قبر ادريس وهو حنوخ ، والآخر قبر صابي بن ادريس الذي ينتسبون اليه . ويعظمون يوم دخول الشمس برج الحمل (٤) فيتهادوْن فيه ويلبسون افخر ملابسهم وهو عندهم أعظم الأعياد لدخول الشمس برج شرفاتها .

قال ابن حزم : والدين الذي انتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الدهر والغالب على الدنيا الى ان احدثوا الحوادث فبعث الله تعالى ابراهيم خليله عليه السلام بالدين الذي نحن عليه الآن . قال الشهرستاني : والصابئون يقاتلون الحنفية (٥) ، ومدار مذهبهم التعصب للروحانيين كما أن مدار مذهب الحنفاء التعصب للبشر الجسمانيين .

— واستعرض ابو الفداء تاريخ اليهود واليهودية ونقل عن الشهرستاني خلاصة اعتقادهم ، فذكر (١ : ٩٢) عن الشهرستاني ان اليهود تدعي ان الشريعة لا تكون

(١) الكواكب المتحيرة : الكواكب الخمسة المذكورة في السطر التالي . وسميت المتحيرة (في رأي القدماء) لأنها تتقدم (رأي العين) على الشمس والقمر حيناً وتتأخر عنها حيناً آخر .

(٢) يرى قدماء الفلكيين أن اعاء مقسومة اثني عشر قسماً يسمى كل قسم برجاً ، وأن بعض هذه الابراج اشرف من بعض ، وأن اشرفها اعلاها . وبرج الحمل اعلاها كلهــا واشرفها . قال الشاعر الطغرائي :

لو أن في شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل !

(٣) حران : مدينة في شمالي العراق كانت للصابئة . ظاهر حران : في ضاحيــة حران ، خارجها .

(٤) يوم دخول الشمس برج الحمل هو اول ايام الربيع .

(٥) الحنفية (هنا) : الحنفاء (جماعة كانوا في الجاهلية لا يدينون ديناً معيناً ولا كانت لهم عبادات مخصوصة ، بل كانوا يسلكون في الأخلاق والاجتماع مسلكاً كريماً ، لا يشربون الخمر ولا يؤذون الناس ، الخ) .

الا واحدة ، وهي ابتدأت بموسى وتمت به . واما ما كان قبل موسى فانما كان حدوداً عقلية واحكاماً مصلحية ، ولم يجيزوا النسخ(١) اصلا فلم يجيزوا بعده(٢) شريعةاخرى قالوا ، والنسخ في الاوامر بداء (٣) ، ولايجوز البداء على الله تعالى . وافترقت اليهود فرقاً كثيرة . فالربانية منهم مثل المعتزلة (٤) منا ، والقراؤون كالمجبرة والمشبهة (٥) فينا . ومن فرق اليهود العانانية .. فمن مذهب العانانية أنهم يصدقون المسيح في مواعظه ويقولون أنه لم يخالف التوراة البتة ، بل قررها ودعا الناس اليها . وهو من أنبياء بني اسرائيل المتعبدين بالتوراة ، إلا أنهم لا يقولون بنبوته . ومنهم من يدعي أن عيسى لم يدع انه نبي مرسل ، ولا انه صاحب شريعة ناسخة لشريعة موسى عليه السلام ، بل هو من أولياء الله المخلصين ، وأن الانجيل ليس كتاباً منزلاً عليه وحيا من الله تعالى ، بل هو جميع ا أحواله جمعه أربعة من أصحابه . واليهود ظلموه أولاً حيث كذبوه ولم يعرفوا بعد دعواه ، وقتلوه آخر ولم يعلموا محله ومغزاه . وقد ورد في التوراة ذكر المشيحا في مواضع كثيرة وهو المسيح (١ : ٩٢ — ٩٣) .

ومن أعياد اليهود التبريك وتبطل فيه الأعمال . ويزعمون ان التوراة فيه استتم نزولها ، ولذلك يتبركون فيه بالتوراة . وليس في صياماتهم فرض غير صوم الكبور ، وهو عاشر يوم من تشرين اليهود . وابتداء الصوم من اليوم التاسع قبل غروب الشمس

---

(١) النسخ : إبطال امر سابق بأمر لاحق مخالف .

(٢) بعده (بعد موسى) .

(٣) في الاصل : بدا . والبداء (بكسر الباء) : الاستئناف (ان يجمع الانسان على رأي ثم يبدله بعد مدة) .

(٤) المعتزلة هم الذين اذا تعارض حكم الدين وحكم العقل تبعوا حكم العقل وتأولوا حكم الدين على صورة توافق البلاغة العربية ولا تخالف العقل . ففي قول الله تعالى : « يد الله فوق ايديهم » يقولون ان كلمة يد هنا تعني « القوة ، السلطة » .

(٥) المجبرة او (خصوم المعتزلة) يقدمون حكم الدين على حكم العقل . ويقولون في (يد الله) : لله يد ، ولكننا نحن لا نعرف كيف هي (ثم هم يعتقدون بالجبر ، وذلك أن جميع أعمال الانسان مكتوبة عليه بتفاصيلها منذ الأزل . والمشبهة أشد أخذاً بظاهر الالفاظ الدينية من المجبرة .

بنصف ساعة الى بعد غروبها من اليوم العاشر بنصف ساعة تمام خمس وعشرين ساعة . وكذلك غيره من صلواتهم النوافل والسنن (٩٤:١) .

ــ ذكر امة النصارى وهم أمة المسيح عليه السلام . من كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، قال : والنصارى في تجسد الكلمة مذاهب . فمنهم من قال أشرقت على الجسد اشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال انطبعت فيه انطباع النقش في الشمعة ، ومنهم من قال تدرع اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء . واتفقت النصارى على أن المسيح قتلته اليهود وصلبوه . ويقولون ان المسيح بعد ان قتل وصلب ومات عاش فرأى شخصه شمعون الصفا وكلمه وأوصى اليه ثم فارق الدنيا وصعد الى السماء (١ : ٩٤) .

ومن فرق النصارى الملكانية . ذكر ابو الفداء أن الملكانية هم اصحاب ملكا الذي ظهر ببلاد الروم واستولى عليها فصار غالب الروم ملكانية . وهم يصرحون بالتثليث . وعنهم أخبر الله تعالى بقوله : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة »(١) وصرحت الملكانية أن المسيح ناسوت كلي وهــو قديم أزلي من قديم أزلي . وقد ولدت مريم آلهاً أزلياً . والقتل والصلب وقعاً على الناســوت واللاهوت معاً . وأطلقوا لفظ الأبوة والنبوة على الله تعالى وعلى المسيح حقيقة . وحرموا أريوس لما قال : القديم هو الله تعالى ، والمسيح مخلوق .

ومن الغريب جداً ان يورد ابو الفداء المسلم «كلمة الايمان عند النصارى » بلفظهم. وهذا من الامانة في العلوم وفي التاريخ مما تحلى به المسلمون في جميع عصورهم وفي جميع بحوثهم ، ولم نجده عند المستشرقين قط ــ حينما يتعرضون لاعتقاد المسلمين في الله وفي النبوة خاصة . من اجل ذلك نرى فضل ابي الفداء في التاريخ على كثيرين من أمثاله . انه لم يؤرخ السياســة والحرب والادارة فقط ، بل أرخ الحضارة والثقافة ، حتى تلك الأوجه المخالفة لاعتقاده وذلك حباً في أن ينقل الينا صورة الاعصر الماضية نقلاً قريباًمن الصحة قدر الامكان .

أورد ابو الفداء « كلمة الايمان هذه » على الوجه التالي (١ : ٩٤ـــ٩٥) في اسلوب عربي غير الاسلوب الذي يسمع الآن .

(١) القرآن الكريم ٥ : ٧٣ ، سورة المائدة .

يقول النصارى :

نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء وصانع ما يرى وما لا يرى ، وبالابن الواحد ايشوع المسيح ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها وليس بمصنوع . آله حق من آله حق من جوهر ابيه الذي بيده اتقنت العوالم وكل شيء ، الذي من اجلنا واجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من روح القدس وولد من مريم البتول وصلب ودفن ثم قام في اليوم الثالث وصعد الى السماء وجلس عن يمين ابيه ، وهو مستعد المجيء تارة أخرى للقضاء بين الاموات والاحياء . ونؤمن بروح القدس الواحد روح الحق الذي يخرج من ابيه وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا وبجماعة واحدة قدسية مسيحية جاثليقية ، وبقيام ابداننا وبالحياة الدائمة ابد الآبدين .

واما النسطورية ، وهم عند النصارى كالمعتزلة في الاسلام ، وقد قالوا ان الكلمة أشرقت على جسد المسيح كاشراق الشمس من كوة او على بلور . وقالت النسطورية ايضاً ان القتل وقع على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، بخلاف ما قال الملكانية (١ : ٩٥) .

واما اليعقوبية فقالوا ان الكلمة انقلبت لحماً ودماً فصار الآله هو المسيح . قال ابن حزم واليعقوبية يقولون ان المسيح هو الله قتل وصلب ومات ، وان العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر ، وعنهم أخبر القرآن العزيز بقوله تعالى(١) « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم » (١ : ٩٥)

وصلوات النصارى سبع عند الفجر والضحى والظهر والعصر والمغرب والعشاء ونصف الليل يقرأن فيها بالزبور المنزل على داوود تبعاً لليهود في ذلك . والسجود في صلاتهم غير محدود ، قد يسجدون في الركعة الواحدة خمسين سجدة . ولا يتوضأون للصلاة ، وينكرون الوضوء على المسلمين واليهود ويقولون الأصل طهارة القلب (١ : ٩٥).

والصوم عند النصارى كثير معروف . وصومهم الكبير هو صوم لتسعة وأربعين يوماً أولها يوم الاثنين ، وهو أقرب اثنين الى الاجتماع الكائن فيما بين الثاني من شباط الى اليوم(٢) الثامن من آذار ، فأي اثنين كان أقرب اليه ، إما قبل الاجتماع وإما بعده ، فهو

(١) القرآن الكريم ٥ : ١٧ ، ٧٢ ، سورة المائدة .

(٢) رأس صومهم : اول صومهم .

رأس صومهم وفطرهم أبداً يكون يوم الأحد الحسين من هذا الصوم . وسبب تخصيصهم هذا الوقت بالصوم أنهم يعتقدون أن البعث والقيامة يكون في مثل يوم الفصح وهو اليوم الذي قام فيه المسيح من قبره بزعمهم (١ : ٩٥) .

ومن أعياد النصارى الشعانين الكبير ، وهو يوم الأحد الثاني والاربعون من الصوم(١) . وتفسير الشعانين التسبيح لأن المسيح دخل يوم الشعنينة المذكورة الى القدس راكبَ أتان يتبعها جحش . فاستقبله الرجال والنساء والصبيان وبأيديهم ورق الزيتون ، وقرأوا بين يديه التوراة الى أن دخل بيت المقدس واختفى عن اليهود يوم الاثنين والثلاثاء والاربعاء ، وغسل في يوم الاربعاء أيدي أصحابه الحواريين وأرجلهم ومسحها بثيابه . وكذلك يفعله القسيسون بأصحابهم في هذا اليوم . ثم أفصح في يوم الخميس بالخبز والخمر وصار الى منزل واحد من أصحابه ثم خرج المسيح ليلة الجمعة الى الجبل فسعى به يوذا ، وكان أحد تلاميذه ، الى كبراء اليهود وأخذ منهم ثلاثين درهماً رشوة ودلهم عليه . فألقى الله شبه المسيح على المذكور(٢) فأخذوه وضربوه ووضعوا على رأسه اكليلاً من الشوك وأنالوه كل مكروه وعذبوه بقية تلك الليلة ، أعني ليلة الجمعة، الى أن أصبحوا فصلبوه بزعمهم أنه المسيح على ثلاث ساعات من يوم الجمعة على قول متى ومرقوس ولوقا . وأما يوحنا فانه زعم أنه صلب على مضي ست ساعات من النهار المذكور (١ : ٩٥ — ٩٦ ، راجع ٣٨) .

— سارت هيلانة أم قسطنطين (٣) الى القدس في طلب خشبة المسيح التي تزعم النصارى أن المسيح صلب عليها . ولما وصلت الى القدس بنت كنيسة قُمامة على القبر الذي تزعم النصارى أن عيسى دفن به ، وخربت هيكل بيت المقدس الى الأرض وأمرت أن يلقى في موضعه قُمامات البلد وزبالته ، فصار موضع الصخرة مزبلة . وبقي الحال

---

(١) من الصوم الكبير الذي يمتد تسعة واربعين يوماً . اما اليوم الحسين فهو يوم فطر (عيد) .

(٢) الملوح هنا أن الذي ألقي شبه المسيح عليه وصلب كان يوذا الذي دل على مكان المسيح (اذ كان المسيح مختفياً في بيت احد اتباعه) .

(٣) هيلانة ام الملك قسطنطين ، يقال انها زارت القدس (عام ٣٢٤ م) وعثرت فيها على الخشبة التي يزعم النصارى أن المسيح صلب عليها

على ذلك حتى قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفتح القدس فدله بعضهم على موضع الهيكل فتنظفه عمر من الزبائل وبنى به مسجداً. وبقي ذلك المسجد الى أن تول الوليد بن عبد الملك الأموي فهدم ذلك المسجد وبنى على الاساس القديم المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وبنى هنالك قباباً أيضاً سمي بعضها قبة الميزان وبعضها قبة المعراج وبعضها قبة السلسلة . والأمر على ذلك الى يومنا هذا (١ : ٤٠) .

— ثم ملك ثاوذوسيوس الثاني عشرين سنة ، وكان موت ثاوذوسيوس في منتصف سنة ٧٥٥ للاسكندر . وفي مدة ملكه كان المجمع الثالث في أفسس ، واجتمع مائتا إسقف وحرموا نسطورس صاحب المذهب ، وكان بطركاً في القسطنطينية ، لقوله ان المسيح جوهران جوهر لاهوتي وجوهر ناسوتي. وأقنومان أقنوم لاهوتي وأقنوم ناسوتي (١ : ٦٨) .

الآفاق الجغرافية عند أبي الفداء في كتابه «تقويم البلدان»

مصطفى الحاج ابراهيم

يعتبر أبو الفداء ملك حماة أحد الشخصيات الفذة في التاريخ العربي خلال الربع الاخير من القرن الثالث عشر والربع الاول من القرن الرابع عشر ، وكان لشخصيته اثر كبير في تحديد اتجاهاته وأعماله الفكرية والسياسية والعسكرية ، وانعكس هذا الاثر بوجه خاص في نمو مواهبه المتعددة المتكاملة ، ولاسيا في تنمية اتجاهاته الجغرافية الواضحة وانسجامه مع روح العصر الذي عاش فيه ، ذلك العصر ، المضطرب الانتقالي بين العصور الوسطى والعصور الحديثة . فمن هو أبو الفداء ؟

هو اسماعيل بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب (١) . وقدأضيف على اسم اسماعيل لقب عماد الدين ، وبعد امارتــه لقب بالملك الصالح ثم الملك المؤيد أبو الفداء . وقد اضيفت على ابي الفداء صفات كثيرة مستوحاة من سـيرة حياته فـكان يدعى بالسلطان العالم العادل الفاضل الكامل المجاهد المرابط المثاغر .

سيرة حياته :

ولد أبو الفداء في مدينة دمشق عام ١٢٧٣ م أي قبل سبعة قرون ، في اسـرة تنتمي الى الايوبيين كانت قد سيطرت على حماة، وكان والده أمير حماة قد لجأ الى دمشق فراراً من اخطار الغزو المغولي ، الذي هدد بلاد الشام بعد اجتياح هولاكو لبغداد عام ١٢٥٨ م عاش ابو الفداء حياة نشطة جـداً تتفق ومطامحــه السياسية في الوصول الى منصب الملك في حماة كما تتفق والظروف غـير المستقرة التي كانت سائدة في طفولتــه وشبابه . رافق والده منذ نعومة أظفاره وهو في سن الثانية عشرة في معركة استرجاع قلعة الحصن من الصليبيين ، كما أسهم في معارك اخرج الصليبيين من المواقع الاخـيرة التي كانوا يحتلونها في بلاد الشام كطرابلس وعكا والكرك ، وكيليكية (ارمينيةالصغرى) وقد ربط ابو الفداء مصيره السياسي بالمماليك الذين كانوا يحكمون بلاد الشام في دمشق والقاهرة ، وجهد في ارضائهم بمختلف الوسائل لبلوغ هدفه الاكبر وهو نيل امارةحماه.

فبالاضافة الى اسهامه في الجهاد ضـد الصليبيين ، شارك في حمـاية الثغور من الروم (٢) مما كان سبباً في نيله لقب المجاهد والمرابط والمثاغر ... وعرف ابو الفـداء بمهارته السياسية في ارضاء السلطان المقيم في القاهرة وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي سبق ان وعده بحكم حماه منذ ان كان ابو الفداء في خدمته في مدينة الكرك بجنوب بلاد الشام ، وبعد ان تولى الملك الناصر السلطنة في القاهرة كان ابو الفداء يتوجـه كل

---

(١) معجم المؤلفين (ج٢ ص٢٨٢) .

(٢) في الحملتين الاولى والثانية على كيليكية عامي ١٢٩١ و ١٣٠١ ، وكانت آخر حملة له في آسية الصغرى عام ١٣١٥ .

عام الى مصر حاملاً معه كل ثمين من الخيول والرقيق والجواهر ليقدمه الى السلطان(١)

وتحققت آمال أبي الفداء بعد جهاده الطويل فأقيم والياً على حماة عام ١٣١٠ م وأميرا عام ١٣١٢ م كتابع لنائب الشام المملوكي تنكز ، ولكنه لم يحصل على لقب الملك الا عام ١٣٢٠ وأضحت له الأسبقية على جميع ولاة الشام . وظل في ملك حماة الى أن توفي ودفن فيها عام ١٣٣١ م .

أبو الفداء العالم :

كانت صفة «العالم» على رأس الصفات التي أضيفت الى رجل الدولة الكبير ومن الواضح أن أبا الفداء كان يتمتع بمزايا شخصية كان لها دورها في تكوينه العلمي والسياسي والعسكري ، فقد كان ذا ذهن صاف ، وقريحة فياضة إلى جانب شجاعته ، ومرونته ، واستعداداته للعمل العسكري ، والدبلوماسي والسياسي ، فلم يسس الرعية والحكام فقط بل ساس العلماء أيضاً يتبين لنا ذلك من أن أمارته الأولى على حماه عام ١٣١٠ تمت بناء على طلب مهنا شيخ فضل الذي كان يسمى « ملك العرب » في منطقة حماه ، رغم أنه كان قد كسب تأييد نائب الشام في دمشق والسلطان في القاهرة وقد جعل أبو الفداء من حماه مركزاً للعلماء والأدباء والشعراء ، يجالسهم ويناظرهم في العلوم المختلفة قديماوحديثها ويوجه عام اشتهر أبو الفداء بحبه لأهل العلم والخير واكرامه الشديد لهم .

كان أبو الفداء قد تلقى ثقافته الأولى في دمشق ، وظهرت براعته باديء ذي بدء في العلوم التقليدية كالفقه والأصول العربية والتاريخ والأدب عندما صار من جملة أمراء دمشق،وعاصر أبو الفداء وهو في دمشق العالم الملقب بالدمشقي صاحب كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر الذي يعتبر ذا أهمية كبيرة في نشر بعض المعارف المحدثة في التاريخ الطبيعي ، اذ جمع الكتاب المذكور معطيات وافرة عن النبات والحيوان والمعادن وطبقات الأرض ، عدا موضوعات أخرى متنوعة ذات قيمة جغرافية عن بلاد الشام وفلسطين .

وقد ترسخ الاتجاه العلمي الجديد عند أبي الفداء بعد استقراره في ملك حماة ،

---

(١) كانت تلك الزيارات للقاهرة على مايبدو قد لعبت دورها في التكوين السياسي والثقافي لأبي الفداء ، اذ كان السلطان يأنس به ويكرمه ويشركه في كثير من نشاطاته ورحلاته في البلاد او يصطحبه في حجه الى الأماكن المقدسة .

اذ أضاف إلى نشاطاته ، علوم الميقات والهيئة والفلسفة والمنطق والطب ، مع النظم والنثر ، فقد ذكر الصلاح الصفدي(٢) معرفة أبي الفداء بالفقه والطب والحكمة ولكن كان « اجود مايعرفه علم الهيئة لأنه أتقنه » وذكر الشيخ جمال الدين الاسنوي في طبقاته — وكان قد جالس أبا الفداء في القاهرة جلسات علم طب ، وعلم نباتات وحشائش — ان أبا الفداء استطرد في حديثه (وكان الموضوع صفات النبات والأرض التي تلائمه) استطراداً عجيباً ، رغم وجود طبيبين مشهورين « هما ابن القويتح وابن البرهان » وهما لا يدريان شيئاً عن الموضوع — وأضاف الشيخ ركن الدين بهذا الشأن فقال :

« ما اعلم أن ملكاً من ملوك المسلمين وصل الى هذا العلم » .

هذا ولا شك في ان قيام ابي الفداء بتجييش الجيوش ، وخبرته في السوقية العسكرية قد جعلته يعتمد على اكتشاف معالم الأرض والمواقع التي تجري فيها المعارك كما يعتمد على جمع المعلومات عنها والتعرف عليها بدقة ، مع الدراية بالطرق والمنافذ المؤدية إليها . وكان كل ذلك عاملاً في تنمية اتجاهاته الجغرافية .

وقد جاءت تآليف أبي الفداء ومصنفاته العديدة ، وهو في ملك جاه معبرة عن اتجاهه العلمي والمفضل ومنها : ١ — تاريخه المسمى المختصر في تاريخ البشر ٢ — كتاب تقويم البلدان . ٣ — الكناش في الطب (مجلدات كثيرة) . ٤ — نظم الحاوي في الفقه . ٥ — كتاب الموازين . ولكن شهرة أبي الفداء جاءت من المؤلفين الاولين في التاريخ والجغرافية ولا سيما الثاني منها .

بدأ أبو الفداء كتابة مؤلف تقويم البلدان في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع عشر (حوالي عام ١٣١٧م وانتهى منه عام ١٣٢١م أي قبل وفاته بأحد عشر عاماً ، والمعتقد أن أبا الفداء استمر في تنقيحه والاضافة عليه حتى وفاته عام ١٣٣١م .

لا ريب في ان كتاب تقويم البلدان قد تضمن خلاصة معارف أبي الفداء وخبراته التي حصل عليها مجاهداً ووالياً وأميراً وملكاً . وتطلب ذلك منه مقدرة كبيرة في جمع المواد من مظانها وتبويبها ، ان أبا الفداء لم يكن رحالة كابن بطوطة وابن جبير والمقدسي وغيرهم ممن ارتحلوا في طلب العلم وجابوا اكثر المناطق المأهولة في ذلك العصر

(٢) تقويم البلدان ، مقدمة رينود ص١٠ . طبعة باريس ١٨٤٠م .

يجمعون منها المعلومات مباشرة(١) . غير ان المكانة المرموقة لأبي الفداء وهو في مركز السلطة قد مكنته من تنويع مصادر المعلومات،وهذه المصادر يستطيع أن يجد القارىء أهميتها في متن الكتاب ، وهي مؤلفات من سبقه فكان المؤلف أميناً في الاشارة اليهم ، فمن اعتمد عليهم أبو الفداء الاصطخري وابن حوقل والادريسي وياقوت وعلي البيروني في كتابه القانون ، وعلى كتاب بطليموس وجغرافية ابن سعيد ، وعلى المهلبي جغرافي العهد الفاطمي ، ومؤلف ابن سيد ، وبعض مؤلفات لم تصلنا أبداً مثل العزيزي ولباب ابن الأثير .

عصر أبي الفداء :

حصل أبو الفداء على معلومات جديدة، لم يحصل عليها سابقوه نجمت عن طبيعة اتساع العالم المعروف آنئذ ، واتساع المعلومات عنه ، ولا سيا خارج نطاق البلدان العربية والاسلامية وقد استقى تلك المعلومات من التجار والمسافرين ، فهو يستشهد أحياناً بمعاصريه ، فمثلا بالنسبة للهند استخدم معلومات قدمها شخص قام بزيارتها،وقد مكنته تلك المعلومات التي حصل عليها من اعطاء وصف قصير عن تلك البلاد ولكنه صحيح بوجه عام . ويجب ان لا ننسى ان أبا الفداء عاصر الفترة الانتقالية النشطة في أواخر العصور الوسطى ، قبيل بدء العصور الحديثة أو ما يمكن تسميته فترة بدء الاكتشافات الجغرافية وفترة الاحتكاك الواسع بين الشرق والغرب ، في الحرب والسلم ، وكانت الحروب الصليبية ، وحركات المغول ، مظهراً من مظاهر ذلك الاحتكاك الذي خبره ابي الفداء ولا شك ، كما كان استقبال السفراء مظهراً آخر ، فقد حضر ابو الفداء لدى زياراته للقاهرة استقبال سفير خاية (يعقوب الثاني ملك ارغوان في اسبانيا غرباً وسفير ايلخان فارس شرقاً) ولا ننسى ان ابا الفداء عاصر الرحالة الايطالي ماركوبولو (١٢٥٤ — ١٣٢٤) الذي ضمن كتابه ما يشبه موسوعة جغرافية عن العالم الذي جابه . وعاصر ابو الفداء نشاط البنادقة التجاري على شواطىء بلاد الشام وفي بعض مدنها الداخلية ، وكان هؤلاء قد اقاموا علاقات واسعة النطاق بين الغرب والشرق منذ القرن الثاني عشر .

(١) صحيح ان ابا الفداء قد تجمعت لديه معلومات عن تنقلاته في مهامه بين الشام ومصر وبلاد النوبة والحجاز وكيليكية وآسية الصغرى (بين تارس وقيسارية) ولكن هذه المناطق لا تمثل الا جزءاً صغيراً من العالم الاسلامي،ومن العالم المعروف في عصره .

ولم تكن مدينة حماة بعيدة عن ذلك النشاط ، فقد كانت تشهد نهضة عظيمة تفوقت فيها على مدينة حمص ، فهي المدينة الرئيسية الواقعة على نهر العاصي اكبر أنهار سورية (باستثناء نهر الفرات العابر) ، ومعنى ذلك انها كانت واقعة على اهم طريق داخلي طبيعي يربط شمال سورية (حلب ، مرعش ، انطاكية ، اسكندرونة ، اضنة) بجنوبها (دمشق ، عكا ، القدس) ، كما انها على اتصال سهل ببلاد ما بين النهرين ، عبر الرصافة ووادي الفرات ، وتدمر ، وليست المدينة بعيدة عن ساحل الشام عبر الممرات الجبلية .

وسبق ابا الفداء بقرن من الزمان ياقوت الحموي (مؤلف معجم البلدان) وكان من اكبر باعة الكتب في عصره قبل ان يكتب مؤلفه في اواخر ايام حياته في الموصل وحلب ، كما سبقه بقرن ونيف اسامة بن منقذ ، من امراء قلعة شيزر على العاصي قرب حماه وهو مجاهد ومؤلف كأبي الفداء في الادب والتاريخ ومواقع الارض وتردد مثله بين شيزر ودمشق وشارك في جهاد الصليبيين ونقل ابو الفداء عنه بعض معلوماته .

تقويم كتاب ابي الفداء :

لاقى كتاب ابي الفداء اقبالاً واهتماماً كبيرين في الشرق والغرب . فقد لخصه الذهبي معاصره الاصغر سناً ونقل عنه القلقشندي ، واعتمد عليه الاوربيون اعتباراً من القرن السادس عشر وكذلك الاتراك كما اعتمد عليه الفرس في القرن السابع عشر . وقد اعتبر ثالث كتاب عربي اشتهر في الغرب بعد القرآن الكريم ، والف ليلة وليلة(١) ، واهتم بالكتاب المستشرق الغربي بوستيل والالماني شيكارت والفلكي الانكليزي غريفز ، وظهرت للكتاب في القرن الثامن عشر ترجمة كاملة (١٧٧٠ — ١٧٧١) م للمستشرق رايزكه ، ولكنها كانت مستعجلة ، ولكن الترجمة والنشر اللذين عمل فيها المستشرق الكبير دي ساسي وتلامذته ، في ثلاثينيات القرن التاسع عشر هي افضل صورة قدمت عن كتاب تقويم البلدان وقد ترجمه الى الفرنسية المستشرق رينود Reinaud . وظهر المتن العربي مع مقدمة إضافية عن سيرة ابي الفداء ومؤلفه عام ١٨٤٠(٢) ، وظل اثر الكتاب قائماً في اوربة حتى اواسط القرن التاسع عشر .

---

(١) تاريخ الادب الجغرافي العربي ص٣٩٤ (كراتشكوفسكي)

(٢) اعتمدنا في هذا المقال على طبعة (باريس ١٨٤٠)

وفي الشرق رتبه سباهي زادة التركي (القرن السادس عشر) (١) على حروف المعجم باللغة العربية واخرجه بعنوان « اوضح المسالك في معرفة البلدان والممالك » كما نقله الى التركية .

هذا وإذا نظرنا إلى التقويم الموضوعي العلمي لكتاب (تقويم البلدان) نجد بأن اكثر الكتاب تناقلوا ماجاء في مقدمة رينودو دي سلان التي صدرا بها النسخة العربية والترجمة الفرنسية والدراسة التي وضعها كراتشكوفسكي ، بالاضافة الى ماورد في دائرة المعارف الاسلامية وما اورده عدد من المستشرقين من احكام ، ولكن الآراء التي ابديت تتفاوت بين النقيضين فمن قول « كرومرز بأن كتاب تقويم البلدان اقرب الى تصنيف هزيل للمصادر الاقدم منه ، الى قول سارتون « ان ابا الفداء اعظم جغرافي في عصره » وقول رينود انه « يمثل الى جانب الادريسي مؤلفاً ضخماً في مجاله » و « ان العصور الوسطى الاوربية لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته به » .

ويعلق كراتشوفسكي على ذلك بقوله « لايزال هذا الحكم صحيحاً في جوهره حتى ايامنا هذه ، ولكن يجب ان تعدل بعض تفاصيله على ضوء تطور البحث في مجال الادب الجغرافي منذ اصدر رينود حكمه هذا (٢) » ويضيف الى ذلك قوله ولكن الاخطاء قد تسربت الى مادة الكتاب في بعض المواضيع كوصفه لافريقية الجنوبية ، وكالخلط في القسم الخاص بالهند والتخبط في المعلومات عن الصين ، بينما يقول رينود ودي سلان في مقدمتها ان المعلومات الواردة عن الهند قدمها شخص زار المنطقة ومكنته من اعطاء وصف قصير عن تلك البلاد ولكنه صحيح بوجه عام .

أما اماري فيقول : بأن كتاب تقويم البلدان قد حاز الاعجاب « لاسلوبه المتزن ونقده القويم » .

وفي الشرق قال شرف الدين حسين بن ريان في تعليق شعري على كتاب تقويم البلدان في حياة ابي الفداء نفسه : ما معناه « هذا الكتاب يثير الاعجاب لتجديد والاعداد والانشاء وان انشاءه يفوق جميع الكتب الاخرى » ويقول « ويجد فيه المرء في الواقع الاوصاف والأشياء العجيبة » .

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافي العربي صفحة ٣٣٥

(٢) المصدر السابق الجزء الأول ص ٣٨٩

ويبدو أن شخصية ابي الفداء قد أثرت في الحكم على كتابه وجمعت بينهما ، اذ يقول شرف الدين المذكور نفسه « انما نجده عاشقاً للعلم ، نهماً للمعرفة ، لا يشبع من العلم ، حباً له حتى ليكاد يكون مجنوناً بالمعلومات من كل نوع » .

ومع ذلك وبغض النظر عن الاحكام المتطرفة الآنفة الذكر ، ومن المفاضلة بين كتاب ابي الفداء وغيره من الكتب ، لأنها لا يمكن ان تكون مفاضلة موضوعية لتباين الشروط المحيطة بتأليف كل منها ، وتخص منها الدوافع والأهداف التي حدت بالمؤلف الى وضع كتابه والأطار الذي يحدده به ، فاننا سنحصر بحثنا عن الآفاق الجغرافية عند أبي الفداء في استعراض اهم ما تضمنتها منها نصوص كتابه « تقويم البلدان » وتحليل بعضها ، وقد اعتمدنا في ذلك على طبعة باريس عام ١٨٨٠ التي أشرف عليها رينود ، ودى سلان عضو الجمعية الآسيوية في العاصمة الفرنسية في القرن الماضي والمحفوظة لدى المكتبة الظاهرية بدمشق .

التفكير الجغرافي العام عند ابي الفداء :

المطالع لكتاب تقويم البلدان يستطيع ان يرى بوضوح بروز الاتجاه الجغرافي ، والمعلومات الجغرافية وطغيانها على عكس الحال مثلا في اقرب كتاب سابق له بنحو قرن هو كتاب معجم البلدان ، الذي تتبعثر فيه المعلومات الجغرافية على غير هدى وسط المعلومات الأدبية والتاريخية والأسطورية وسواها ، وهي تفاصيل لا تتفق ولا تنسجم مع العرض الجغرافي . ويمكن ان يعتبر ابو الفداء نقطة تحول في طريقة الدراسات الجغرافية كما يمكن اعتباره احد الرواد المبكرين للجغرافية الحديثة وذلك للأسباب التالية :

١ — يعطي ابو الفداء أهمية كبرى لتحديد المواقع بغية تحديد العلاقات والروابط بين العوامل الطبيعية على اختلافها وبينها وبين الظاهرات البشرية ومنها المسافات والابعاد الفاصلة بين المواقع ، وفي هذا تأكيد لفكرة مكانية علم الجغرافية (١) .

---

(١) يزيد ابو الفداء تأكيده لاهمية تحديد المكان من ايضاحه خطأ ارقام خطوط الطول والعرض التي أوردها بعض المؤلفين لبعض المواقع كما فعل البيروني بذكره عرضاً واحداً لدمشق والسلمية ، وعدم دقة كثيرة من الارقام التي اوردها هو نفسه بسبب استنتاج العروض والأطوال بتحويل الايام والفراسخ والاميال الى درجات (درج) وبسبب تضرس سطح الارض .

٢ – عند ابي الفداء بدايات طيبة للتفريق بين الجغرافية العامة التي تنظر نظرة كلية الى الظاهرات الموجودة على سطح الارض ، وصفا وربطاً ومقارنة وتعليلا والتي دعاها جملة الارض او رسم الارض ، وبين الجغرافية الاقليمية التي هي وصف وتطبيق لما يوجد من تلك الظاهرات في الأماكن المختلفة التي سكنها الانسان ، فتكونت من تلك الظاهرات نماذج متمايزة في المكان و « اللسان والمعاش » وقد جعل منها ابو الفداء ثمانية وعشرين مكاناً (١) اطلق عليه اسم الاقليم العرفي (٢) وذلك ضمن الاقاليم الطبيعية او المناخية التي أطلق عليها اسم « الاقليم الحقيقي » الناجم فعلا عن الموقع العام للاقليم على سطح الارض ، واختلافه بين الحرارة والاعتدال والبرودة ، غير ان ابا الفداء جانب الصواب في اعتبار الاقليم الاول يبدأ من عرض ١٢ درجة شمال خط الاستواء، وجعل نهاية الاقليم السابع درجة عرض ٤٠ درجة شمال خط الاستواء لافتراض ما يقع في اقصى الجنوب واقصى الشمال غير معمور في معظمه، وخرب بفعل الحرارة الشديدة والبرودة الشديدة ، وبذلك اعتبر الاقاليم ممتدة في الجهات التي قطنها الانسان فقط وفق نظرية الربع المعمور من الارض مع ان الاقاليم الطبيعية لا تتعلق بوجود الانسان غير ان ابا الفداء كان عملياً في نظرته التي تناسب الشروط السياسية والاقتصادية السائدة في العالم آنذاك .

٣ – المحاكمة السليمة والنقد الموضوعي المتواضع في مختلف ابحاث كتاب تقويم البلدان ، يجد المرء تلك الروح ، بل يكاد يجدها في مختلف صفحات الكتاب .

---

(١) تلك وردت على الترتيب : جزيرة العرب ، مصر ، المغرب ، السودان ، جزيرة الاندلس ، جزائر بحر الروم والمحيط الغربي ، شمالي الارض ، الشام ، الجزيرة بين دجلة والفرات ، العراق ، خوزستان ، فارس ، كرمان ، سجستان ، الهند ، الصين ، جزائر ، بحر الشرق ، بلاد الروم ، ارمينيا وايران واذربيجان ، عراق العجم ، الديلم والجبل ، طبرستان ، ومازندران وقومس ، خراسان ، زابلستان والغور ، طخارستان وبذخشان ، خوارزم ، ماوراء النهر .

(٢) يعترف ابو الفداء بعدم وضع حدود بين الاقاليم العرفية لتداخلها بحيث يتعذر تحديدها وفق جهاتها الاربع او داخل اقليم طبيعي (حقيقي)واحد. وان معظم الاقاليم العرفية ينتمي كل منها الى اكثر من اقليم طبيعي (مثلاً بلاد الشام مقسمة بين الاقليمين الثالث والرابع) (المصدر نفسه ص ٧٢)

-فمنذ مطلعه يذكر ابو الفداء اهمال من سبقوه من ائمة ذلك العلم في موضوع ضبط المواقع من حيث اطوالها وعروضها وسمياتها، وانهم يهملونها كليا (ابن حوقل والادريسي وابن خرداذبة) او جزئيا (ياقوت الحموي ، السمعاني ، الموصلي) يقول ابو الفداء ومع الجهل بالاطوال والعروض يجهل سمت ذلك البلد فلا يعرف الشرقي منها ولا الغربي ولا الجنوبي ولا الشمالي ولما وقفنا على ذلك وتأملناه جميعاً في هذا المختصر ماتفرق في الكتب – من غير ان ندعي الاحاطة بجميع البلاد او بغالبها فان ذلك امر لامطمع في الاحاطة به(١) .

ومن امثلة محاكاته السليمة ونقده البناء قوله بمناسبة الكلام عن الاقاليم « وقد رأينا غالب واضعي الكتب المؤلفة في الأطوال والعروض من الزيجات وغيرها لايحافظون فيها على اثبات الاماكن في مواضعها من الاقاليم ثم يثبتون بعض اماكن الاقليم في الاقليم الاخر ، ومن تأمل ذلك وكشفه تحقق صحة ماذكرناه ، ونحن قد رأينا ذلك واثبتنا كل مكان في اقليمه» (٢) ويعني ابو الفداء بقوله هذا ان الكثير من المؤلفين لايدققون في نسبة الاماكن من مدن وسواها من ظاهرات الى الاقاليم الحقيقية التي تنتمي اليها ، او انهم لنقص في التدقيق ينسبونها الى اقاليم غير اقاليمها الصحيحة .

٤ – محاولة تصحيح الاخطاء عند التأكد من وجودها فان تضاربت الاراء ولم تستبن له الحقيقة ذكر مختلف الاراء ، اما اذا استبانت فيقف الى جانب الحقيقة . فمن تصحيحاته ما اورده بمناسبة بلده الحجر (٣) «قال ابن حوقل والحجر بين جبال على يوم من وادي القرى اقول لم يحصل ذلك فان بينهما اكثر من خمسة ايام » ثم يتابع «واضافة اقول وهي التي ينزلها حجاج الشام وهي عن العلى على نحو نصف مرحلة من جهة الشام».

ومثال اخر : حول تبوك(٤) يقول فيه « قال في القانون وتبوك في البر على محاذاة مدين أقول تبوك في الشرق ومدين في الغرب » .

وفي حالات كثيرة جدا عندما كان ابو الفداء لايستطيع البت بدرجة طول وعرض

---

(١) تقويم البلدان ص٣

(٢) تقويم البلدان ص ٩ – ١٠

(٣) المصدر السابق ص٨٩

(٤) المصدر السابق ص٨٧

الاماكن كان يورد الارقام المختلفة التي وضعها المؤلفون ، وهذه الاختلافات كانت كثيرة في عهد ابي الفداء لعدم وجود مصورات للاقاليم المختلفة ولمواقع الاماكن فيها .

وفي بعض المواطن يبدي حكمه كما في كلامه عن نهر سيحون(١)« ووجدت النقل فيه مختلفا واخترت ماذكره ابن حوقل فانه يحكي ذلك عن مشاهده » .

٥ - طريقة التأليف : رغم ان ابا الفداء بدأ كثيره بالكوزموغرافية اوالجغرافية العامة الا أن مقدمة فيها جاءت متسلسلة مترابطة ، فقد استهلها بالجغرافية الرياضية ، فالاقاليم الحقيقية ، فظاهرات سطح الارض من بحر وبحيرات فانهار فجبال .

ثم ينتقل الى الجغرافية الاقليمية اذ اضحت التسمية او الى دراسة الاقاليم العرفية ، وهو في هذا الشأن ينحو نحو البلخي في اعطاء الاهمية الكبرى للاقاليم العرفية ، التي يبلغ عددها ٢٨ هي التي سبق ذكرها ، اتبع في ترتيبها نسق ابن حوقل ، وينقسم بعض تلك الاقاليم الى اقاليم عرفية صغرى ، لذلك درس الاقاليم العرفية دراسة منهجية اذ كان يقدم لكل اقليم عرفي بمقدمة عامة عن حدوده وموقعه مما حوله ، وبعض مظاهره الطبيعية ومراكزه البشرية قبل ان ينتقل الى التقاويم او الجداول التي يذكر فيها اهم مدن الاقليم وقراه ، وكل جدول او لوحة تمتد على صفحتين ، الصفحة الاولى لضبط المسميات وتحديدها جغرافيا ولغويا مع الاشارة الى المصادر المنقول عنها . في حين يخصص الصفحة المقابلة للاوصاف «الاخبار العامة» ويلاحظ فيها الايجاز الدال والتركيز على الاثر التاريخي للمكان المدروس وتحديد موقعه واهم مظاهره الطبيعية وبعض نشاطاته البشرية والاقتصادية ، كما يشير الى الطرق التي تصله بغيره .

٦ - المقارنة والموازنة : ويمكن اعتبارهما جزءاً من طريقة أبي الفداء في عرض الحقائق وتوضيحها ، وهذا يدل على حضور الذهن ، والقدرة على الربط بين الظاهرات المتماثلة الناتجة عن عوامل واحدة . وهـذه المقارنات كثيرة جداً في كتابه وذات قيمة وهذه أمثلة عنه :

يقول في كتابه عن قابس(٢) وقابس في افريقية كدمشق في الشام ، وينزل اليها نهران من الجبل في جنوبها يخترقان غوطتها .

---

(١) تقويم البلدان ص٦١

(٢) تقويم البلدان ص ١٤٢ .

— ويقول عن نهر السند(١) . « وهو نهر كبير عذب جداً ويشبه نيل مصر بان فيه تماسيح ، وانه يرتفع ويركب البلاد ثم ينزل فيزرع عليه » وفي ذلك اشارة واضحة الى تماثل فيضان نهري السند والنيل والى زراعة ري الحياض فيهما وهو الري القائم على غمرة الأرض مرة واحدة تليه زراعة المحصول الشتوي .

ويورد أبي الفداء مقارنة أخرى بنهر النيل موضحاً فصل الفيضان فيقول عن مقديشو(٢) « ولها نهر عظيم يشبه نيل مصر في زيادته في الصيف » كذلك يقرن نهر شليف بالجزائر بنهر النيل بقوله انه مثله يزيد عند نقص الانهار ، ومن قبيل المقارنة والربط ما ذكره عن نهر اشبيلية(٣) (والنهر الأعظم) أو الوادي الكبير . فقد قال انه (في قدر نهر دجلة) ، ويقع فيه المد والجزر من البحر مثل دجلة عند البصرة .

٧ — الربط والتعليل : لم تكن جغرافية أبي الفداء وصفية فقط بـل تعني في مواضع كثيرة بالربط والتعليل : فمثلا عند الكلام عن بطائح العراق(٤) (أي بحيراته) يوضح علاقاتها بالانهار (مياه دجلة والفرات) وانها تحدث في أوقات الحروب (أي عندما يختل الامن وتخرب مشروعات الري فتكون ان بطائح واسط حدثت عند اشتغال الفرس بقتال المسلمين في أول الاسلام .

وفي موضع آخر وعند كلامه عن مدينة بلار(٥) (أي بلغار) في منطقة الفولغا، يربط بين شدة البرد وعدم وجود الفواكه وحتى العنب ، كما يربط بين درجة العرض وعدم غياب الشفق في أوائل فصل الصيف فيقول :

وهي بلدة في نهاية العمارة الشمالية ..... ولا يكون بهـا شيء من الفواكه ، ولا اشجار للفواكه لشدة بردها ، وكذلك العنب لا يوجد بها ...... حكى لي بعض أهلها ان في أول الصيف لا يغيب الشفق ، ويكون ليلها في غاية القصر ؛ وهذا الذي حكاه صحيح موافق لما يظهر بالاعمال الفلكية ، لأن من عرض ٤٨،٣٠° يبتدىءعدم غيبوبة الشفق

(١) المصدر نفسه ص ٣٢
(٢) المصدر نفسه ص ١٦١ .
(٣) تقويم البلدان ص ٤٦ — ٤٧ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٣ .
(٤) المصدر السابق ٤٣ .
(٥) المصدر السابق ص ٢١٧ .

في أول الصيف ، وعرضها (أي المدينة) أكبر من ذلك ، فصح ما تقدم على كل تقدير ،

ومن ذلك القبيل يقول في أراضي سجستان(١): بها الرمان والنخيل وهي ارض سهلة لا يرى فيها جبل ، وتشتد بها الريح وتدوم ، وبها أرحية تطحن بالريح ، وتنقل بالرياح رمالهم من مكان الى مكان آخر .

فهو بذلك يربط بين الأرض السهلة وشدة الريح وبين وجود الطواحين الهوائية التي اقامها الانسان لخدمته ، كما استخدم الرياح لنقل الرمال من مكان الى مكان .

الافكار الجغرافية العامة عند ابي الفداء

ان ما ذكرته سابقا يمثل اهم مميزات الفكر الجغرافي عند ابي الفداء ، ولكن الافكار والآراء والملاحظات الجغرافية التي اثبتها ابو الفداء في كتابه ذات قيمة كبيرة ، حتى من وجهة نظر العصر الحاضر ولا يقلل من هذه القيمة ان ابا الفداء نقلها عن غيره ، لان حسن تخير المعلومات واثباتها في المواضع المناسبة لاستكمال وحدة الموضـــوع واعطاء الصورة الملائمة واسلوب العرض الواضـــح السهل كلها امور تجعل ابا الفداء مولفا امثل في عصره .

وان تلك الافكار نجدها مبثوثة في مختلف ابحاث الكتاب سواء في المقدمـة التي تشغل ٨٥ صفحة من مجموع الكتاب البالغة ٥٦٠ صفحة او في الاقاليم العرفية والجداول التقويمية للاماكن الموجودة فيها . ونحن نورد نماذج منها :

١ — في موضوع كروية الارض (٢) : يورد ابو الفداء الشواهد المستقاة من علم الهيئة (الفلك) فيذكر تقدم طلوع الكواكب وتقدم غروبها في الشـرق عنها في الغرب (مما يدل على الاستدارة شرقاً وغرباً) اما استدارة الارض بين الشمال والجنوب فيذكر الدليل عليها بارتفاع نجم القطب والكواكب الشماليـة والمحطاط الجنوبية منها بالنسبة للواغلين نحو الشمال ، ويحدث العكس عندما تتجه نحو الجنوب . اما كون سطح الارض مضرسا بالجبال والاغوار فيذكر ابو الفداء ان هذا التضريس لا يخرجها عن الاستدارة ويقول « ان جبلا يرتفع نصف فرسخ (ميلا ونصف) يكون عند جملة الارض كخمس سبع من عرض شعيرة (١/٣٥ منها) عند كرة قطرها ذراع » .

(١) المصدر السابق ص ٣٤١ .

(٢) تقويم البلدان ص ٣ .

٢ – اختلاف التوقيت على سطح الارض بين الشرق والغرب (١) : يقول أبو الفداء لو كان السير على جميع الارض ممكنا ثم فرض تفرق ثلاثة أشخاص من موضع بعينه ، فسار احدهم نحو المغرب والثاني نحو المشرق واقام الثالث حتى دار السائران دورا من الارض (اي محيط الارض) ورجع السائر في الغرب اليه من جهة الشرق والسائر في الشرق من جهة الغرب ، نقص من الايام التي عدوها جميعا للغربي واحد وزاد للشرقي واحد . ويورد ابو الفداء البرهان على ذلك بوضوح فيقول : « لأن الذي سار الى الغرب ولنفرض انه دار الارض في سبعة ايام سار موافقا لسير الشمس فيتأخر غروبها عنه بمقدار سبع الدور (المحيط) بالتقريب وهو ما يسيره في كل يوم ، ففي سبعة ايام حصل له دور كامل وهو يوم بكماله ، والذي سار الى الشرق كان سيره مخالفاً لسير الشمس فتغرب الشمس عنه قبل ان يصل الى سبع الدور فيجتمع من ذلك مقدار يوم فتزيد ايامه يوما كاملا ، فلو كان افتراقهم يوم الجمعة ثم حضر الى المقيم الجمعة الاخرى فانه يكون بالنسبة الى المقيم يوم الجمعة وبالنسبة الى المغربي الذي حضر من المشرق يوم الخميس وبالنسبة الى المشرقي الذي حضر من المغرب يوم السبت ، و كذلك الحال لو فرضت هذه الصورة في الأشهر أو السنين (اي لو قطع محيط الارض في شهور او في سنين) .

٣ – وجود فصلين اثنين (٢) اكل من الفصول الاربعة المعروفة (أي صيفان وخريفان وشتاءان وربيعان) في المناطق الواقعة بين المدارين تبعاً لحركة الشمس الظاهرية ، وتعامد الشمس مرتين في العام ، وهذا مايجعل التمايز والاختلاف بين الفصول في المنطقة الواقعة بين المدارين ضعيفاً .

٤ – موضوع تقسيم المعمورة الى سبعة أقاليم (٣) . ان مبدأ تقسيم المعمورة الى أقاليم سبعة هو تتابع الاقاليم عرضياً بالنسبة لأبي الفداء من نيف و ١٢ درجة شمال خط الاستواء الى نيف وخمسين درجة في شماله ، وان كل اقليم يقع تحت مدار (دائرة) تتشابه أحوال البقاع فيه وقد ركز أبو الفداء على زيادة الاختلاف نصف ساعة في طول الليل والنهار كلما انتقلنا شمالاً من اقليم الى آخر ، ولم يميز أبو الفداء اختلاف الاقاليم طولياً أي بين الشرق والغرب لأن هذا التمييز الاخير من ثمرات القرن

(١) المصدر السابق ص ٣ – ٤ .

(٢) تقويم البلدان ٦ – ٧

(٣) المصدر السابق ٧ – ١٣

التاسع عشر . ويعلل أبو الفداء اعتماداً على الاختلاف العرضي في التمييز بين الأقاليم ، بأن الأصل في الاقاليم هو الاختلافات المحسوسة بينها ، وأظهرها لعامة الناس اختلاف الليل والنهار ، وعلى هذا فأقاليم أبي الفداء أشبه بالاقاليم الحرارية .

ه – اشارة أبي الفداء الى وجود اتصال جنوب البر (الافريقي) بين البحر المحيط الهندي (البحر الأعظم) وبحر أدقيانوس المحيط الأطلسي ، وهو أمر لم يثبت للعالم إلا عام ١٤٩٨ على يد فاسكو دوغاما عندما عبر رأس الرجاء الصالح .

٦ – يلتزم أبي الفداء حدود الأفكار الجغرافية عندما كان يناقش موضوع تغطية البحر لثلاثة أرباع المعمورة وكأنه يعي الحدود بين الجغرافية والفيزياء بعدم الخوض في تفاصيل التكافؤ بين الماء واليابسة (الصخور) لأن ذلك يدخل في أبحاث العناصر التي تختص به الكتب الحكمية (الفيزيائية) .

هناك اهتمام كبير بموضوعات النشاط البشري والاقتصادي وعلاقته بالشروط الطبيعية والمبادلات التجارية في ذلك العهد وبعضها يعتبر من الطرافة بمكان وتضرب أمثلة على ذلك .

آ – ما ورد في معرض الكلام عن طلوزة (١) (تولوز) وصاحبها الفرنجي قريب من صاحب فرنسة ، والنهر في جنوبها ، يصعد منه مراكب البحر المحيط الها بالقصدير والنحاس اللذان يجلبان من جزيرة انكلتره (بريطانيا) وجزيرة ايرلنده ، وتحمل على الظهر (أي على ظهور الدواب) الى ربونة (على البحر المتوسط) ومنها تحمل في مراكب الفرنجة الى الاسكندرية وقيمة هذا النص في أن نقل البضائع من غربي أوربة الى مناطق البحر المتوسط كان يتبع طريقاً مختصرة جداً لتلافي الدوران حول غرب وجنوب أسبانيا والمرور بمضيق جبل طارق .

ب – وما أورده أيضاً عن انكلتره (٢) قال : « وفي هذه الجزيرة معدن الذهب والفضة والنحاس والقصدير وليس فيها كروم لشدة البرد وأهلها يحملون جواهر هذه المعادن الى بلاد افرنسة ويتعوضون به الخمر ، فصاحب فرنسة انما كثر الذهب والفضة عنده ، من ذلك ، وعندهم (أي عند الانكليز) يصنع الاشكرلاط العال من صوف

(١) المصدر السابق ص٢١٩

(٢) المصدر السابق ص٨٨٠

غنمهم الذي هو ناعم كالحرير ، فيجعلون عليها (أي على الغنم) جلالا تقيها من الأمطار والشمس والغبار .

جـ – وماذكره عن اعزاز (١) ومعظم تربتها أحمر فهي تفن النفس وأكثر مايزرع فيها القطن الذي يحمل في المراكب إلى سبتة فيعم بلاد المغرب ، وقد خضبت أرضها بالفستق الكثير وقد خص بالثمر المعروف بالاجاص ماله نظير ولا يستطيعون يوصلنه (كذا) الى حلب لأنه يستحيل ماء في الطريق .

د – الاشارة إلى استصلاح سهل البقاع بتصريف بحيرة البقاع وكان ذلك هدفاًمن أهداف الاصلاح الزراعي الراهن في لبنان . يقول أبي الفداء(٢) « بحيرة البقاع كانت غابة أقصاب وقس يعمل منه الحصر وسط البقاع البعلبكي بين كرك نوح عليه السلام وبين عين الجر ، وفي أيام الأمير سيف الدين تنكز اشتراها لنفسه من بيت المال وحفر بها أنهراً كثيرة ترمي على ليطة – (الليطاني) حتى نصفي الماء من أراضيها وعمرت قرايا مايليف عن عشرين قرية وأقبلت غلاتها هي لا يوصف ولا يحد" بطيخ وقثاء وحصل للناس نفع عظيم ومعاش ، ونصب في اولها قياس حور خشب وعمر طواحين ، والذي كان دله على ذلك علاء الدين بن صبيح ، وكان من أهل تلك الناحية » .

هـ – وعلى عكس ذلك يذكر أبو الفداء موضوع حجز الماء على بحيرة قدس وهي بحيرة حمص(٣) : يقول أبو الفداء « طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلث مرحلة ، وسعتها طول السد حسبما نذكره ، وهي مصنوعة على نهر الارنط (العاصي) فانه قد صنع في طرف البحيرة الشمالي سد بالحجر من عمارة الاوائل ، وينسب الى الاسكندر ، وعلى وسط السد المذكور برجان من الحجر الاسود ، وطول السد شرقاً وغرباً الفا ومايتان وسبعة وثمانون ذراعاً وعرضه ثمانيةعشر ذراعاً ونصف ذراع وهو حابسلذلك الماء العظيم بحيث لو خرب السد سال الماء وعدمت البحيرة وصارت نهراً وهي في ارض مستوية » .

و – ومثال آخر عن الربط بين العوامل الطبيعية والظاهرات البشرية ما قاله عن

---

(١) تقويم البلدان ص ٢٣٢

(٢) تقويم البلدان ص ٤٠

(٣) تقويم البلدان ص ٤٠

جرجان(١) (في شمالي ايران) من جمل مترابطة تكون حقائقها متوالية توالياً منطقياً او متوالدة توالداً سببياً يقول « وجرجان بلد كثير الامطار متصل الشتاء وفي وسطها نهر يجري ، وهي قريبة من البحر الخزر ، والجبال محتفة بها فهي سهلية جبلية ، يجتمع فيها فواكه الغور والنجد وبها من خشب الخليج (الخلنج) ما ليس في بلد آخر مثله . وشبيه بذلك ماذكره عن ارجان (بين فارس وخوزستان) اي عربستان ، وهي مدينة كبيرة كثيرة الخير ، وبها النخل والزيتون كثير وهي برية بحرية سهلية جبلية ، وهي عن البحر على مرحلة » . ومعنى ذلك وعي ابي الفداء بجمع بعض الاماكن صفات من اقاليم مختلفة فالنخل والزيتون يدل على الاقليمين الحار والمعتدل وكذلك الحال بالنسبة لتعبير سهلي جبلي .

٨ — ومن الطرف ما نقله أبو الفداء عن ابن سعيد في معرض كلامه عن الفرما(٢) على شاطيء البحر المتوسط « عند الفرما يقرب بحر الروم (المتوسط) من بحر القلزم (الاحمر) حتى يبقى بينهما نحو سبعين ميلاً ، قال وكان عمرو بن العاص اراد ان يخرق ما بينهما في مكان يعرف الى الآن بذنب التمساح ، فنهاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال كانت الروم تتخطف الحجاج » ومعنى هذا القول وجود فكرة قديمة لشق قناة السويس ، وخطورة القناة على العرب من الناحية الاستراتيجية في رأي عمر بن الخطاب اذ خشي على الحجاج من عبور الروم القناة بمراكبهم الى البحر الاحمر وتخطفهم للحجاج وقد تحققت مخاوف عمر من الافادة من القناة ضدالعرب في احدث صورها عندماعبرت حاملة طائرات امريكية قبل يوم واحد من عدوان عام ١٩٦٧ قناة السويس ، والقت مراسيها في البحر الاحمر وقدمت كل عون للدولة اليهودية في فلسطين في غزوها لاراضي مصر .

٩ — المصطلحات والمسميات : يستخدم ابو الفداء المصطلحات والمسميات التي كانت سائدة في عصره كما يستعمل تعبيرات جغرافية ليست عسيرة على الفهم . ونحن نورد ثبتاً بأهمها في هذا البحث مع ما يقابلها من تعبيرات ومصطلحات حالية .

١٠ — مآخذ من كتاب ابي الفداء : آ — هناك اخطاء مبعثرة في مواضيع عديدة نقلها ابو الفداء عن غيره دون ان يكشف عن خطئها كما فعل في مواضع اخرى ،

(١) تقويم البلدان ص٤٣٨ — ٤٣٩

(٢) تقويم البلدان ص١٠٦

وبعضها كان غير بعيد عن خبراته وطرق رحلاته كعدم التفريق بين جبال لبنان الشرقية والغربية . يقول ابو الفداء(١) جبل الثلج (اي جبل الشيخ) وجبل لبنان ، وجبل اللكام (اي جبال العلويين) جميع هذه الجبال متصلة بعضها ببعض حتى صارت جبلاً ممتداً من الجنوب الى الشمال فالطرف الجنوبي لهذا الجبل ،لقرب من صفد (وهو موقع جبل عامل والجليل الشمالي) ثم ينقل ما قيل في رسم الارض لبطليموس « طرف جبل الثلج حيث الطول ٥٤٠ ٩٠ والعرض ٣٢° وهو يمتد الى الشمال ويتجاوز دمشق ويمر غربي بعلبك ويسمى الجبل المقابل لبعلبك جبل لبنان ، واذا تجاوز بعلبك وصار شرقي طرابلس الشام يسمى جبل عكار الخ .. » يتضح من الكلام المذكور الخلط بين جبل الشيخ وجبال لبنان الغربية ثم الخلط بين جبال لبنان الشرقية والغربية وهذا امر مستغرب وروده عند ابي الفداء الذي لم يكن بعيداً عن تلك المواقع ونقل ما كتبه غيره دون تمحيص .

ومثال آخر على ماورد من اخطاء ، ما قاله عن نهر الهرماس(٢) (جغجغ) وذكره ان نهر الثرثار في الجزيرة العراقية يتشعب من نهر جغجغ قبل ان يصب هذا الاخير في الخابور ، ويلحقه بخطأ آخر وهو ان نهر الثرثار يصب في دجلة عند تكريت في العراق

وفي حالات اخرى يقع ابو الفداء في الخطأ عندما يناقش بعض الحقائق فيوجود بعض الحقائق مثل موضوع وجود الثلج على جبل القمر وهو احد جبال افريقية الشرقية الذي كان يعتقد ان النيل يلبسبع منها يقول ابو الفداء (٣) وهو جبل في الخراب الجنوبي وعرضه ١١ درجة جنوبي خط الاستواء ومنه ينابيع نيل مصر من عشر سيلات تنحدر منه ، قال النصير الطوسي في التذكرة انهم شاهدوه من بعد وهو ابيض من الثلج الذي عليه ، وهو عندي مستبعد فان عرض ١١ درجة في غاية الحرارة ويعتبر من عرض ١١ الشمالي وهو عرض عدن من اليمن فان وقوع الثلج في مثل عرض عدن لم يسمح به في زمن من الازمان والجانب الجنوبي مثل الشمالي بل اشد حرارة لحضيض الش س . وعلى ذلك يأخذ ابو الفداء في اعتباره درجة العرض فقط دون أن يلتفت الى الارتفاع الشاهق

---

(١) تقويم البلدان ص٦٨
(٢) تقويم البلدان ص٥٢
(٣) تقويم البلدان ص٦٠

(نحو ۰۰۰۰ ٥ متر) ، فمثل هذا الارتفاع غير موجود في منطقة عدن ، كما لم يلتفت الى كثرة الرطوبة الذي يتولد منها المطر والثلج في جنوب خط الاستواء وهي لا توازت بما في منطقة عدن الصحراوية الجافة . كذلك اخذ في الاعتبار قرب الشمس من نصف الكرة الجنوبي (الحضيض) في رفـع درجة الحرارة وهذا ليس له تأثير ملحوظ .

ومن اخطاء المسميات التي وقـع فيها ابو الفداء اطلاقه اسم العرب على البـدو الذين نسب إليهم خراب عدد من الاماكن ولا سيا في المغرب العربي (تونس) فقد اشار الى ذلك مراراً في معرض كلامه عن القيروان وسوسة وبنزرت وطبرقة في تونس وسجلماسة في المغرب الاقصى الخ ... وهذا ماوقـع فيه ابن خلدون ايضاً .

ومن المآخذ عـلى ابي الفداء رغم جهده التصنيفي الضخم انه لم يضع الاماكن والظاهرات وفق ترتيب منطقي مناسب ، سواء في مقدمته العامة او في مقدمات الاقاليم العرفية ، فهو يقفز قفزات كبيرة بين مكان وآخر وظاهرات واخرى ، فمثلاً ينتقل من بحيرة كوري منبع النيل الى بحيرة سودان في المغرب الاقصى ، ومن نهر النيل الى نهر السوس الاقصى في المغرب ومن جزيرة قوصرة مروراً قرب القسطنطينية وحتى في الجداول ، اهمل ابو الفداء ترتيب الاماكن على اساس ابجدي او جغرافي فهو مثل ينتقل في بلاد الشام من بيروت الى رسوس (كيليكيا) الى صيدا الى مصيصة (كيليكية) إلى طرابلس إلى اذرعات الى المرقب الى بعلبك الخ ....

خاتمة :

وأخيراً مما لاشك فيه ان كتاب تقويم البلدان قد ملأ فراغاً كبيراً في كونه مرجعاً جغرافياً مختصراً ومركزاً بالنسبة للعصر الذي وجد فيه سواء في المشرق العربي والاسلامي والغرب الأوربي في عصر اشتد الاقبال فيه على اكتشاف أطراف الأرض ، وقـدم فيه معلومات تمثل خلاصة المعارف الجغرافية التي كانت سائدة قبله مضافاً اليهـا المعلومات المحصلة في عصره ، ولا نعتقد ان هناك كتاباً جغرافياً آخر كان يمكن ان يحل مكانه من تلك الزاوية ، وربما كان الشيء البارز الذي قصر فيه أبا الفداء عن متطلبات ذلك العصر على المستوى الدولي انه لم يقرن كتابه برسوم أو مصورات لتحديد المواقع والآفـاق الجغرافية بصورة أفضل في الوقت الذي كان انتقال الانسان عبر البر والبحر يتسع شيئاً

فشيئاً ، ولا سيما وانه كانت لدى أبي الفداء امكانات لم تكن متاحة لسواه كحاكم متنقل ممتاز في بقعة من الشرق العربي كانت محط انظار العالم المأهول .

ومع ذلك ظل أبو الفداء علماً من أعلام تلك البقعة تلقف كتابه الشرق والغرب على السواء كما ظل عنوان مدينة حماه وعلمها المرفوع الذي نسبت اليه ، وفي هذا دليل على امكانات العطاء الثقافي الذي يمكن ان تقدمه أرض وطننا العربي عندما تجد الانسان الذي يضع في خدمتها يده وعقله وقلبه ، فتحية لأبي الفداء العالم الانسان بمناسبة مرور ٧٠٠ عام ونيف على ولادته لما قدم لامته وللانسانية من ثمرات، وتحية للتربة التي يرقد فيها ، وللمدينة التي رأى فيها النور والمدينة التي شهدت اغماضته الأخيرة .

أهم المراجع التي استند اليها هذا البحث :

— كتاب تقويم البلدان: تأليف — عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء صاحب حماة: النص العربي المنشور وفق مخطوطتي باريس وليدن بمساعدة، رينود والبارون ماك غوكين دي سلان — باريس ١٨٤٠ اعادة طبع مكتبة المثنى ببغداد والخانجي بمصر — المكتبة الظاهرية بدمشق .

— تاريخ الأدب الجغرافي العربي: تأليف يوليا نوفيتش كراتشكوفسكي — طبعة ليننغراد ١٩٥٧ — القسم الأول .

— دائرة المعارف الاسلامية : دائرة المعارف الاسلامية — المجلد الاول (اصدار مكتبة دار الشعب بمصر) .

— الجغرافية والرحلات عند العرب : تأليف الدكتور نقولا زيادة .

— اعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم — للدكتور عبدالرحمن حميدة .

— معجم البلدان ، لياقوت الحموي دار صادر — دار بيروت المجلد الاول الجزء الاول .

مسميات ومصطلحات جغرافية وردت في « تقويم البلدان »

المصطلح أو المسمى	ما يقابله في الوقت الحاضر
البطيحة	البحيرة
الكورة	المنطقة
مناير	اهراءات
البرية	البادية
الفرصة	المرفأ
الزقاق	المضيق
بحيرة زغرا والبحيرة المنتنة	البحر الميت
بحيرة دمشق	بحيرة العتيبة
بحيرة قدس	بحيرة حمص أو قطينة
بحيرة بانياس	بحيرة الحولة
الدور	المحيط
أنهار تقلب اليها أو تقع فيها أو ترمي	أنهار تصب فيها أو ترفدها
في الارنط أو النهر المقلوب	نهر العاصي
فوق انطاكية أو تحتها (على النهر)	قبلها أو بعدها
جبل الفتح	جبل طارق
جبل الثلج	جبل الشيخ
جبل سنير	جبل قدون
جبل اللكام	جبال العلويين
جبل الأرمن	جبال الاماتوس وطوروس
جبل شحشبو	جبل الزاوية
لحف الجبل	سفح الجبل
على سمت	على محاذاة (للطول أو العرض)
قاعدة	عاصمة
هرماس	الخابور

مذكرات

ابي الفداء

الدكتور نقولا زيادة

- ١ -

هذه الدراسة ليست تقييما للكتاب المختصر في اخبار البشر ، وليست هي ترجمة المؤلف . ولكن الذي فعلناه هو اننا انتزعنا من المختصر (وكل ذلك من الجزء الرابع من الطبعة الحسينية — القاهرة ، ١٣٢٥) مارواه ابو الفداء كشاهد عيان ، وماذكره على انه اشترك فيه ، ومادونه على انه سعى له. اي اننا حاولنا استخلاص ترجمته الذاتية من مؤلفه بالذات . وضمنا ذلك الى بعضه وجربنا ان نلقي بعض الضوء على شخصية ابي الفداء كما صورها هو بنفسه .

وتود ان نلفت نظر القارىء الى ان الرجل لم يكتب سيرة ذاتية لنفسه ، على نحو مافعل ابن خلدون (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا - القاهرة ، ١٩٥٠) كما انه لم يدون مايصح ان يسمى مذكرات ، على نحو مافعل اسامة ابن منقذ (كتاب الاعتبار ، برنستون ، ١٣٣٠) . بل ان ابا الفداء وضع هذا التاريخ المسمى المختصر، فلما جاء الوقت الذي كان فيه معاصرا للاحداث أعطانا عنها صورة ، لكنه لم يقحم نفسه الا قليلا ، كما سنرى .

واذا نحن أخذنا حياة ابي الفداء من الناحية السياسية والعسكرية اولا وجدنا انها يمكن ان تقسم الى فترات ثلاث رئيسة . الاولى تمتد الى سنة ٦٩٨/ ١٢٩٨ وهي سنة وفاة الملك المظفر محمود . والثانية تمتد من تلك السنة الى سنة ٧١٠ / ١٣١٠ وهي الفترة التي كانت حماة خارجة عن البيت الايوبي التقوي ، لما كان يحكمها نواب يعينهم السلطان المملوكي. اما الفترة الثالثة فتقع بين سنتي ٧١٠ و ٧٣٢ (١٣١٠ - ١٣٣١) وهي المدة التي عادت حماة الى البيت الايوبي التقوي في شخص مؤلف المختصر .

في الفترة الأولى نجد المؤلف يشير الى انه ليس التشاريف لما انعم السلطان المملوكي المنصور قلاوون (الالفي) على المظفر تقي الدين محمود بأن يلي أمور حماه بعد وفاة ابيه المنصور ناصر الدين احمد في سنة ٦٨٣ /١٢٨٤ (ص ١٩) . ثم يتحدث عن فتح المرقب ٦٨٤ / ١٢٨٥ ويقول عنه انه اول قتال حضره وكان عمره نحو اثنتي عشرة سنة وكان مع والده الملك الأفضل (ص ٢١) ، كما أنه كان بعد ذلك في فتح طرابلس سنة ٦٨٨ / ١٢٨٩ وكان بصحبة والده وابن عمه الملك المظفر صاحب حماة (ص٢٣). ولما اشترك في عكا سنة ٦٩٠ / ١٢٩١ كان قد اصبح أمير عشرة ، ولذلك سلم عجلة واحدة من المنجنيق العظيم (ص ٢٤) . والمؤلف حريص على أن يؤكد على انه حضر او شاهد حصارا بعينه دائما . من ذلك فتح قلعة الروم ٦٧١ / ١٢٩١ (ص ٢٧) . وفي سنة ٦٩٢ / ١٢٩٢ أعطى الملك المظفر ابن عمه ابا الفداء امره طبلخانة ،فأصبح تحت امرته أربعون فارسا (ص ٢١) . وكان لأبي الفداء دور في فتوح بلاد سيس أي بلاد الارمن ٦٩٧ /١٢٩٨ (ص ٣٥ - ٣٧) . وفي هذه الحملات جميعها كان ابوالفداء يسير بأمر من ابن عمه الملك المظفر .

وبوفاة الملك المظفر ١٢٩٨/٦٩٨ (٤١) خرجت حماة عن البيت التقوي الايوبي (ص ٤١ - ٤٢) . ويقول ابو الفداء « وكان الامير صارم الدين ازبك ...

حاضرا وفاته . واما اخواي اسد الدين عمر وبدر الدين حسن ابنا الملك الافضل فانهما حضرا الى حماة من حلب بعد وفاة الملك المظفر . ولما اجتمع المذكورون اختلفوا فيمن يكون صاحب حماة ، ولم ينتظم في ذلك حال » (ص ٤١ – ٤٢) . وهذه قضية «اي الاختلاف فيما يكون صاحب حماة» ، كنا نحب لو ان المؤلف حدثنا عنها بالتفصيل . فالواضح ان الملك المظفر لم يعقب فيخلفه ابنه على ما كانت عليه الحال من قيام سلطة البيت التقوى الايوبي بحماة . وكان الملك الافضل ، ابو ابي الفداء، وهم الملك المظفر ، قد توفي سنة ٦٩٢/١٢٩٣ (ص ٢٩) . وبذلك انتقل الحق في حماة الى ابناء عم الملك المظفر الثلاثة (ابي الفداء وعمر وحسن) . فاختلف الحاضرون فيما بينهم . فعلام كان الخلاف ؟ يقول ابو الفداء ان السلطان اعطى قراسنقر نيابة حماة فهل يعود ذلك الى الملك الناصر قلاوون ، الذي بدأ في تلك السنة سلطنته الثانية ، كان يود الحصول على تأييد قراسنقر فنقله من الصبيبة الى حماة ؟ (ص ٤٢) .

وعلى كل فان ابا الفداء يضيف الى ذلك قوله « ونزل [قراسنقر] بدار الملك المظفر صاحب حماة ، وقمنا بوظائف خدمته ، واخذ من تركة صاحب حماة ومنا اشياء كثيرة حتى اجحف بنا . ووصلت المناشير من مصر الى امراء حماة وجندها باستقرارهم على ما بأيديهم من الاقطاعات ، فاستمرينا على ما كان بأيدينا » (ص ٤٢) ولكن السلطان رسم في السنة نفسها بزيادة اقطاع ابي الفداء واخيه بدر الدين حسن فزيدا نقداً وذلك لما حصل ابو الفداء قماشاً وخيلا من اخويه ومن قراسنقر الى السلطان وهو مقيم بغزة (ص ٤٢) .

– ٢ –

هنا تبدأ الفترة الثانية في حياة أبي الفداء . ويبدو لنا الرجل حريصاً الحرص كله على أن تعود حماة الى البيت التقوى الايوبي وعلى ان يتم ذلك بشخصه . فنجده يرسل يعرض على الآراء الشريفة السلطانية اقامته بحماة على قاعدة أصحابها من أهله ، وذلك لما توفي نائبها كتبغا سنة ١٣٠٢/٧٠٢ (ص ٤٩ – ٥٠) . ولما وصل النائب الجديد « قبجق سنة ٧٠٣ / ١٣٠٣ ، خرج الجميع الى ملاقاته وعملوا له الضيافات وقدموا له التقادم .

وثمة عبارة من العبارات الغامضة التي يذكرها ابو الفداء حول قضية حماة وهي

[٧٠٩ / ١٣٠٩] في يوم الاربعاء خامس ذي الحجة حضر مهنا بن عيسى الى حماة وطلب توفيق الحال بيني وبين أخي بسبب حماة فلم يتفق حال (ص ٥٩) . فعلى أي شيء كان الخلاف وأي من الاخوين اختلف مع ابي الفداء ؟

وعين اسندمر نائبـاً للسلطنة بحماة ، وتجاهل السلطان البيت التقوى الأيوبي . ويبدو ان السلطان الناصر محمد كان يهتم بإرضاء اسندمر بحيث انه لما أعاد السلطان حماه الى البيت التقوى في شخص ابي الفداء وجعل استدمر نائباً بالسواحل لم يجب الأخير الى ذلك . ولكن الذي حل المشكلة هو وفاة قبجق الذي كان نائباً بحلب (بعد حماة) فعين اسندمر في حلب (ص ٦٠) .

ويبدو ان ابا الفداء قد تضايق من نواب السلطنة بحماة الى حد انه استأذن السلطان في الخروج من حماة والاستقرار بدمشق (ص ٥٩) .

وجدير بالذكر ان اكبر المعارك الحربية التي اصابت الشام بسبب هجوم التتار سنة ٧٠٢ / ١٣٠٢ وقعت في هذه الفترة التي كان فيها ابو الفداء يسعى جاهداً لتملك حماة (ص ٤٨ — ٤٩) . ومن الطبيعي ان يأتمر ابو الفداء بأمر نواب السلطنة . ولذلك فاننا نجد التعبير الذي يستعمله هو « جردوني » او « جردت » للقتال .

وفي سنة ٧١٠ / ١٣١٠ عادت حماة الى البيت التقوى الايوبي ، في شخص ابي الفداء الذي اصبح يلقب الملك المؤيد ، وظلت على ذلك الى حين وفاة المؤلف سنة ١٣٣١/٧٣٢ .

على اننا يتوجب علينا ان نتذكر ان أبا الفداء حكم حماة على ثلاث درجات متفاوتة في السلطة ومتدرجة نحو الارتفاع .

أما أولها فجاءت سنة ٧١٠ / ١٣١٠ اذ أعطي حماة على قاعدة النواب (ص ٦٠) أي ان ابا الفداء كان بمجرد نائب السلطان يحكم في حماة على الطريقة ذاتها التي كان يحكم بها أي نائب في النيابات الصغرى نسبياً ، اذا قيس الامر بدمشق أو حلب . وكان ابوالفداء في هذه الحالة يجرد مع عسكر حماة كما يجرد النواب أمثاله (ص ٦٦) . وقد كان أبو الفداء في مصر لما صدرت ارادة السلطات الملك الناصر محمد في رفعه الى المرتبة التالية فأعطيت حماة له في هذه المرة تمليكا وذلك سنة ١٣١٢/٧١٢ (ص ٦٨) . وكان أبو الفداء ، على مايبدو من روايته (ص ٦٩) يتخوف من وجود المماليك في حماة لأنهم استجدوا فيها لما خرجت من البيت التقوى الايوبي ، فرأى السلطان ان يخرجوا

منها الى حلب ، وصدر اليهم مرسوم بمعنى ذلك ، فخرجوا قبل وصوله بأيام (ص٦٩) . وزاد السلطان على ذلك ان أكد للملك المؤيد ابي الفداء في السنة التالية ان حماة وبارين (وقد اخرجت المعرة من دائرة سلطنه ارضاء للماليك المقيمين بحلب ص ٧١) انفصلت عن الممالك الشريفة السلطانية (ص٧٢) . ونص المرسوم الشريف على ذلك اذ جاء فيه ان الملك المؤيد « يتصرف في الجميع كيف شاء من تولية واقطاع اقطاعات الأمراء والجند وغيرهم من المستخدمين من ارباب الوظائف وترتيب القضاة والخطباء ... ويكتب بذلك مناشير وتواقيع من جهته » (ص٧٢) . ولاشك ان هذه الدرجة كانت تثبيتاً لتوليه حماة تمليكا . ففي المرسوم توضيح لما سبق .

وجاءت الخطوة الثالثة او الدرجة الثالثة سنة ٧٢٠ / ١٣٢٠ لما تقدم مرسوم السلطان بارسال شعار السلطنة الى ابي الفداء وكان يومها في مصر ايضا (ص ٨٧) . ولعل سلطة الملك المؤيد لم تزد الان عما كانت عليه قبل ذلك ، ولكن التكريم والتشريف واضحان .

وحري بالذكر ان كلا من هذه الدرجات الثلاث - قاعدة النواب والتمليك والسلطنة - كان يرافقها ان يخلع السلطان على ابي الفداء خلعة تزداد ابهة وفخامة عن سابقتها (ص ٦٠ و ٦٨ - ٦٩ و ٨٧) ، ويرافق ذلك مرسوم يوضح ماتم ، كما ان الالقاب التي تستعمل في المرسوم كانت تختلف تبعا لذلك (الصفحات نفسها) .

ومع ذلك فان الملك المؤيد لا يورد مناسبات اجري فيها تغييرات جذرية في الاقطاعات أو الوظائف . والمناسبات التي عثرنا عليها هي (١) ان السلطان تصدق على محمد بن الملك المؤيد بامرته مع خلعته وجعل له سنتين فارساً لخدمته وكان ذلك سنة ٧٢٠ / ١٣٢٠ (ص ٨٨) . (٢) في سنة ٧٢٦ / ١٣٢٥ توفي حسن بدر الدين اخو الملك المؤيد فأعطى هذا امرته لابنه الطفل (ص ٩٥) . (٣) في سنة ٧٢٦ / ١٣٢٥ خرج الملك المؤيد بعسكر حماة ووصل إلى القناة الواصلة من سلمية الى حماة وقسمها على الأمراء والعسكر لينظفوها فحرروها في نحو اسبوع (ص ٩٤) .

وظل الملك المؤيد ، بطبيعة الحال ، يشترك في المعارك والحروب المملوكية مثل فتوح ملطية ٧١٥/١٣١٥ (ص٧٤) وفتوح سيس الثانية ٧٢٠/١٣٢٠ (ص ٨٨) وفتح أياس ٧٢٢/١٣٣٢ (ص٩١) .

وحري بالذكر ان الملك المؤيد كان شديد العناية بوصف الحروب والمعارك ،

يروي اخبارها بايجـــاز ولكن بوضوح . (راجـــع مثلاً فتح المرقب ص ٢١ ، وطرابلس ص ٢٣ ، وعكا ص ٢٤ ، ٢٥ ، وبلاد سيس ص ٣٥-٣٧ والمعارك مع التتار ص٤٨ – ٥٠) .

كانت زيارات الملك المؤيد ابي الفداء الى البـــلاط السلطاني كثيرة . ولعل الزيارة الاولى التي كانت ذات شأن هي التي زار فيها القاهرة سنة ١٣٠٩/٧٠٩ وذلك في محاولة لاستعادة حماة . وقد عاد ابو الفداء وهو مطمئن الى وعد السلطان الناصر محمد بأن يفي له بوعده « وانما أخر ذلك لما بين يديه من المهات والاشغال المعوقة عن ذلك » (ص ٥٨). وقد وفى السلطان فعلاً بوعده فاعاد حماة الى البيت الايوبي التقوى .

وبعد ذلك ، والمدة التي تولى فيها الملك المؤيد حماة تقع اثناء السلطنة الثالثة للملك الناصر محمد (٧٠٩ – ٧٤٠ / ١٣٠٩ – ١٣٤٠) ، زار أبو الفداء البلاط السلطاني ست مرات في السنوات ٧١٢ / ١٣١٢ (ص ٦٧) و ٧١٦ / ١٣١٦ (ص ٧٨) و ٧١٨ / ١٣١٨ (ص ٨٣) و ٧١٩ – ٢٠ / ١٣١٩ – ٢٠ (ص ٨٤) ٧٢٤ / ٧٢٤ / ١٣٢٣ (ص ٩٣) و ٧٢٧ / ١٣٢٦ (ص ٩٦ – ٩٧) . هذا بالاضافة الى زيارة لمخيم السلطان في حسبان شمالي الكرك في سنة ٧١٧ / ١٣١٧ . وفي اثناء زيارتـــه لمصر سنة ٧١٨ / ١٣١٨ زار الاسكندرية في حراقة بالنيل (ص ٨٣) . والذي يلفت النظر ان أبا الفداء لم يتحدث عن هذه الزيارات بتفصيل الا عندما يريد ان يبرز منزلته عند السلطان فيذكر الصدقات وكمياتها مالاً أو خيلاً او قماشاً ، ويصف الخلع وصفاً دقيقاً خاصة عندما كانت مرتبطة بالمنصب الذي يولاه ويورد موجزاً للمرسوم الشريف ويعدد أفضال السلطان عليه من حيث الاقامة في القاهرة او ترتيب الاقامات في الطريق (ص ٧٨) او اصحابه للصيد (ص ٨٨ و ٩٣) ، او الاحتفاء الذي لقيه عند حصوله على منصب خاص مثل الاحتفال بسلطنته (ص ٨٧) . ولكن البلد الذي يزوره والطريق الذي يجتازه لا ينال من اهتمامه شيئاً (الا ماندر على ماسنذكره) . فهو رجل يذهب الى القاهرة اما مستأذناً بالزيارة او مطلوباً لها ، وفي الحالتين يحدثنا عن الناحية الرسميـــة اذا جاز التعبير . والمؤلف يذكر الهدايا التي كان يحملها معه الى السلطان بدقـــة – هذا اذا لم يسافر على البريد . كما ان أبا الفداء ادى فريضة الحج ثلاث مرات في سنة ١٣٠٣/٧٠٣ (ص ٥١) وسنة ٧١٣ / ١٣١٣ (ص ٧٣ – ٧٤) وسنة ٧١٩ / ١٣١٩ (ص ٤٤ – ٨٦) . وقد كان حجه في المرتين الاوليين القيام بالفرض بصورة خاصة . اما حجه

سنة ٧١٩ فقد كان بصحبة السلطان . لذلك نراه يصف هــذه الحجة بشيء من التفصيل وذلك ليظهر ان الناصر قد واظب « في جميع اوقات المناسك بحيث ان السلطان حافظ على الاركان والواجبات والسنن محافظة لم أرها من احـــد » (ص ٨٦) . ويصف ابو الفداء جزيل صدقات السلطان وأنعامه في هذه الحجة ما لم اقدر ان احصره ، وانما اذكر نبذة منه : وهو انه سار في خدمته مايزيد عن ستين امير اصحاب طبلخانات ، وكان لكل منهم في كل يوم في الذهـاب والاياب مايكفيه من عليق الخيل والمـــاء والحلوى والسكر مايناسب ذلك . وكان في جملة الصحبة الشريفـــة اربعون جملاً تحمل محاير الخضراوات مزروعة ، وكان في كل منزلة يحصد من تلك الخضراوات مايقدم صحبة الطعام بين يديه . وفرق في منزلة رابغ على جميع من في الصحبة من الامراء والاجناد وغيرهم جملاً عظيمة من الدراهم بحيث كان اقل نصيب فرق في الاجناد ثلثمائة درهم وما فوق ذلك الى خمسمائة درهم . ونصيب امراء العشرات ثلاثة آلاف درهم » (ص ٨٦) . فالوصف المفصل في واقع الامر لم يكن للمحمل المصري او مكة المكرمة او المدينة المنورة ، لكنه كان يدور حول السلطان واعماله ومواظبته على الاركان والواجبات وكرمه وصدقاته .

ولعل خير مايوضح موقف أبي الفداء من أقصاء شخصيته بالمرة عن ذكر الاحداث والماجريات هو ذكره اخبار الموت بالنسبة الى أناس تربطه بهم وشائج القربى أو الصداقة فنحن نجد عند أبي الفداء عشر اشارات الى وفيات من هذا النوع هي :

١ — وفاة الملك المنصور ٦٨٣/١٢٨٤ (ص ١٨)
٢ — وفاة أبيه الملك الافضل ٦٩٢/١٢٩٢ (ص ٢٩)
٣ — وفاة القاضي ابن واصل ٦٩٧/١٢٩٧ (ص ٣٨)
٤ — وفاة الملك المظفر ٦٩٨/١٢٩٨ (ص ٤١)
٥ — وفاة عمته خاتون ٧٠٣/١٣٠٣
٦ — وفاة مملوكه طيدمر ٧٥٦ / ١٣٢٥ (ص ٩٤)
٧ — وفاة أخيه بدر الدين حسن ٧٢٦ / ١٣٢٥ (ص ٩٥)
٨ — وفاة ابن أخيه أسد الدين عمر ٧٢٦/١٣٢٥ (ص ٩٥)
٩ — وفاة والدته ٧٢٧ / ١٣٢٦ (ص ٩٨)
١٠ — وفاة مملوكه اسنبغا ٧٢٨ / ١٣٢٧ (ص ٩٩)

وعلى ما بين هؤلاء وأبي الفداء من صلة القرابة أو الصداقة أو التلمذة (ابن واصل) فلا نجد أن أبا الفداء يشير ، لو من طرف خفي ، الى تفجع ، باستثناء اشارة واحـدة الى مملوكه طيدمر اذ قال « جرى على لفقده أمر عظيم » (ص ٩٤) . والواقع ان ذكره لأخبار هؤلاء في هذه المناسبات تكاد تذكرنا بما يصدر عن المحافل الرسمية من بلاغات يشار فيها الى انتقال شخص ما الى رحمة الله . حتى وفاة أبيه وأمه لاتترك أثراً ظاهراً في الكتاب . طبعاً هذا لايعني أن أبا الفداء لم يجزع لفقد هؤلاء أو بعضهم ، لكننا لانجد هذا في روايته، وهذا ماكنا نحب لو أنه ذكره،لعلنا نستطيع ان نلمس الناحية الانسانية الشخصية في هذا العالم الكبير.صحيح أن أبا الفداء يذكر في بضع من هذه الحالات اسباب الوفاة المرضيـة . المنصور توفي بـذات الجنب (ص ١٨) والمظفر بسبب نتن الحمار (ص ٤١) وطيدمر توفي بالسل (ص ٩٤) وأخوه بدر الدين أصيب بحمى بلغميـة (ص ٩٥) . ولكن أبا الفداء العارف بأمور الطب لايشفي غليلنا باعطائنا وصفاً دقيقاً للامراض والعلاج .

وكم كنا نحب لو أن أبا الفداء ، وهو بالاضافة الى كونه مؤرخاً كان جغرافياً ، وصف لنا الأمكنة والناس . فهو ، فضلا عن كونه زار القاهرة والاسكندرية وأماكن أخرى في ديار الشام والاماكن القدسية في الحجاز ، فانه زار القدس والخليل مرتين في سنة ٧١٦ / ١٣١٦ (ص ٧٩) وفي سنة ٧٢٧ / ١٣٣٦ (ص٩٨) . ولكن المؤلف لا يذكر شيئاً البتة عن المزارات والمسجد الاقصى وقبة الصخرة . ووددنا لو ان صاحب هذا التاريخ زودنا بوصف هاتين الجوهرتين الرائعتين من الفن العربي الاسلامي .

على اننا نقع في المختصر على امور طريفة فيها فائدة . ولا بد انهـا اثرت على ابي الفداء حتى انه اوردها ، منها ذكره ان المسافة بين حصن الاكراد وعكا التي يحتاج قطعها الى ثمانية ايام قطعت سنة ٦٩٠/١٢٩١ في شهر وذلك بسبب الامطار والوحول (ص ٢٤) . ومنهـا ان ابا الفداء اجتاز المسافة من حماة الى مصر في ثمانية ايام على البريد وذلك سنة ٦٩٢ / ١٢٩٣ (ص ٢٨) وفي سنة ٧١٩/١٣١٩ احتاج الى ثمانية ايام او تسعة (ص ٨٥) . اما المسافة من مكة الى حماة فقد استغرق قطعها على الهجن الى اثنين وعشرين يوماً في سنة ٧١٤/١٣١٤ (ص ٧٣) .

ويحدثنا أبو الفداء عن مظاهر مناخية خاصة . ففي سنة ٦٩٧/١٢٩٨ (ص٣٥) وسنـة ٧١٢/١٣١٢ (ص ٧٠ – ٧١) وسنـة ٧١٦/١٣١٦ (ص ٧٨) وسنة

١٣٢٥/٧٢٦ (ص ٦٥) سقطت امطار غزيرة احدثت خسائر كبيرة . وفي سنة ١٣١٦/٧١٦ في ثاني يوم عيد الفطر الموافق لتاسع عشر كانون الاول « وقع بحماة والبلاد التي حواليها ثلوج عظيمة ودامت أياماً . وبقي على الارض نصف ذراع ودام على الارض أياماً ، وانقطعت الطرق بسببه وكان ثلجا لم اعهد مثله وكان البرد والجليد شديداً عاماً في البلاد، حتى جلد الماء بالديار المصرية ووقعت الثلوج باللاذقية والسواحل » (ص ٨٠) . ويذكر السنة الحمرا (٧٢٣ - ١٣٢٢/٧٢٤ - ١٣٢٣ فيقول فيها جدبت الارض بالشام من دمشق الى حلب والخبوس المطر ولم ينبت شيء من المزروعات الا القليل النادر . واستسقى الناس في هذه البلاد فلم يسقوا . (ص ٩٢) .

ولعل أطرف ماروه ابو الفداء هو خبر موت الملك المظفر بسبب لثن الحصار (ص ٤١ ، فليرجع اليه) .

(٤)

يبدو أبو الفداء ، من خلال الاشارات والاخبار المتعلقة به ، انه حافظ على الموضوعية في كتابته ، فلم يقحم نفسه او شخصيته في الاحداث الا على أقل درجة ممكنة . فقد ظل مؤرخاً موضوعياً رسمياً . وكون الرجل لم يتفجع لفقد احبائه واصدقائه لايعني انه لم يكن لهؤلاء الناس عاطفة ، ولكنه لايظهرها في كتابه .

كان طموح ابي الفداء الاول والاهم أن يعيد حماة الى البيت التقوى الايوبي .وقد تم له ذلك ، فكان من الطبيعي ان يحافظ على ذلك وان يساير السلطان ويتجنب الصدام مع امراء المماليك القريبين منه . فهو لم يثر لان المعرة انتزعت منه مرتين الاولى في سنة ١٣١٣/٧١٣ (ص ٧٢) والثانية في سنة ١٣١٦/٧١٦ وكانت قد اعيدت اليه في تلك السنة ذاتها (ص ٨٠) . بل نجد انه يكاد يعتذر عن عمل السلطان في الحالتين كما انه يقبل ، دون تذمر ، تأخر السلطان في اعادتها اليه في سنة ١٣١٠/٧١٠ (ص ٦٠) ويدرك ان ذلك كان امرا واقعياً .

ولما كان أبو الفداء يطالب بحماة على اساس من الشرعية كان مقتنعاً به ، فاننا نجده يدافع عن الشرعية دائماً . فروايتـه عن اغتصاب الناصر قليج لحماة في غياب المظفر تقي الدين محمود سنة ١٢٢٠/٦١٧ (ج ٣ ص ١٢٦) وعودة المظفر اليها سنة

٦٢٦/١٢٨ (ج ٣ ص ١٣٣) فيها ما يدل على تمسكه بالشرعية ، كذلك فاننا نجده يعتبر عمل العادل كتبغا سنة ١٢٩٥/٦٩٤ (ج ٤ ص ٣١) والمظفر بيبرس الجاشنكير سنة ٧٠٨/١٣٠٨ – ١٣٠٩ (ج ٤ ص ٥٤) اعتداء على الحاكم الشرعي الناصر محمد ابن قلاوون . كما انه رأى في عودة الناصر الى الحكم في سلطنته الثانية (بعد كتبغا ج ٤ ص ٤٠) وفي سلطنته الثالثة (بعد بيبرس الجاشنكير (ج ٤ ص ٥٦ – ٥٨) عودا الى الشرعية . وقد فرح بهذه العودة ، دون ان يبين ذلك في كتابته ، لأن الناصر هو الذي أعاد حماة الى الملك المؤيد ابي الفداء اسماعيل بوصفه الوارث للملك المظفر الذي توفي سنة ٦٩٨/١٢٩٨ (ج ٤ ص ٤١ – ٤٢)

حماه في عصر أبي الفداء

احسان العظم

التعريف بأبي الفداء :

هو الملك العادل الفاضل المجاهد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن الملك المظفر الثاني محمود بن الملك المنصور الأول محمد بن الملك المظفر الأول تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي ، ولد بتاريخ جمادى الأولى سنة ٦٧٢هـ ١٢٧٣ م بدار الزنجيلي بدمشق ، وكان أهله قد جفلوا من حماه بسبب الغزو المغولي . ولشهرته بأبي الفداء لقب كثير من الأدباء والفقهاء بهذا اللقب أشهرهم مايلي :

١ ـ الشيخ رشيد أبو الفداء اسماعيل : فقيه حنفي من أعلام الفقهاء والمفتين توفي سنة ٧٢٤ هـ ودفن بمصر بمقبرة القرافة وكان قد ولد بدمشق والمعروف بأبن المعلم .

٢ ـ الحافظ أبو الفداء : اسماعيل بن شهاب الدين بن عمر بن كثير : المحدث والمفسر والمؤرخ له التفسير والبداية والنهاية في التاريخ المتوفي سنة ٧٧٤ هـ .

٣ ـ أبو الفداء اسماعيل بن محمد بن بردس البعلبكي عماد الدين من علماء الحديث ولد سنة ٧٢٠ هـ توفي سنة ٧٨٦ هـ .

٤ ـ سامي بن محمود السراج : لقب نفسه بأبي الفداء وهو الكاتب والمجاهد الكبير كان يوقع مقالاته في الصحف المصرية والفلسطينية والسورية والعراقية بهذا اللقب ولد وتوفي بحماه سنة ١٩٦٠ .

٥ ـ هناك جبل من جبال القمر يسمى (أبو الفداء) ذكره بطرس البستاني في دائرة معارفه ويقول كراتشكوفسكي في الأدب الجغرافي بتعريف هذه الجبال : جبال القمر التي تنتج عنها عيون نيل مصر وفي سلوكه غرر لاتنجو منه سفينة .

هذا وقد نسبت حماه الى ملكها أبي الفداء اذ نجد أغلب المؤلفين عندما ينقلون عن أبي الفداء أخباراً يقولون قال صاحب حماه كالأسنوي في طبقاته وابن كثير في البداية والنهاية والقلقشندي في صبح الاعشى ولشهرة أبي الفداء نسب الدكتور عبدالرحمن الرافعي في كتابه « تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر » أبا الفداء الى مصر اذ يقول : أبو الفداء المؤرخ والجغرافي المشهور صاحب تقويم البلدان من علماء مصر . وهذا وهم واضح .

التعريف بمدينة حماه :

بناها الآراميون في سنة ٢١٠٠ ق م مع مدينة بعلبك قبل عصر التاريخ الذي يعرف بعصر الكتابة .

معنى حماه

حماه تعني قلعة أو حصناً وفي اللغات الشرقية يسمى الحصن « حامات » ويذهب يوسيفوس أن حماه سميت باسم بانيها « حمث بن كنعان » وهناك ظن آخر أن حماه هو الابن الحادي عشر لأولاد كنعان ويذهب أنفولت الى أن تسميتها أتت من اسم اول ملك آرامي لها يدعى حماه .

حمات حماث في اللغة الآرامية بمعنى واحد اذ « ت » و « ث » من نفس المخرج فاختصت حماه في الأولى واختصت حمص « حمث » في الثانية اذا كان يطلق عليها صوبة حماه . « الآداب السامية – محمد عطيه الأبرشي » .

هل سميت مدينة غيرها من المدن باسمها ؟ يذهب رولنصون أن مدينة « هيتي » الواقعة على شط الفرات كان يطلق عليها اسم حماه وقد ذكرت في سفر الملوك وكذا اطلق على مدينة « ربلة » الواقعة على الحدود اللبنانية اسم حماه وكذا كان يطلق على مدينة أزيلت من عالم الوجود اسم صوبة حماه وقد دعاها عاموس في سفره حماه العظيمة وعاموس هذا عاش في سنة ٨٠٠ ق . م .

هل طرأ تغيير على اسم هذه المدينة ؟ نعم فقد اطلق عليها في زمن السلوقيين اسم ابيفانيا باسم انطونيوس ابيفانس الملك السلوقي الذي تولى الملك من سنة ١٧٥ – ١٦٤ ق.م . ولكن اسمها لم يختف بل رجعت الى اسمها القديم حماه وذلك في أيام خلفة جيزوم .

وسميت حماه « مدينة أبي الفداء » اذ في سنة ١٩٢٢م تأسس في حماه النادي الأدبي ضم نخبة من أدباء حماه ومفكريها وكان يجهد جهداً كبيراً لاذكاء الروح الوطنية . ويغذي في بعث الروح العلمية باستعادة ذكريات ملوكها الأبطال فلم يجد أجود من ملكها أبي الفداء فعمل على تدشين مرقده ودعا الى ذلك رهطاً من الأدباء والخطباء ووصل من مصر شيخ العروبة أحمد زكي باشا والدكتور محجوب ثابت وقد أقيم احتفال كبير بهذه المناسبة في شهر تموز سنة ١٩٢٥م . فمر على حماه اسبوع كان عيداً قومياً وفرصة لمناسبة سياسية للتعبير عن الآلام التي تجيش في نفس كل مواطن واشترك الحمويون بالتبرعات واحتفل بافتتاح تجديد المرقد ومنذ ذلك الحين أطلق على مدينة حماه اسم مدينة أبي الفداء وعلى الشارع الآخذ الى المرقد اسم شارع أبي الفداء .

وصف حماه :

نكتفي هنا بما أورده أبو الفداء ملكها عن وصفها متجاوزين عما قاله فيها المؤرخون والرحالة كأمثال ياقوت الحموي وابن سعيد الأندلسي وابن جبير وابن بطوطه . قال أبو الفداء :

حماه من الشام مدينة أزلية ولها ذكر في كتب الاسرائيليين وهي من أنزه البلاد الشامية ، والعاصي يستدير على غالبها من شرقيها وشماليها ، ولها قلعة حسنة البناء

مرتفعة ، وفي داخلها الأرحية على الماء وبها نواعير على العاصي تسقي أكثر بساتينها ، ويدخل منها الماء الى كثير من دورها .

ومما قاله فيها أيضاً : حماه على ضفة العاصي وبها قلعة مبنية بالحجارة الملونة ، وبها نواعير مركبة على العاصي تدور بجريان الماء ويرتفع الماء الى الدور السلطانية ، والامراء والأكابر والبساتين ، وفي بساتينها الفراس الفائق والثمار الغريبة ، وهي في غاية رفاهية العيش ، وحولها مروج فيح ممتدة يكثر فيها صيد الطير والوحش ، وليس في الممالك الشامية بعد دمشق بها نظير .

وضع المدينة في زمن ابي الفداء : كانت حماه مقسمة الى قسمين في محة باب الجسر وقسم في المدينة ولارتفاع المدينة عن باب الجسر كانت تسمى القسم الأعلى وسوقها السوق الأعلى وكذا جامعها كان يسمى الجامع الاعلى وكان بنيان محة المدينة أوسع وأعظم وأسواقها حافة أكثر من أسواق محة باب الجسر وكانت جامعة للصنائع الضرورية وكان بين القسمين طريق من وراء القلعة في البستان التي تسمى الآن بستان الخضر « الخضورة » .

وكانت المدينة (القسم الاعلى) مسورة بسور من الحجر الأبيض عظيم يمتد الى تل العريسة وله أبواب عدة :

باب الغربي : وسمي بالغربي لوقوعه في القسم الغربي من السور في أرض العثر وقد ذكره ابو الفداء في حوادث سنتي ٩٥٧ هـ و ٥٩٨ هـ .

باب المغارة : يقع في القسم الغربي من المدينة (الجراجة) أورد ذكره أبو الفداء أيضاً في حوادث سنة ٦٢٦ هـ وقد ذكرته سجلات المحكمة الشرعية في حماه ٩٦٩ هـ .

باب النهر : سمي بهذا الاسم للخروج منه الى نهر العاصي في محة المدينة .

باب القبلي : في جنوبي السور ذكره ابو الفداء في حوادث سنة ٦٩٧ هـ

باب العميان : سمي بهذا الاسم لكثرة خروج العميان إلى سوق المنصورية (حاليا سوق الطويل لشراء حاجاتهم وكان يقع في محة النصارى كما أفادت سجلات المحكمة الشرعية في سنتي ٩٦٩ هـ ، ٩٧٥ هـ وذكره أبو الفداء أيضاً في حوادث سنة ٥٩٧ هـ

باب العدة : في جنوبي قلعة حماه ، قرب مقام النبي حام وسمي بذلك لادخال عدة القتال منه الى القلعة ورد ذكره في سجلات المحكمة الشرعية في حماه سنة ٩٦٩ هـ

وسماه القلقشندي في صبح الأعشى خطـأ باب العـرة وسماه مختصر كتابه في كتابه « ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر » باب العزة على وجه الخطأ أيضاً .

وكان للسور المحيط بمحلة باب الجسر عدة أبواب هي :

باب الجسر : يقع من جهة الشمال الغربي وله باب آخر في مبدئه من جهةالقبلة .

باب حمص : يقع في شرقي محلة الباشورة وسمي بذلك لخروج من يود السفر إلى حمص منه .

باب النصر : مجهول موقعه إلا أن أبا الفداء ذكره في حوادث سنة ٦٢٦ هـ.

باب النقفي : يقع شرقي الطيـارة الحمراء عند قبو بين الحيرين ورد اسمه في تاريخ أبي الفداء أيضاً في حوادث سنة ٦٩١ هـ.

الآثار والدور بحماة زمن أبي الفداء :

عمر الأيوبيون كثيراً من الدور والقصور في حماه منها ما ذكر في التاريخ ومنها ما لم يذكروها ، انما نأتي على ذكر أشهرها مما وقفنا على ذكره في الكتب :

١ — دار الوزير ، وتعرف بدار الاكرام في باب المقار حول رحى العونيـة فوق العاصي في محلة باب النهر كانت ذات منـاظر مدهشة وقد أعدت للضيافة وسكن الملوك ، وأضحت هذه الدار في زمن أبي الفداء مدرسة تعرف بالخاتونية وقفتها مختصة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر .

٢ — دار المبارز : أنشأها مبارز الدين آقوش إذ جعلها لضيافة الملوك .

٣ — دار السعادة : وهي دار الملك المظفر محمود شادها في بستان تقـع غربي العاصي جانب حمام السلطان وما اكثر الملوك الذين تناوبوا عليها . وقد سكنها أبو الفداء بادىء ذي بدء سنة ٩٧٠ هـ. وفي دمشق توجد دار تسمى دار السـعادة كانت مقراً لنواب السلطنة فيها احترقت زمن فتح قازان لها سنة ٦٩٩ هـ.

٢ — حمام السلطان : عند جامع نور الدين الشهيد بناها الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر وكانت حمامه الخاصة وقد عمل له شيخ الشيوخ بحماه عبـد العزيز الانصاري بيتين حفرا على الجرن وهما :

كمُلَتْ حسنا وصفات على ــــــــ مـا في من أوصافي الحـلوه

لأجل هذا صرت أهلا لأن   أجالس السلطان في الخلوه

روى هذه الحادثة الشيخ أحمدالصابوني صاحب تاريخ حماه غير أن ابن حجة الحموي عزاها للشاعر ابن نباته المصري لأبي الفداء في كتابه خزانة الأدب صفحة ٢٥٨ والجرن لايزال موجودا الى الان بهذه الحمام .

٤ – القصر والقبة العليا : وهما دار لأبي الفداء الملك المؤيد اسماعيل على ضفة العاصي أتم بناءها سنة ٧٢١ هـ كان لهـا اول ايوان كبـير وقبة شاهقة وموضعها شرقي الجسر ، وقد بيعت سنة ١٤٩٠ هـ – ١٦٧٩ م للحجارين فنقضوا حجارتها وباعوهـا وبقيت خلوا من البناء حتى بنى أرضها بعض من يرزقون من وقف أخي أبي الفداء . يقول فيها الشاعر صفي الدين الحلي في مرثية لأبي الفداء :

اذا ذكرت حمى العاصي وملعبه   والقصـر والقبة العليا بمرقبه
أقول والبرق سار في تلهبـه   ياساري القصرغادالقصرفاسق به

وقد بقيت الى زمن ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ اذ يذكرها في تشوقه الى حماه وحيث يقول :

بروقامتداد الجسر والقصر فوقه   فيحلو طباق العيش بالمد والقصر

٥ – دار الضيافة المسماة بالطيارة الحمراء : على سور باب النقفي وكانت فـوق القبو والباسطية . شرقي الجامع النوري ، زارهاوجلس فيها سنة ٦٩١ هـ السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل وقد ذكرها ابو الفداء في حوادث تلك السنة في تاريخه .

٦ – دار السلطان حسن : كان السلطان بدر الدين حسن شقيق أبي الفـداء دار جيدة في محلة الحسنية واليه تنسب هذه المحلة للان التي تبعد نحو ميل عن محلة باب الجسر وكان له بها غرس يسقى من ماء قناة سلمية ، قنـاة العاشق ، المارة في تلك الجهات وكانت الحسنية آنذاك منتزها لطيفا .

٧ – دار الفرح : في محلة باب الجسر وكانت وقفا للافراح فمن أراد ان يتزوج مثلا يأخذ مفاتيحها من متوليها ثلاثة أيام يفعل مايشاء وكان فيها / ٣٥ / بيتا أي غرفة وقد زالت معالمها الان بعد أن هدمت وبيعت حجارتها للحجارين .

٨ – خمس قاعات لآل قرناص قرب مسجد أبي ذر وقد عفى عليها الزمان .

المـــدارس

المدرسة الخاتونية : في محلة المدينة دار مؤنسة خاتون بعد أن تحولت من دار الاكرام الى دار مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر عمة ابي الفداء ووقفت لها كتبا واوقافا كثيرة ومحلها الان دار سكن لآل كركور .

المدرسة الحنفية : كانت في القسم الشرقي من حرم جامع النوري بناها الملك المؤيد أبي الفداء .

المدرسة الطواشية : تنسب هذه المدرسة إلى مرشد الطواشي الذي أعتقه الملك المظفر الثاني محمود صاحب حماه ومكانها بالقرب من تربته التي هي بالقرب من الجامع الأعلى (الجامع الكبير) من جهة الشمال وهي متسعة جدا وبقيت لما بعد الألف هجري .

المدرسة العزية : في محلة باب الجسر بناها محمود بن حمزه العزي بجوار جامع العزي من جهة الشرق وكانت متسعة جدا ولم يبق من اثارها الان سوى ماهو مرسوم على جدار الجامع يذكر تاريخ بنائها بسنة سبع وعشرين وسبعمائة .

المدرسة النورية : كانت قريبة من جامع نور الدين الشهيد وقد درست الآن وسميت بالمدرسة العصرونية نسبة الى القاضي شـرف الدين ابي عصرون الشافعي الموصلي الذي تولى التدريس فيها :

مدرسة ابن المشطوب : تنسب هذه المدرسة الى الأمير سيف الدين علي بن المشطوب وممن درس فيها « الفتح الجزري » وكان نحوياً فقيهاً ولي قضاء أسيوط وتوفي فيها ونظم السيرة لابن هشام والمفصل للزمخشري .

المدرسة الصهيونية : بناها الشيخ محمد بن محمد الخطيب الشهير بابن صهيون .

المدرسة المؤيدة المشهورة بالخطيب : تنسب هذه المدرسة الى ملك حماه المؤيد أبي الفداء وموقع هذه المدرسة في مكان شركة البراد الحالي .

مدرسة دار القرآن : تنسب هذه المدرسة الى محمد بن أبي بكر الشافعي ومكانها في محلة باب حمص من حي الباشورة والمستظرف فيها أن واقف هـــذه المدرسة جعلها مقتصرة على العزاب خاصة دون المتزوجين .

المدرسة المخلصية المشهورة بالقناصية : تنسب هذه المدرسة الى مخلص الدين اسماعيل

بن قرناص المتوفي سنة تسع وخمسين وستماية، وكان فاضلاً اديباً فقيهاً عالماً شاعراً ، وموقع هذه المدرسة بالقرب من جامع الشيخ ابراهيم الكائن في حي الحاضر .

وقد ظلت هذه المدارس عامرة بالطلاب والمدرسين والاساتذة والفقهاء طيلة مدة أبي الفداء وظلت كذلك بعد وفاته .

النظام الاداري في مدينة حماه

يذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى من الجزء الرابع نقلاً عن المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه « مسالك الابصار في ممالك الأمصار » المتوفي سنة ٧٤٩ ه والمعاصر لأبي الفداء عن النظام الاداري فيقول :

نيابة حماه

صنجتها كصنجة دمشق وحلب وطرابلس ، تنقص عن الصنجة المصرية كل مائة مثقال مثقال وربع ، وكل مائة درهم درهم وربع ورطلها سبعمائة وعشرون درهماً بصنجتها ، ومكيالاتها معتبرة بالمكوك كما في حلب وبلادها ، ومكوكها مقدار كل مكوكين وربع مكوك غرارة بالدمشقي ، وقياس قماشها بالذراع ، وقياس أرضها بذراع العمل المعروف .

أما جيوشها فمن الترك « التركمان » ومن في معناهم . وبها عدة من أمراء الطبلخانات والعشرات والخمسات ومقدمي الحلقة وأجنادها ، وليس بها مقدم الف ، وان صاحب حماه كان يستقل فيها باعطاء الأمرة والاقطاعات وتولية القضاة والوزراء وكتاب السر وسائر الوظائف بها ، ويكتب المناشير والتواقيع من جهته ولكنه لا يمضي أمراً كبيراً في مثل اعطاء امره أو وظيفة كبيرة حتى يشاور صاحب مصر ، وهو لا يجيبه الا بأن الرأي ما تراه من هذا ومثله ، وربما كتب له مرسوم شريف بالتصرف في مملكته . ومع ذلك فصاحب مصر متصرف في ولاية صاحبها أو عزله ومن شاء ولاه ومن شاء عزله ، ولم يزل الأمر على ذلك الى ان خلع الأفضل محمد بن المؤيد (أبي الفداء) من سلطنتها .

وبها من وظائف أرباب السيوف الحجوبية ، وبها حاجبان ، الكبير منهم طبلخاناه والثاني عشره ، وأمير آخورية البريد ، ومتوليها جندي (وولاية المدينة وواليها جندي ،

ونقابة العسكر ، وبها اثنان وهما جنديان احدهما أكبر من الآخر ، وجميع ارباب الوظائف يوليهم النائب بها بتواقيع كريمة وليس بها قلعة بها نائب .

وبها من أرباب الوظائف الدينية من أرباب الأقلام أربعة قضاة من المذاهب الأربعة، وولايتهم من الأبواب السلطانية بتواقيع شريفة ، وقاضي عسكر حنفي ، وليس بها قضاة عسكر من المذاهب الثلاثة الأخرى (لأن أكثرية الجيش من التركمان على المذهب الحنفي) ولامفتو دار عدل ، وبها وكيل بيت مال وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ووكالته شرعية ، ومحتسب(١) بولاية عن النائب بتوقيع كريم .

وبها من الوظائف الديوانية من أرباب الأقلام كاتب سر(٢) ويعبر عنه في ديوان الانشاء بصاحب ديوان المكاتبات بحماه المحروسة ،وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وله أتباع من كتاب الدست(٣) وكتاب الدرج(٤) وولايتهم عن النائب بتواقيع

---

(١) المحتسب : وهو من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحدث في أمر الموازين والمكاييل ونحوهما قال الماوردي (في الأحكام السلطانية) وهو مشتق من قولهم حسبك بمعنى أكفف . سمي بذلك لأنه يكفي الناس مؤونة من يبخسهم حقوقهم .

(٢) وكان كاتب سر الملك أبي الفداء معز الدين محمود بن الحاد الحموي وقد نزل عنده ابن نباتة المصري أول قدومه لحماه .

(٣) كاتب الدست : وهو الذي يجلس مع كاتب السر بدار العدل أمام السلطان أو النائب بمملكة من الممالك ويوقع على القصص .

(٤) كاتب الدرج : وهو الذي يكتب المكاتبات والولايات وغيرها في الغالب ، وربما شاركه في ذلك كتاب الدست ويعبر عنه الآن بالموقع « نقلاً عن صبح الأعشى للقلقشندي » .

(النائب) هو لقب عن القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها (المهمندار) وهو الذي يتصدى لتلقي الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ، ويتحدث في القيام بأمرهم ، وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما مهمن بفتح الميمين ومعناه الضيف ، والثاني دار ومعناه ممسك ، والمراد المتصدي لأمره .

(أمير آخور) وهو الذي يتحدث عن اصطبل السلطان أو الأمير ، ويتولى أمر مافيه من الخيل والابل وغيرهما مما هو داخل في حكم الاصطبلات ، وهو مركب من=

كريمة ، وبها ناظر المملكة القائم مقام الوزير ، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ، وله أتباع من كتاب وشهود وولايتهم عن النائب بتواقيع كريمة إلى غير ذلك من وظائف صغيرة يوليها النائب بتواقيع كريمة .

التشكيل الجنسي والعرقي في حماة :

في بدء الفتح الاسلامي لسورية نزلت حماة قبيلة قيس من المضرية وظلت فيها ردحاً من الزمن ولم يساكنها أو يجاورها أية قبيلة يمنية ولذلك انعدمت فيها المشاحنات والنزاعات التي كانت تجري بين اليمنية والقيسية حتى أنه في حمص لم يكن بها إلا ثلاث عائلات من قيس فاضطرت للنزوح عنها وان سكان حمص كانوا من القبائل اليمنية حتى ضرب المثل بذلك فقيل « أذل من قيسي في حمص » اذاً فالعنصر العربي في حماه كان قيسياً يضاف اليه ما نزلها من التركمان اذ جاء في المنشور الصادر سنة ٧١٣ هـ من الملك الناصر أبي الفداء والذي يقضي بفصل المعرة عن حماة ما يلي :

أن تقيم عليها (حماة وبارين «بعرين») خمسمائة فارس بالعدة الكاملة من غير نقص ويبطل حكم ما عليها من المناشير والتواقيع الشريفة والمسامحات والمحسوب وكل ما هو مرتب عليها للامراء والجند والعرب والتركمان وغيرهم بحكم الانعام بها على المشار اليه .

يضاف الى ذلك ما ذكره المقر الشهابي المتوفي سنة ٧٤٩ هـ والمعاصر لأبي الفداء بقوله « أما جيوشها فمن الترك « التركمان » ومن في معناهم »

من كل ما سبق يتبين ان العرب والتركمان والاكراد كانوا أغلبية السكان إذ أن الأكراد هم رأس ملوك وحكام حماة واذا رجعنا الى سجلات المحكمة الشرعية بحماة نجد ذكر طوائف الأكراد وهي :

طائفة الأكراد الشعفية ، وطائفة الأكراد الجوالكة ، وطائفة الدنيسنية الكردية .

التركمان وأهم طوائفها : طائفة الأوشرية ، الاجارية ، الأيوبية ، البياضية ، الطاشمندية ، الفجلية ، البلـك .

=لفظين أحدهما عربي وهو أمير ، والثاني فارسي وهو آخور ومعناه العلف والمعنى أمير العلف . (الحاجب) ، وهو في الاصل عبارة عمن يبلغ الاخبار من الرعية ويأخذ لهم الآذن منه » نقلا عن القلقشندي — الجزء الخامس » .

وقد سكن حماة أيضاً طائفة من الافرنج البنادقة لأنهم كانوا تجـار وكان هؤلاء الافرنج في أغلب الأحيان في علاقات حسنة مع صلاح الدين ودول المماليك المتعاقبة اذ ينقل الدكتور سعيد عاشور في كتابـه الحركة الصليبية عن غروسيه مؤرخ الحروب الصليبية الافرنسي ان صـلاح الدين عند دخوله عكا سـنة ٥٨٤ ﻫ وغيرها من المدن الساحليـة احتفظت العناصـر التجارية من البنادقـة والجنوية والبيازنة والقطلان ، بمراكزهم مما أدى الى استمرار رواج الحياة الاقتصادية في بلاد الشام ، لذا لا عجب أن نرى زقاقاً خاصاً بحماة اسمه زقاق الافرنج في محلة الجعابرة الشرقية .

نظام الحكم بحماة

حماة ملكها البيت التقوى الذي هو من نسـل شاهنشاه بن نجم الدين أيوب أخو صلاح الدين الشقيق وكان تقي الدين عمر بن شاهنشاه قد رافق صلاح الدين في سائر حروبه في مصر وفي حطين وفي عكا وفي سنة ٥٧٣ﻫ سار الفرنج الى حماة بجموعهم وكان عاملها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين الأيوبي مريضاً فلما توفي سـير صلاح الدين ابن أخيه المذكور اليـها وأمره بحفظ البلاد ، وفي سنة ٥٨٢ ﻫ ألحق صلاح الدين بمدينة حماة منبج والمعرة وكفر طاب وميافارقين وفي سنة ٥٨٤ ﻫ ضم اليها جبلة واللاذقيـة وسلمها لابن أخيه المذكور الملك المظفر ، وفي سنة ٥٨٧ ﻫ توفي الملك المظفر تقي الدين عمر وهو قائم على حصار ملازكرد من أملاك السلطان قليج أرسلان السلجوقي .

اذاً فان تملك البيت التقوى لحماة يبتدىء من سنة ٥٧٣ الى سنة ٧٤٢ ﻫ عـدا عن الفترة الكائنة بين سنتي ٦٩٨ﻫ—٧١٠ ﻫ. ان البيت الأيوبي المالك في سورية ومصر لم يدم إلا الى سنة ٦٥٨ ﻫ بينما البيت الأيوبي التقوى في حماة دام زيادة عليه ٧٢ سنة .

اسباب هذا الدوام : ان البيت التقوى حافظ على ولائه لحكام مصـر سواء أكانوا من الايوبيين أو المماليك وساعدهم القدر ومهارتهم السياسية عـلى الاستمرار في الحكم وفي سنة ٥٩٧ﻫ كتب الملك المظفر (ابن صلاح الدين الأيوبي) لملك حماه الملك المنصور ان ينضم اليه ويحارب عمها الملك العادل فلم يرض ملك حماة بذلك وجرت بينهما حروب ووفق الملك العادل صاحب مصر بالبقاء في الحكم .

أما الولاء للمماليك في مصـــر : فان آقوش البولي « الذي ولاه الملك المظفر قطز السواحل » لما عصى على جيش الظـــاهر بيبرس سنة ٦٦٩ ﻫ بقيادة علاء الدين ايوكين

البندقداري توجه الى حماة وارسل يقول للملك المنصور صاحب حماة ، انه لم يبق من البيت الايوبي غيرك فقم لنصير معك ونملك البلاد فلم يلتفت الملك المنصور لذلك ورده رداً قبيحاً فاغتاظ البولي ونزل على حماة وأحرق زرع بيدر العشر ثم سار الى شيزر ومنها الى جهة حلب وكان علم الدين سنجر الحلبي نائب الملك المظفر قطز بدمشق فلما قتل المذكور وتسلطن الظاهر بمصر بدلا عنه كاتب الملك المنصور صاحب حماة بضرب السكة باسمه والخطابة له في المساجد مستقلا بمملكة دمشق فأجابه صاحب حماة قائلا انا مع من يملك الديار المصرية .

هذا وانهم في سائر احوالهم لم يالتوا مغتصبا من غير اهل البلاد ولا محتلا اجنبياً من صليبيين وأرمن وتتر وغيرهم من أعداء البلاد ودخلوا سائر المعارك مظفرين ودائماً جيشهم في الميمنة في حطين وحصار عكا للمرتين زمن صلاح الدين والأشرف خليل قلاوون وفي عين جالوت ومعركة حمص مع التتر والمصاف في دمشق في سلطنة الناصر قلاوون . هذا وقد قال الدكتور سعيد عاشور في كتابه الحركة الصليبية : ولم يحدث الا في حماة وحدها ان استطاع فرع من فروع الاسرة الايوبية ان يظل في الحكم مدة ثلاثة اجيال ، وقد خضع لمراقبة شديدة من قبل المماليك لأن ملك حماة المنصور الثاني بقي الوحيد من ملوك الايوبيين الذي رفض التعاون مع المغول وحارب في صفوف الملك المنصور قطز .

اعتبار السلاطين المماليك لملوك حماة : وها اني أذكر بعض هذه الاعتبارات التي كانت لملوك حماة عند السلاطين المماليك . فان الظاهر بيبرس بعد ان فتح حصن الاكراد سلم مفاتيحه الى مولاه (سيده) الملك المنصور ثم ان الملك المنصور الثاني عم ابي الفداء طلب من الملك المنصور قلاوون سلطان مصر اعفاءه من هذا اللقب فأجابه السلطان بأني ما تلقبت بهذا الاسم الا تحبيي فيك ولو كان لقبك غير ذلك كنت تلقبت به فشيء فعلته محبة لاسمك كيف أمكن من تغييره . وكذا فان الملك المنصور قلاوون قال للملك المظفر ابن الملك المنصور ملك حماة عندما ولاه وألبسه شعار الملك في دمشق ، انتم من بيت مبارك ما حضرتم في مكان الا وكان النصر معكم .

خروج مملكة حماة من البيت التقوي :

يذكر ابو الفداء سبب ذلك فيقول : في سنة ٦٩٨ هـ لما توفي الملك المظفر قال أخوي أسد الدين عمر وبدر الدين حسن حضرا من حلب الى حماة واجتمعا معي واختلفوا فيمن يكون صاحب حماة ولم ينتظم بذلك حال ، فاتفق عند ذلك وصول الخبر الى مصر

بموت صاحب حماة فأعطى قراسنقر نيابة السلطنة بها وسار من الصبيبة ووصل الى حماة واستقر في النيابة بها في اوائل ذي الحجة من هذه السنة ونزل بدار الملك المظفر صاحب حماة وقمنا بوظائف خدمته واخذ من تركة صاحب حماة ومنا اشياء كثيرة حتى اجحف بنا ووصلت المناشير من مصر الى امراء حمــاة وجندها باستقرارهم على ما بأيديهم من الاقطاعات فاستمرينا على ما كان بأيدينا .

واتفق قراسنقر واخواي (أسد الدين عمر وبــدر الدين حسن) وارسلوا معي قماشاً وخيلا من خيل الملك المظفر ــ صاحب حماة ــ وفسرت انا وصارم الدين ازبك المنصوري الحموي وقدمت ذلك لمولانا السلطان الناصر محمد وهو نازل بالساحل قرب عسقلان فقبله وتصدق علي بخلعة وحياصــة ذهب ورسم بزيادة اقطاعي واقطاع اخي بدر الدين حسن فزادوها نقدا من ديوان حماة

النواب الذين حكموا حماه بعد خروجها من البيت التقوي

علمنا أن أول نائب تولى نيابة حماه هو قراسنقر وقد نقل هذا النائب إلى محاربة قازان بن أرغون ملك التتر سنة ٦٩٩هـ وأناب عنه وكيلا وجلا اسمه عثمان السبيتاري سام الناس خسفاً وظلماً وجار في حكمه جداً واستباح الأعراض والأموال وسفك الدماء وقتل كثيرين وكان له رفيق شاركه في الحكم فقتله أيضاً وانفرد بالحكم وحده ولقب نفسه بالملك الرحيم ، ولما انتصر المسلمون على التتر وقبل أن يرجع قراسنقر الى حماه أرسل اليها صارم الدين أزبك المنصوري الحموي ليكون حاكماً الى أن يحضر كتبغا نائب حماه الجديد فلما وصل الى حماه عصي عثمان السبيتاري في القلعة مـدة ثم قبض عليه صارم الدين ووضعه في السجن وفي أثناء ذلك كان حاكم حلب متوجهاً اليها فمر في طريقه الى حماه ونزل في تل صفرون وأرسل الى عامل حماه أن يسلمه عثمان السبيتاري فأرسله اليه وأخذه مكرماً الى حلب بعد مـا أخذ منه رشوة ولم يسمع عليه شكاية الحمويين وان القاضي حكم بقتله فبقي عنده حتى استخلص الملــك لأبي الفداء فأرسل من قبض عليه وجاء به الى حماه فقتله بمحلة المدينة في سوق الخيل .

ثم ان قراسنقر عين الى حلب وعين الى حماه مكانه الأمير كتبغا زين المنصوري فدخل حماه ونزل دار السعادة وهي دار الملك المظفر ولما عادت التتر الى البلاد السورية سنة ٧٠٠هـ سار نائب حلب ونائب حماه لملاقاتهم وجــاءت عساكر دمشق منضمة اليهما

ولكن التتر عادوا بعدمــا عاثوا فساداً في بلاد سرمين والمعرة والعمق وفي سنة ٧٠٢هـ سار كتبغا بالعسكر الحموي الى بلاد الأرمن فكانت له بهـا حروب ، ثم ان التتر عادت الكرة فانضمت العساكر الحلبية للعسكر الحموي فتغلبوا عـلى التتر في القريتين ثم أعاد التتر الغارة على حماة واتجهوا الى دمشق فتغلبت عليهم العساكر المجتمعة ورحلوا عن سورية مجتازين الفرات . وفي تلك الأثناء توفي نائب حماه زين الدين كتبغا وخلفه في النيابة « سيف الدين قبجق » جاء من مصر ووصل الى حماه سنة ٧٠٣هـ فاستقبله الحمويون وأنزلوه بدار المظفر، وفي السنة ذاتها ولي المذكور حلب وعين نائباً على حماه (اسندمر) ولم يأت الى حماه بل أرسل نائباً عنه « تتليك السديدي » وبقي الى سنة ٧١٠هـ حيث عين فيها أبو الفداء نائباً .

دور أبي الفداء في تلك الأثناء

يقول أبو الفداء : وفي سـنة ٧٠٢هـ توفي نائب السلطنة بحماه كتبغا فأرسلت أعرض على الآراء الشريفة السلطانية اقامتي في حماه على قاعدة أصحابها من أهلي فوجد قاصدي أن الامر قد فات وقررت حماة لسيف الدين قبجق المقيم بالشوبك وكتب تقليدة بها في هذه السنة وحصل الي من الصدقات السلطانية الوعود الجميلة الصادقة بحماة وتطييب الخاطر والاعتذار بأن كتابي وصل بعد خروج حماة لقبجق ووصل قبجق الى حماة في السنة القابلة . وفي سنة ٧٠٩هـ أعطى السلطان نيابـة السلطنة بحلب سيف الدين قبجق وارتجع منه حماه ورسم لعسكر حماه بالمسير معه وتصدق علي وطيب خاطري بأنه لابد من انجاز ما وعدني به من ملك حماة وانما أخر ذلك لما بين يديه من المهمات والاشغال المعوقة عن ذلك فسرنا مـع قبجق من مصر متوجهين الى الشام في التاريخ المذكور (تاسع شوال) من سنة ٧٠٩هـ ووصلنا حماة يوم الخميس خامس عشر من ذى القعدة ؛ وقرر حماة للحاج بهادر الظاهري ثم ارتجعها منه وقرره في نيابة السلطنة بالحصون والفتوحات بعد عزل اسندمر عنها وكان قد حصلت بيني وبين اسندمر عداوة مستحكمة بسبب ميله الى أخيه فقصد أن يعدل بحماة عني فلم يوافقه السلطان الى ذلـك فلما رأى أن السلطان يتصدق بحماة علي طلبها اسندمر لنفسه فما أمكن السلطان منعه فرسم السلطان بحماة لاسندمر وتأخر حضوره لأمور اقتضت ذلك .

وفي هذه السنة في يوم الثلاثاء العاشر من المحرم وصل اسندمر من الأبواب الشريفة متوجهاً الى حماه نائباً بها وكنت حينئذ مقيماً بدمشق فخرجت الى الكســوة والتقيته

ووجدت عنده لمقامي بدمشق وخروجي عن حكمه أمراً عظيماً وأخذ يخدعني ويستميلني ويطيب خاطري ويسألني المسير معه الى حماه فلم أجبه إلى ذلك فدخل الى قراسنقر وسأله في ارسالي صحبته طوعاً أو كرهاً فأجابه أن السلطان رسم بمقامه في دمشق فلا يمكن خلاف ذلك فأقام اسندمر بدمشق أياماً قلائل وتوجه الى حماه ودخلها يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من محرم من هذه السنة وفي سنة ٧١٠ هـ وصل مهنا بن عيسى الى دمشق وتوجه منها الى مصر في يوم السبت مستهل جمادي الاول وكان السلطان حريصاً على انجاز ماوعد به بأن يقيمني بحماه وتأخر ذلك بسبب مداراته لاسندمر وغيره فلما اتفق موت الحاج بهادر ووصول مهنا بن عيسى الى الأبواب الشريفة أعطى مولانا السلطان نيابة السلطنة بالسواحل والفتوحات لاسندمر وتصدق علي بحماه والمعرة وبارين ووصل الي التقليد الشريف بدمشق صحبة الأمير فجلس الناصري السلحدار وأعطيت حماه في هذه المرة على قاعدة النواب وكان تاريخ التقليد في ثامن عشر جمادي الأول سنة عشر وسبعمائة وخرجت من دمشق متوجهاً الى حماه وصحبتي الأمير سيف الدين فجلس المذكور في يوم الاربعاء الثامن عشر من جمادي الآخرة واسندمر مقيم بحماه وهو في أشد مايكون من الغضب بسبب فراق حماه وكوني قد شملتني الصدقات الشريفة السلطانية حتى أنه عزم أن يقاتلني ويدفعني عنها وكان قد طلع جميع العسكر الحموي الى لقائي والتقوني قاطع حمص ووصل الى اسندمر مملوكه ستغر من الأبواب الشريفة وخوفه من عاقبة فعله فتوجه اسندمر من حماه ضحى الاثنين ودخلت الى حماه عقب خروجه منها في النهار المذكور وكان استقراري في دار ابن عمي الملك المظفر بحماه بعد الظهر من نهار الاثنين الثالث والعشرين من جمادي الآخرة من هذه السنة ٧١٠ هـ الموافق لسادس عشر كانون الثاني وكان خروج حماه عن البيت التقوى الأيوبي عند موت السلطان الملك المظفر صاحب حماه في يوم الخميس الثاني والعشرين من ذي القعدة من سنة ثمان وتسعين وستمائة وعودها في تاريخ التقليد هو ثامن عشر جمادي الاول سنة عشر وسبعمائة فيكون مدة خروجها احدى عشرة سنة وخمسة اشهر وسبعة وعشرين يوماً .

وكان مولد أبي الفداء في دمشق في جمادى واعطي التقليد في دمشق في جمادى واعطى ابو الفداء حامل التقليد سيف الدين فجلس الناصري أربعين الف درهم مكافأة .

وفي سنة ٧١٣ هـ خرجت المعرة عن حماه واضيفت الى حلب وسبب ذلك ان الامراء الذين كانوا بحماه ثم انتقلوا الى حلب استمرت اقطاعاتهم بحماه لعدم وجود اقطاعات محلولة تفي بجملة مالهم فصعب عليهم نقلتهم الى حلب جداً فأخذوا بالتعنت والشكوى على

ابي الفداء بسبب اقطاعاتهم ونفوذهم المرتبة بحماه وانضم الى ذلك أنه صار يتغير بعض اقطاعاتهم ويدخل بها شيء من بلاد حلب بحكم تنقل أو زيادة ترد المناشير الشريفة بها وتخلط بلاد المملكة الحلبية وصارت اطماعهم معلقة بالعود الى حماة وهم يجتهدون بذلك تارة بالتثقيل على السلطان بالشفائع وتارة بالسعي في ذهاب حماه من (ابو الفداء) فلم يجد لذلك ما يحسمه الا بتعيين المعرة وبلادها للأمراء المذكورين واضافتها الى حلب وانفراد ابي الفداء بحماه وبارين منفصلة عن الممالك الشريفة وسأل السلطان بذلك . وفي سنة ٧١٥ هـ عادت المعرة الى مملكة حماه وذلك أثناء زيارة ابي الفداء للسلطان الناصر محمد بمصر وقد مدحه شهاب الدين محمود كاتب الانشاء الحلبي موريا بعودة المعرة :

بك كل الدنيا تهنى ويضحي قدرها عالياً وكيف المعرة

ألقاب أبي الفداء العسكرية قبل أن يصبح نائباً بحماه

سنة ٦٩٠ هـ كان أمير عشرة وذهب الى حصار عكا مع الخليل الاشرف قلاوون وكان على عجلة المنجنيق المنصوري ذي المائة عجلة أمير عشرة .

سنة ٦٩٢ أعطى المظفر ملك حماه ابن عمه أبا الفداء أمرة طبلخانة بأربعين فارساً وفي سنة ٧١٨ هـ أثناء زيارة أبي الفداء لمصر واقامته مع السلطان — محمد الناصر — أنعم عليه في يوم الاربعاء ثاني رجب الموافق للثلاثين من آب بزيادة عدة قرايا من بلد المعرة على ماهو مستقر بيده .

وفي سنة ٧٢٠ هـ بعد أن رجع أبو الفداء من الحج إلى مصر صحبة السلطان — محمد الناصر — تقدم مرسوم السلطان بارسال شعار السلطنة إليه ورجع ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من محرم من هذه السنة الموافق لثامن آذار بعد أن قرىء تقليد السلطنة بنقيرين في خام كان قد نصب هناك .

بقي أبو الفداء في حماه سلطاناً الى أن توفي سنة ٧٣٢ هـ وقد كان قد لقب بالملك الصالح ثم بالملك المؤيد ورسم السلطان أن يخطب له على منابرها وأعمالها بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي المؤيدي على ما كان عليه عمه المنصور .

ولما كان موضوع بحثنا يتعلق بأبي الفداء بحماه لذا نعرض عن ذكر حروبه وحجه ووفادته إلى مصر وإلى القدس وهي أعمال جليلة تليق بمقامه وتخلده على الايام .

الحركة العلمية في حماه

لقد أذكى أبو الفداء بما فطر عليه من العلم والمعرفة الحركة العلمية في مدينته، بما حصه الله به من محبة للعلماء وطول صحبته لهم، فمثله في ذلك مثل ابن عباس في المدينة الذي سئل ذات مرة: بم بلغت ما بلغت فأجاب: لسان سؤول وقلب عقول، وأجاب على السؤال ذاته مرة أخرى فقال: ما استكبرت عن إستفادة ولا تأخرت عن افادة، فأما عدم استكباره عن استفادة فتتلخص بما رواه عن أستاذه « جمال الدين محمد بن سالم بن واصل قاضي القضاة الشافعي » اذ يقول:

ترددت عليه بحماه مراراً كثيرة وكنت أعرض عليه ما أحله من أشكال كتاب اقليدس وأستفيد منه كثيراً وقرأت عليه شرحه لمنظومة ابن الحاجب في العروض فإن جمال الدين صنف لهذه المنظومة شرحاً حسناً مطولاً فقرأته عليه وصححت أسماء من له ترجمة في كتاب الأغاني فرحمه الله.

وأما عدم تأخره عن افادة فتتلخص بما ذكره الاسنوي في طبقاته اذ يقول:

وكان أخي عماد الدين رحمه الله لما رحل إلى الشام قصد حلب فاجتاز على حماه وقصد أبا الفداء وقد رتب من يحضر بمجلسه من العلماء المارين عليه والقاصدين إليه فحضر الأخ عنده وتكلم في علوم فأعجب به وأمره بالاقامة هناك وهيأ له الفرش والآلات مما يحتاج له ورتب له رواتب كثيرة وولاه مدارس ولازمه في الخلوة وعرفني منه فاتفق قدومه إلى الديار المصرية في بعض السنين فاستدعاني الى مجلسه على لسان الشيخ ركن الدين بن القوبقع فحضرت معه وصحبنا الصلاح بن البرهان الطبيب المشهور فوقع الكلام اتفاقاً في عدة من العلوم فتكلم بها كلاماً محققاً وشاركناه في ذلك ثم انتقل الكلام إلى علم النبات والحشائش فكلما وقع ذكر نبات ذكر صفته الدالة عليه والارض التي ينبت فيها والمنفعة التي فيه واستطرد ذلك استطراداً عجيباً وهذا الفن الخاص هو الذي كان يتبجح بمعرفته الطبيبان الحاضران وهما ابن القوبقع وابن البرهان فان اكثر الاطباء لا يدرون ذلك، فلما خرجا تعجبا الى الغاية وقال الشيخ ركن الدين ما أعلم من ملك من ملوك المسلمين وصل إلى هذا العلم. وكان له طلبة كثيرون يأخذون عنه حتى أنه لما توفي رثاه أحد طلبته بقوله:

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا   وجادوا بدمع لايبيد غزير
ولو مزجوا ماء المدامع بالدما   لكان قليلا فيك يابن كثير

حماه محج العلماء

تمتاز حماه بأنها كانت محجا للعلماء والادباء والشعراء واللغويين وأصحاب الفنون المختلفة ويصدق فيها قول مارون عبود : لم يجتمع في بلاط حاكم من الحكام من العلماء والأدباء والشعراء بعد سيف الدولة كمثل ما اجتمع في بلاط أبي الفداء وهـا اننا نذكر تبعا لذلك العلماء الوافدين اليها ونبتدىء بالأندلس .

قال ابن الوردي :أخبرنا شيخنا قاضي القضاة شرف الدين هبة الله البارزي المتوفي بحماة سنة ٧٣٨ هـ قال : نظم الشيخ جمال الدين الخلاصة « الألفية » بحماه برسم اشتغالي فيها وكنت شابا وخدمته . ولقد رأيت بركة خدمتي له . وقال المقري صاحب نفح الطيب « تصدر ابن مالك في حماه مدة » وقال العجيبي التلمساني المغربي المتوفي سنة احدى وثمانين وسبعمائة » ذكر لي من أثق بقوله ، أنه صنفها برسم القاضي شرف الدين بن هبة الله البارزي » وقال شمس الدين أبو الخير محمد الجزري « في طبقات القراء » نظم ابن مالك الخلاصة (الألفية) بحماه للشيخ شرف الدين البارزي ولابن الوردي اجازه بقراءة الألفية عليه الى القاضي شهاب الدين أحمد بن الربان ، وان وهبة الله البارزي اجاز ابن الوردي بالخلاصة (الألفية) عن ناظمها .

وبذكر رواية ابن الوردي يتبين أن القاضي البارزي أول من قرءا الالفية على ناظمها جمال الدين بن مالك وأول من أجازه في قراءتها .

وكنت قد وقعت رواية بأن ابن مالك قد نظمها بجامع القاق الذى يطلق عليه الان بحماه جامع القان وهو على مايظن واقع بقرب دار البارزي . وناهيك بالالفية من شهرة عالمية في الشرق والغرب . ويذكر العلماء الذين توفروا على شرحها وتلخيصها في سائر انحاء العالم العربي .

الوافدون على أبي الفداء من مصر :

١ – ابن نباته المصري : وكان سبب وفوده اليه أنه لم يلق من السلطان الناصر محمد من الرعاية مايستحقه أدبه وعلمه اذ كان والده ممسكا بديوان الانشاء « لبيبرس الجاشنكير » عدو السلطان الناصر محمد فلما وفد عليه أنشده قصيدة قال فيها :

قهرت حماة لي العدا　　　فحماة عندي القاهرة

وقد رتب له أبو الفداء مرتبا يكفيه مقداره ستمائة درهم كما ذكر ذلك البستاني في دائرة معارفه .

ومن أشهر مصنفات ابن نباته لابي الفداء الكتب التالية :

كتاب « مطلع الفوائد ومجمع الفرائد » وكتاب « سجع المطوق » وكتاب «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون » وكتاب «الفاضل من انشاء القاضي الفاضل »وكتاب « زهر المنثور » وكتاب « شعائر البيت التقوى » ورسالة « السيف والقلم » وقد وضع ابن نباته في كتابه « مجمع الفرائد » ثمرة ثقافته الواسعة في مصر والشام وقدمه للملك أبي الفداء وقد أحدث ثورة أدبية كبرى في عصره ، فانبرى لتقريظه كبار أدباء العصر وشعرائه أمثال الشهاب محمود القزويني والزملكاني ، وقد أشار عليه الملك المؤيد أن يترجم للادباء الفضلاء الذين تناولوا مؤلفه في الثناء فلبى أمره وكان له من ذلك كتابه « سجع المطوق » أما اسم الكتاب فيذكر ابن حجه أن ابن نباته اقتبسه من لطائف أبي الحسين الجزار في توريته المطوق كما في قوله :

أنت طوقتني صنيعا واسمعتـ ـك شكرا كلاهما لايضيع
فاذا ماشجاك سجعي فاني أنا ذاك المطوق المسجوع

وبالاضافة الى هذه الكتب فقد عمل له ديوان شعر سماه « المؤيدات » .

ولا أريد أن اسهب في محتويات هذه الكتب وعن اماكن وجودها اذ يخرج ذلك عن موضوع البحث .

وممن وفد أيضاً الى حماه من مصر :

محمد بن علي بن محمد الأديب شمس الدين أبو عبدالله ، المصري مولداً المعروف بابن طرطور الشاعر المشهور ، ولد سنة خمس وثمانين وستمائة ، وتعلم بحماه الخط المنسوب والتنجيم والادب وسكن دمشق ثم حماه ، وكان حسن العشـرة كثير التندير ، حسن الشكل ظريف الملبس ، لاتمل محاضرته ونادم الملك الأفضل صاحب حماه وقربه وأدناه وحنا عليه ورتب له الدراهم والخبز واللحم ، ورحل الى الشام ثم استوطن حماه الى أن مات فيها سنة ٧٦٢ هـ .

الرحلة من العراق الى حماه

كان أول اتصال ثقافي بين العراق وحماه ماذكره جمال الدين بن واصـل قاضي قضاة الشافعية بحماه اذ يقول :

سمعت أنا هذا الكتاب « كتاب روح العارفين ألفه الخليفة الناصر » (من رجل من أهل شيزر) قدم علينا من العراق وذكر ان له به اجازة من الخليفة فرويته عنه سنة ستمائة وعشر وكان عمري اذ ذاك أربع عشرة سنة .

وممن رحل الى حماه من العراق ، محمد بن عرب الحيقي الحسني الحنفي العراقي نزيل حماه المحروسة كان رجلاً نحوياً فصيح اللسان غزير الاخلاق وصل من العراق الى سلمية ، فاتفق توجه قاضي القضاة نجم الدين بن عبد الرحيم بن شمس الدين ابي طاهر ابراهيم بن شيخ الاسلام شرف الدين هبة الله البارزي واتفق ان الشيخ شمس الدين (الحيقي) صلى تلك الليلة المغرب أو غيرها بالجماعة ، وجلس معهم ضيفاً ، فأعجب نجم الدين منه وحسن تلاوته وفصاحته فجاء به الى حماه وقرره مشغلاً في علوم العربية بالجامع الكبير والنوري بحماه واستمر على ذلك وانتفع به جماعة من الطلبة في علم العربية فان تقريره للخطاب كان سهلاً سريع المأخذ توفي سنة ٧١٤ هـ .

وممن وفد الى حماه من العراق ، بنو الابرز ، كان جدهم مسلم يسكن بغداد بباب الابرز ثم خرج في جفلة التتار الى حلب فسمي الابرزي ثم خفف فسمي البارزي ومن أشهر هذه الاسرة :

هبة الله قاضي القضاة البارزي : ولد بحماة خامس رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة ، وقد أخبر ابن الوردي بأنه أخذ الفقه من طريق العراقيين عن والده وجده ومن طريق الخراسانيين عن جده المذكور عن الشيخ فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر الدمشقي ومن تلاميذه البرزالي سمع منه ، وابن أسامة والذهبي والتقي السبكي وابن طغريل وزين الدين عمر بن الوردي وغيرهم منهم حفيده عبد الرحمن البارزي وابن أخيه عثمان البارزي وأذن لجماعة من الطلبة في الافتاء . وأصبحت حماه في زمانه موئلاً لطلاب العلم والاخذ عنه وقد قال عنه ابن خطيب الناصرية في كتابه « الدر المنتخب » وانتهت اليه رئاسة المذهب بالاستحقاق « مذهب الامام الشافعي » ورحل الى حماه بحماه من الآفاق له تراجم ضافية في طبقات الأسنوي وطبقات السبكي وفي المنهل الصافي تجاوزت مؤلفاته في الفقه واللغة والتصوف وشرح سقط الزند للمعري وفي الحديث خمسة وعشرين موضوعاً مختلفاً انما الذي يهمنا من مؤلفاته كتابه « شرح نظم الحاوي » ونظمه

للملك أبي الفداء صاحب حماه وهو في أربع مجلدات وكانت مودته وثيقة بأبي الفداءوقد أرسل اليه بيتين من الشعر يدعوه الى وليمة :

طعــام العرس مندوب اليــه	وبعض الناس صرح بالوجوب
فجريا بالتناول منــه جريــاً	على المعهود في جــبر القلوب

وقال الصفدي في ترجمته : ووقف كتبه وهي تساوي مائة ألف درهم ، وباشر القضاء بلا معلوم لغناه عنه توفي سنة ٧٣٨ ﻫ .

وقد رحل الى حماة من العراق : صفي الدين الحلي وقد كفانا مؤونة بحثهالاستاذ وليد قنباز .

العلماء الذين عاصروا ابي الفداء في حماه

منهم محمد بن عبد الرحيم بن ابراهيم بن هبة الله القاضي كمال الدين بن قاضي حماه نجم الدين بن البارزي الحموي ، فقيه وامام ومدرس ولد سنة ٦٤١ﻫ ، ومحمد بن قاضي بارين بدر الدين الشافعي الفاضل المفتي ، كان عارفاً بالحاوي الصغير ويعرف نحواً وأصولاً وعنده ديانة وتقشف توفي سنة ٧٣٨ﻫ وكانت بينه وبين ابن الوردي صحبة قديمة في الاشتغال على شيخهما قاضي القضاة شرف الدين البارزي ، ومحمد بن يعقوب بن الياس الامام البارع بدر الدين أبو عبد الله الحموي المعروف بابن النحوية ، وكان رأساً في العربية والمعاني والبيان ، خيراً كيساً متواضعاً وقوراً مقتصداً في لباسه وأموره ، وأخذ عنه نجم الدين القحفازي وجماعته مات في صفر سنة ٧١٨ﻫ له اليد الطولى في الأدب اختصر « المصباح » الذي لبدر الدين بن مالك في المعاني والبيان والبديع « وأسفار الصباح عن ضوء المصباح » وشرح أيضاً ألفية ابن معطي شرحاً حسناً سماه « حرز الفوائد وقيد الاوابد » .

ومنهم موسى بن بصيص : المجود الكاتب ، شيخ الكتابة بزمانه لاسيما في المزوج والثلث ، ولد بحماه سنة ٦٥١ﻫ وتعانى المنسوب فأتقنه « نوع من الخط »وكتب الاقلام كلها ثم اخترع قلماً سماه « المعجز » وانتفع به الدمشقيون قال ابن كثير : وأنا ممن كتب عنه .

ووفد على أبي الفداء فيحماه علماء أجلاء فوفد عليه ابن مظروح والشهابمحمود والمقري الفيومي ، بل كان العلماء والأطباء كمايقول عمر موسى باشا في كتابة ابننباته « يتركون حواضرهم ليقيموا في بلاط الملك أبي الفداء الذي كان يستخدمهم ويدرعليهم الأرزاق « مثل الأبهري الذي كان بارعاً في الطب وعلم الهيئة ويعرف علم الحساب والمساحة والاصطرلاب ، وقد ذكر ابن حجة أن المؤيد « أبا الفداء » اقتطعه وأجرى عليه رزقه فلم يزل بحماه الى ان مات المؤيد وتحول بعدها الى حلب .

هذا وعلم أبي الفداء ومعرفته ومؤلفاته ربما تناولها غيري بالتفصيل ولكني أقول كلمة أخيرة في علمه ما قاله فيه ابن الوردي : وقد رأيت جماعته من أهل الفضل يزعمون أنه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل منه رحمه الله . وتمخض الأدب والشعر في حماة عن نهضة أدبية يرجع سببها الى ما قاله مارون عبود في كتابه «أدب العرب» صفحة ٣٥٦ بقوله :

ولاتنس جهل أكثر هؤلاء السلاطين بفنون الأدب وذوق العربية . فلو كانوا يتذوقون الأدب والشعر لانصب الشعراء على عملهم الفني ، وأتقنوا نظمهم وجودوه ، فلهذا لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون إلا في « حماه » حيث بقيت هذه العادة ردحاً من الزمن ، ولهذا لم يكن الشعر هناك صناعة لفظية .

المكتبات في حماه : أولع ملوك حماه بجمع الكتب سواء في خزائنهم الخاصة أو الموقوفة على القراء ، اذ كانت هناك مكتبة كبرى في قلعتها بعثرها الملك الاشرف حليف هولاكو عند مجيئه الى حماه وعندما هدم سور قلعة حماة ونهب زردخاناتها « أماكن السلاح » وكان فيها أيضاً مكتبة كبرى في مسجد أبي الفداء تحتوي على سبعة آلاف كتاب أوقفها للقراءة بعد أن وزع على اصحابهكتبا اخرى ، وكانت هناكمكتبة لهبة الله البارزي تحتوي على كتب يقدر ثمنها بمائة الف درهم ، هذا ماوصلنا من أمر هذه المكتبات وما لم يصلنا اكثر .

حماه وابن تيمية

نود ان نورد هنا تتمة لبحثنا ذلك الجدل الفقهيوالمذهبي بينابن تيمية وخصومه، لأن حماة بسؤالها الفقيه المشهور جرت عليه محنة كبرى باصدارهالفتوى الحموية الصغرى ثم الكبرى ، وكان السؤال قد وجه اليه سنة ثمان وتسعين وستمائة (في زمن أبي الفداء)

وجرى بسبب هذا الجواب امور ومحن ، وهو جواب عظيم النفع جداً فقال السائل :

ما قول السادة الفقهاء أئمة الدين في آيات الصفات كقوله تعالى في سورة طه الآية (٥) الرحمن على العرش استوى . وقوله في سورة (يونس ٣ ، الرعد ٢ ، الفرقان ٥٩ ، السجدة ٤ ، الحديد ٤) «ثم استوى على العرش» وقوله في سورة (فصلت ١١) « ثم استوى الى السماء وهي دخان » الى غير ذلك من الآيات ، واحاديث الصفات كقوله صلى الله عليه وسلم « قلوب بني آدم بين اصبعين من اصابع الرحمن » وقوله « يضع الجبار في النار » الى غير ذلك وما قالت العلماء فيه ، وابسطوا القول في ذلك مأجورين فأجاب على ذلك بما كان اجاب به الامام مالك بن انس وشيخه ربيعة ، وهو ان الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وان هذا ما كان عليه الأئمة المتبوعون والصحابة قبلهم والتابعون . فهاج القائلون بالتأويل على هذه الفتوى ، فرأى الشيخ الامام ان يزيد هذا التحقيق الاسلامي بياناً ، فأضاف الى هذه الفتوى نصوصاً عظيمة عن اعلام العلماء من اتباع المذاهب والصوفية كأقوال ابن زمنين الأندلسي المالكي ، وابن خفيف الشيرازي الشافعي الصوفي ، وعمرو بن عثمان المكي الصوفي وغيرهم فانتشرت الفتوى بعد هذه الزيادات انتشاراً عظيماً وسميت « الفتوى الحموية الكبرى » لتتميز عن أختها السابقة التي عرفت فيما بعد باسم « الفتوى الحموية الصغرى » فانتشرت الفتوى بسائر البلاد .

هذا وقد سير بابن تيميه من دمشق من قبل نائبها ابن الأفرم الى سلطان مصر آنذاك وهو بيبرس الجاشنكير وتحت تأثير شيخه المنبجي ، وانتدب له «للمجادلة» الشمس ابن عدنان خصماً احتساباً ، وادعي عليه عند ابن مخلوف المالكي أنه يقول ان الله فوق العرش حقيقة ، وان الله يتكلم بحرف وصوت ، فسأله القاضي عن جوابه فأخذ الشيخ في حمد الله والثناء عليه فقيل أجب ماجئنا بك لتخطب فقال ، ومن الحاكم في ؟ فقيل له القاضي المالكي ، فقال له الشيخ كيف تحكم في وأنت خصمي ، فغضب غضباً شديداً وانزعج وأقيم مرسماً عليه وحبس في برج أياماً ثم نقل منه ليلة العيد الى الحبس المعروف بالجب ، مع أخويه شرف الدين بن عبد الله وزين الدين عبد الرحمن .

وفي سنة ٧٠٨ هـ خرج ابن تيمية من الحبس — زمن سلطنة الناصر محمد — والناس قد عكفوا عليه زيارة وتعلما واستفتاء وغير ذلك .

تذكرنا هذه المحنة بالمحنة التي لحقت بأبي عبد الله أحمد بن حنبل في زمن المأمون والمعتصم ، اذ أن ابن تيمية كان شديد الوطأة كاستاذه أحمد بن حنبل على الجهمية والمعتزلة والمتكلمين وأهل التأويل وكما أسلفنا فان عصر أبي الفداء يشبه من سائر الوجوه عصر المأمون ، وحمل أيضاً ابن تيمية على الصوفية وخصوصاً على الأحمدية الرفاعية ولاحمد بن حنبل كتاب في الرد على الزنادقة والجهمية وهو مخطوط موجود في دار الكتب الظاهرية بدمشق في ١١٦ ص ، وكما انتشرت الفتوى الكبرى الحموية في سائر الاقطار وأعيد طبعها عدة مرات واشتهر بها ابن تيمية شهرة عظيمة ، اشتهر كتاب الحيدة الذي يمثل المناظرة والمناقشة بمجلس الخليفة المأمون بين الامام عبد العزيز بن يحيى الكناني المتوفي سنة ٢٤٠ هـ وبين بشر المريسي ، هذا الكتاب الذي حققه وأخرجه للطبع الدكتور جميل صليبا سنة ١٩٦٠ م .

لم لم يذكر أبو الفداء هذه الحادثة بتاريخه ؟

لما ألمت المحنة بسجن ابن تيمية في زمن سلطنة بيبرس الجاشنكير عدو السلطان الناصر محمد ، فإن المذكور أخرجه من السجن وانعم عليه وقربه وشجعه وأرسله مكرماً الى دمشق ، ولكن رسالة وجدت بخطه وهي : في السفر وأعمال المطي في زيارة قبور الصالحين ، أدت إلى سجنه بقلعة دمشق بأمر من سلطان مصر ــ الناصر محمد ــ إلى نائبه في دمشق تنكز سنة ٧٢٦ هـ وتوفي في سجنه سنة ٧٢٨ هـ ، ولما كان أبو الفداء من أخلص الناس لسلطانه الناصر محمد فلم يذكر ذلك حتى أنه كان يكبر اهل التصوف مسايرة لسلطانه المذكور ، اذ يذكر في حوادث سنة ٧٢٥ هـ لما عمر الناصر محمد سلطان مصر خانقاه وأنزل جماعة من الصوفية بها ورتب لهم الرواتب الجليلة أرسل أبو الفداء هدية تليق بالخانقاه المذكورة مثل كتب وبسط وغير ذلك .

هذا ما اقتضاه بحث هذا الموضوع عن حماه في عصر ابي الفداء .

المصادر والمراجع

عدد العمران (٢٩ ــ ٣٠) الخاص بحماه مقال احسان المظم (حماه عبر التاريخ) الحفريات الاثرية في قلعة حماه بقلم ب. ج . ريس . بحث المملكة الآرامية في حماه للاستاذ عبد الرحيم المصري المختصر في أخبار البشر لابي الفداء . تاريخ ابن الوردي .

تاريخ حماه للشيخ احمد الصابوني . تاريخ حماه لقدري الكيلاني . مخطوط « مع ثورة حماه للاستاذ محمد سعيد الزعيم . الفتوى الحموية الكبرى لابن تيميه . الحيده للامام عبد العزيز بن يحيى الكناني . الحروب الصليبية لرونسمان ترجمة العريني . الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور . ابن نباته المصري للدكتور عمر موسى باشا . استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الاسلامي وفي التاريخ المصري الوسيط للدكتور علي ابراهيم حسن . طبقات الشافعية للأسنوي . سجلات المحكمة المحفوظة بمتحف حماه . خزانة الادب لابن حجه الحموي . تاريخ الادب الجغرافي لكراتشكوفسكي . مناهج التأليف عند العلماء العرب للدكتور مصطفى الشكعه . دائرة المعارف للبستاني . صبح الاعشى للقلقشندي قاموس الكتاب المقدس ترجمة جبر ضومط — البداية والنهاية لابن كثير .

شخصيّة أبي الفداء في شعر ابن نُباتة وصفي الدين الحلّي

وليد قنباز

من نافلة القول ومكروره ان نسهب في الحديث عن الحضارة العربية الاسلامية في العصر العباسي ، ونجتزىء فنقول : إن هذه الحضارة قد بلغت اوجها ، وارتقت الثقافة رقياً عظيماً ، واستمرت تسير صعوداً صعداً منذ القرن الثالث الهجري على الرغم من الضعف الذي كان يعتور الامور السياسية في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، حين غلب الاعاجم والاتراك على شؤون الدولة لانهم اعتنقوا الاسـلام وتعلموا لغته واتقنوا آدابها ، واهتموا بالثقافة العربية على اعتبار انها ثقافة إسلامية فبذلوا وسعهم في ترقيتها

وتوسيع أطرافها ...(١) . ولكن القرنين السادس والسابع قد حملا في احشائها بذور التضعضع والانهيار والضياع اذ اصبح العالم العربي بعامة والعراق بخاصة على حال مزعجة من الفوضى والاضطراب سياسياً واجتماعياً بدءاً من الخليفة ورجال الحاشية الى عامـــة الناس ، حتى ان التفسخ الخلقي والفساد الاجتماعي باتا صورة واضحة وسمة بارزة لها(٢).

والثقافة التي بلغت أوجها في القرنين الرابع والخامس قد جمدت ، وأخذت في التدهور والتراجع ويمنا في ذلك الشعر العربي بخاصة ، فبعد ظهور المتنبي وأبي فراس والشريف الرضي وأبي العلاء المعري واضرابهم ظهرت نزعة شديدة الى التقليد امتازت بالجمود فقيدت القرائح شيئاً فشيئاً ، وأخذ الشعر ينقلب على الخواطر المعهودة ،كأنما أغلقت دونه جميع الأبواب الى مواطن جديدة(٣) . فلقد هجر الشعراء الفلسفة والثقافة الواسعة ، وأصبح أديبهم أدب الفاظ وحس فقط لا أدب أفكار وثقافة ، فهم لا يحاولون أن يوازنوا بين حسن التفكير وحسن التعبير ... (٤)

وأقبل عام ٦٥٦ هـ-١٢٥٧ م واجتاحت أرتال الظلام بغداد حاضرة العباسيين ومركز الاشعاع الحضاري وخلفتها قاعا صفصفا تبكي الماضي وترثي الحاضر ولاترى بارقة أمل في المستقبل ، وانطفأ القنديل بعد أن عصفت بذبالته الرياح الهوج وبددت بقية الزيت وحطمت زجاجه الثمين وبات دجلة مأوى الفكر والثقافة والعمران الحضاري بعد أن شهد ارتقاءها جميعاً على ضفتيه خلال قرون ...

واستمر الزحف المغولي الاسود الى الشام بعد سنوات عديدة وحاول تكرار مأساة العراق، ونفذ قسماولكن الاقدارلم تسمح له باعادة المأساة بكل جزيئاتهاودقائقها، اذ نجا قسم من الشام من هذا العاصف القاتل وان اغرق دمشق في بحور الكوارث الطامي...(٥).

ولقد اظلمت سماء الادب العربي في عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح. ومشى الناس في دياجير الجهل لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق في سماء مصر

(١) ـ عصر الانحدار (محمد اسعد طلس) ص (١٥٧) .
(٢) ـ المصدر نفسه ص (٥ ـ ٧) .
(٣) ـ تاريخ الادب العربي (حنا الفاخوري) ص (٨٩٢) .
(٤) ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي (شوقي ضيف) ص (٢٠٧) .
(٥) انظر عصر الانحدار لطلس وكتب التاريخ الاخرى .

او بارق في جو الشام(١) وغدت جمهرة الدول الاسلامية في هذا العهد غير عربية ، بل كان يتولى بعضها وثنيون وهم المغول في الفترة بين ظهورهم واسلامهم(٢).

وكان الشعر العربي رائجاً أيام كان الرؤساء من ملوك وامراء وولاة عرباً تترنح أعطافهم وتتطاول اعناقهم لتلك الديباجة العربية والنغمة البدوية ، وحين كان الشاعر مرآة مصقولة تظهر فيها محاسن الممدوحين وأيام كان الامير العربي يرتاح للمدح فيهزه الشاعر هز الكمي عالية الرمح ، فلو كانت نفسه في يده لجملها من عطاياه وسيرها الى الشاعر في منحه وهداياه ..

وأما هذا العصر فقد حرم فيه الشعر العون والنصير إذ أصبح كل رؤسائه أعاجم لايمتون للعربية بصلة إلا صلة البغض والحنق لأنها قضت على لغاتهم وأبادت آدابهم ، حتى لقد ناهضوها فلم ينهضوا وقاوموها فلم يفلحوا(٣)..

وطبيعي ان يسقط الشعر ويهوي من عليائه وقد تواضعت على أذاتـه عوامل متعددة : فمن فصاحة آضت الى العجمة والرطانة ، ومن قرائح أرمضها الشح والجفاف، ومن أذهان اخلقها الخمول والجمود ومن نفوس أضرعها الرعب والخنوع ، ومن ملوك أزرت بالشعر والشعراء(٤)..

وقد ارتفعت اصوات من خلال هذه العصور ، ولكنها اصوات محاكاة اكثر منها اصوات ابداع ، ولم يكن كلامهم غير تقليد الذين تقدموهم ، استوحوا القدماء لا الحياة والمحيط فقضى على أقوالهم بالفناء كما يقضي القيظ على النبات الضعيف الجذور ولا يدع إلا الجذور المتسلة الى الاعماق والفروع المتسامية الى الأعالي(٥).

هذه هي الحال بخطوطها العامة ، ولكن مؤرخي الادب والتاريخ يلتقون حول فكرة واحدة فيها جانب ايجابي ، تقول :

(١) تاريخ الادب العربي (احمد حسن الزيات) ص ٤٣٨ .
(٢) الادب العربي وتاريخه (محمود مصطفى) ص ١٨٣ .
(٣) المصدر السابق من ص ٢٤٠ — ٢٤١ .
(٤) ادباء العرب (بطرس البستاني) ص ١١٨ .
(٥) ادب العرب (مارون عبود) ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

لم يكن للملوك في هذا العصر شعراء مجيدون إلا في حماة حيث بقيت هـذه العادة ردحاً من الزمن(١) .. كما كان الحال في الخلفاء والامراء في العصر العباسي(٢) . فلقد اصطفى ملكها المؤيد ابو الفداء عدداً كبيراً من الشعراء المتفوقين وقربهم منه واغدق عليهم الاعطيات ومنهم : ابن نباتة المصري ـ صفي الدين الحلي ـ الشهاب محمود ـ ابن مطروح ـ المقري الفيومي ـ شرف الدين الحسن بن ريان ... وغيرهم فأعاد بذلك سيرة العظماء من العصرين العباسي والاموي وكان انموذجاًوحده في ذلك(٣) ..

ولعل الشاعرين ابن نباته المصري وصفي الدين الحلي كانا من اقرب المقربين اليه اذ انه قدمهما ورتب لكل منهما في السنة ستمائة درهم غير التحف ..(٤) على ان ابن نباته كان أطولهما مقاماً في حمى الملك المؤيد حتى يصح ان نطلق عليه لقب شاعر أبي الفداء .

وما دام الامر كذلك نرى انه لا بد لنا من عجالات نتعرف من خلالها الى نقاط بارزة في تراجم الملك المؤيـد أبي الفـداء ، وشاعريه البارزين ، ابن نباتـه المصري وصفي الدين الحلي .

آ ـ أبو الفداء :

هو السلطان الملك المؤيد أبو الفداء صاحب حماه عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود بن المنصور الايوبي ، ولد في دمشق عـام ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) ، وتأدب على علماء عصره فبرع في العلوم الانسانية والدينية والفقه والتاريخ والجغرافيا والطب والادب والشعر وعلم الهيئة .. وكان بطلاً مقداماً ، ولقد خدم الملك النـاصر قلاوون وهو في الكرك ، وبالغ في ذلك فوعده بحماه ، ووفى له بوعده ، وجعله سلطاناً عليها يفعل فيها مايشاء بلا مراقبة من مصر ولا غيرها .. ولما زاره أبو الفداء في القاهرة اركبه بشعار الملك وأبهة السلطنة ومشى الامراء والناس في خدمته ، وبالغ في اكرامه .

---

(١) ادب العرب (عبود) ص ٥٦ .

(٢) الادب العربي وتاريخه (مصطفى) ص ٢٤١ .

(٣) وانظر لتواريخ الادب للزيات ص ٣٤٦ وزيدان ص ٢٠١ والبستاني ص ١١٦ وغيرها .

(٤) تاريخ حماه (احمد الصابوني) ص ٨٩ .

وحكم حماه مدة ٢٢ سنة كان فيها الملك المحبوب المحمود الاثر ، فهو مثال العدل والكرم والشجاعة وكان يقرب اهل العلم ويرتب لهم الجواري والارزاق .. ولقد الف كتباً نفيسة هي من افضل مراجع التاريخ والجغرافية حتى الآن ابرزها ، المختصر في أخبار البشر في التاريخ وتقويم البلدان في الجغرافية، وتوفي عام ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م)ودفن في مسجده الذي أمر ببنائه قبل وفاته بخمس سنوات ..(١) .

ابن نباتة المصري :

هو أبو بكر جمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن نباته المصري .. ولد في القاهرة في شهر ربيع الاول من عـام ٦٨٦ هـ (١٢٨٦ م) في أسرة عرفت بالعلم والدين والادب .

ولقد توفر على الدراسة والتحصيل واختلف الى دور العلم والمعرفة واتصل برجال الفكر يأخذ منهم وكان يتمتع بذكاء واضح ونباهة متميزة ، ولذا نبغ ولما يكمل العشرين من عمره .

ولكن أيامه لم تكن معطاة إذ أنه عاش عشر سنوات في مصر يستقطر من البرق الخلب ، فكانت هذه المدة صورة للحرمان بأجلى صوره .. ولذا هاجر الى الشام مغترباً لعله يبدل أيامه من حال الى حال اتصل بالملك المؤيد صاحب حماة حوالي عام ٧١٦ هـ (١٣١٦ م) وعاش في كنفه سنوات أربت على الخمس عشرة كانت أزهى أيامه وأغناها مادياً وأدبياً وشهرة ، ولقد أصفاه خالص مدحـــه حتى زادت قصائده ومقطعاته وموشحاته فيه على الستين .

وبعد موت الملك المؤيد اتصل بابنـه الملك الافضل وغيره من الامراء والولاة وعمل في بعض الوظائف الادارية سعياً وراء الرزق واخيراً عاد الى القاهرة عام ٧٦٠هـ (١٣٥٨ م) بعـد غربة دامت حوالي نصف قرن ليمضي أواخر أيامه وقـد أحنت السنون اظهره وفجعته باولاده جميعاً حتى ودع الحياة عام ٧٦٨ هـ - ١٣٦٦ م وقد نيف على الثمانين .

(١) انظر ترجمة أبي الفداء في تواريخ الادب للزيات وزيدان وعبود وكتـاب ابن نباته لعمر موسى باشا ودائرة المعارف الاسلامية والاعلام للزركلي وغيرها ..

ترك ابن نباتة ديواناً شعرياً ضخماً وله عدة مؤلفات تدل على علو كعبه في المعارف والعلوم ، وهناك شبه اتفاق على انه من اكبر الشعراء الذين ظهروا في هذا العصر ، فالفاخوري يرى أنه نازع صفي الدين الحلي زعامة الشعر في عصره . . (١) . والبستاني يرى أنه من الشعراء الذين يستحقون الذكر ومن ابرعهم . . (٢) . وزيدان يرى أنه مشهور بالنظم والنثر . . (٣) . ومارون عبود يرى أن في شعره رقة وسهولة ونكتة مستملحة . . (٤) . وفي مكان آخر يرى أنه مع صفي الدين من خير ما سمع من الأصوات في تلك الحقبة .. (٥) . وأما محمود رزق سليم فيراهما معاً فحلي عصرهما بغير منازع . . (٦) .

ج – صفي الدين الحلي :

هو صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الطائي ، ولد في حلة بابل أو الحلة الفيحاء في العراق في ربيع الأول من عام ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) في قبيلة سنبس احدى قبائل طي وهي قبيلة عربية تمت كثيراً من السادات . عاش صفي الدين بين قومه هؤلاء وتأثر بحوادثهم وظروف حياتهم إلى حد كبير . . ولقد نبغ في الادب والفكر مبكراً حتى يروي الصفدي عنه أنه نال الشعر وعمره سبع سنوات واستمر يعاني صناعة الأدب فمهر في فنون الشعر كلها وتعلم المعاني والبيان وصنف فيها . واشتهر وهو بعد في طور الشباب وردد الناس شعره في كل مكان مثنين معجبين .

وكان له أعمام وأخوال ذوو مكانة في الحلة وكان بينهم وبين القبائل الاخرى تنازع على الرئاسة والامارة بالحلة ، ووقعت حوادث فوضى واغتيال ضد أخواله وكان لا بد من الرد العنيف والمقابلة بالمثل وكان لصفي الدين الدور البارز وذلك لمكانته من الشباب والشعر ، فأخذ بثأر أخواله ثم ما عتم أن رحل عن بلده الى ماردين فاتصل

(١) تاريخ الادب العربي (للفاخوري) ص٨٦٧

(٢) ادباء العرب (البستاني) ١٢١

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية (زيدان) ص١٣٢

(٤) ادب العرب (عبود) ص٣٥٩

(٥) الرؤوس (مارون عبود) ص٢٨٠

(٦) صفي الدين الحلي (محمود رزق سليم) ص٣٣

بملوكها واستقر بها فأكرموا وفادته ورفعوا مكانتـــه لمنحهم خالص المدح . . وانطلق الى الحجاز لقضاء فريضة الحج،وبعد عودته عرج على القاهرة عام ٧٢٤ هـ(١٣٢٣م) واتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون فرحب به واحتفى احتفاء بالغاً فخصه بماديح متميزة وهناك اقترح عليه جمع ديوانه فجمع قسماً كبيراً منه .

وغادر مصر وحط رحاله في حماه . . حمى الملك المؤيد فلقي لديه لقـــاء كريماً وبراً في الاهداء وعطاء جزلاً ومرتبـاً يكفيه طوال اقامته فقدم له الشكر والامتنان بعدة قصائد ومقطوعات وموشحات ، ولقــد شهد الحلي يوم وفاة الملك المؤيد ورثاه بأكثر من قصيدة وهنأ ابنه الافضل بارتقائه العرش ثم غادر حماه الى بغداد وبقي فيها الى ان وافاه الاجل عام ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) .

ولقد خلف ديواناً ضخماً هو مختارات من شعره وليس جميعه، وله عدة مؤلفات ورسائل ومجموعات شعرية ولقد قال في فنون الشعر كلها وهو فيها اشهر شعراء العربية على الاطلاق في زمانه(١) ، ولا يكاد يضارعه الا معاصرة شاعر مصر الكبير جمال الدين ابن نباتة المصري وهو عند زيدان اشهر شعراء العصر المغولي خارج مصر والشام (٢) وعند الفاخوري في طليعة شعراء هذا العصر وكان ذا مقدرة أدبية كبيرة (٣) . وعند مارون عبود زعيم شعراء عصر الانحطاط ولا تزال في شعره رائحة الشعر البليغ مـــن فصاحة لفظ ورشاقة اسلوب(٤) . وعند الزيات أحد النابغين في الشعر والأدب ولاخلاف في انه زعيم الشعراء في عصره(٥) . ويزيد الاستاذ محمود رزق سليم على ذلك قائلاً في حقه وحق ابن نباتة . « ولم يأت بعدهما شاعر فحل حتى ظهور محمود سامي البارودي في عصر النهضة الحديثة » . (٦) .

ومن ذلك جميعه نرى اننا أمام ملك عالم متميز ، وأمام شاعرين هما خير مـا في

---

(١) صفي الدين الحلي (محمود رزق سليم) ص٧٨

(٢) زيدان / تاريخ ادب اللغة العربية ص١٣٩

(٣) تاريخ الادب العربي (الفاخوري) ص٨٦٦

(٤) ادب العرب (عبود) ص٣٥٧ – ٣٥٨

(٥) تاريخ الادب العربي (الزيات) ص٣٥٠

(٦) الحلي (لمحمود رزق سليم) ص٨٠

حقب طويلة من السنين ولذا علينا الآن أن نتعرف الى كيفية وفودهما على الملك المؤيد ومدى الصلة حتى نتمكن من الدخول في البحث عن شخصيته في شعرهما .

فابن نباتة الذي لقي الصد والحرمان من أبناء بلده هاجر الى الشام عام ٧١٦ ﻫ (١٣١٧)م (١) وشرع في التنقل بين مدنها مادحاً ومستجدياً ، ومن ثم بدأ يفد على الملك المؤيد مرة في العام ، ثم ما عتم ان اقام في حماه هانئاً ناعماً بدار اقامته وصاحبها وتشجيعه ورواتبه ومنحه حتى نسي مصر واهلها وفي ذلك يقول :

خليلي هـذا مـن حماة محـله ... فعوجا على الأرض التي تنبت الهنا
غنيت بجـدواه فـأطربني الدمرى ... ولا عجب أن يطرب المرء بالغنـا
ولا عيب فيـه غـير أني قصدتـه ... فأنـستني الأيام أهلاً وموطنا (٢)

ولقد بقي ابن نباتة في حمى الملـك المؤيد حتى وفاته واتصل بعده بابنه الملك الأفضل ثم هـام على وجهه في بلاد الشام باحثاً عن موارد الرزق التي كانت فياضة في ابنة العاصي .

وأما صفي الدين فكان على صلة وثيقة بابن نباتة وكانت تربطهما أواصر الصداقة والأدب وكانت بينهما مواصلات وقصائد ، وأغلب الظن ان ابن نباتة هـو الذي أغرى صفي الدين بالقدوم الى بلاط الملك المؤيد وقد يكون للملك نفسه يد في ذلـك ... ففي ديوان ابن نباتة قصيدة موجهة الىصفي الدين يظهر له فيها رفده وعيشه الناعم الرضي عند المؤيد مبيناً أن هناك دعوة وجهت اليه للحضور الى حماة ولم يلبها ، ويكرر بان عليه أن يترك كل شيء ويأتي لينعم بجوار مليك وصل الى النهاية عدلاً وكرماً فغدا واحد دهره ونسيج وحده :

تارة من حماه يدعى وطوراً ... يستحث الثنـا اليه حداتـه
يا مفيـد الورى لآلىء بحـر ... يعرف الذوق عذبه وفراتـه
خل هـذا وانعم بباب مليك ... عم بالعدل والنوال عفاتـه
لو طلبنا له شبيهاً من الدهر لكنا كطالب اعناته(٣)

(١) انظر ابن نباته (لعمر موسى باشا) ص١٢٦
(٢) ديوان ابن نباته ص٤٨٩
(٣) ديوان ابن نباته ص٧٣

ولا تذكر كتب التاريخ والادب سنة وفادة الحلي على المؤيد ولا المدة التي قضاها عنده ، ويمكننا من استقرائنا لعديد من المصادر ان نحدد ذلك على التقريب .

فهذه كتب الادب تذكر ان الحلي وفد على مصر عام ٧٢٣ ﻫ (١٣١٣) م بعد عودته من اداء فريضة الحج واتصل بالملك الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر وبالكاتب علاء الدين بن الاثير (١) ويظهر انه ذهب الى العراق وعاد ثانية الى مصر عام ٧٢٦ ﻫ (١٣٢٦) م (٢) اذ انه كان يتعاطى مهنة التجارة وهي تتطلب رحلات متوالية وكان خلال هذه الرحلات يمدح الملوك والاعيان (٣) .

وعلى هذا يمكننا ان نرجح ان وفادته على الملك المؤيد كانت بعد عام ٧٢٦ ﻫ (١٣٢٦) م التي قام فيه بزيارته الثانية والاخيرة لمصر .

ونرى كذلك ان اقامته في حماه لم تكن متصلة بسبب رحلاته التجارية ففي الديوان قصيدة قدم لها بما يلي . قال وكتب بها الى السلطان الملك المؤيد عماد الدين صاحب حماه وكان وعده ان يحمل اليه فرعا له بيديه (٤) على انه حضر وفاة الملك المؤيد عام ٧٣٢ ﻫ (١٣٣١) م ورثاه ومدح ابنه وعزاه بعدة قصائد وموشحات ثم غادر حماه نهائياً الى بغداد .

ويجمع مؤرخو الادب على ان الملك المؤيد قد اهدى الى الحلي واعطاه فأجزل في العطاء وبرّ في الاهداء ورتب له مرتباً يكفيه طوال اقامته (٥) .

والآن آن لنا ان نرصد ملامح شخصية ابي الفداء من ثنايا شعر ابن نباته وصفي الدين الحلي معاً ومن ثم ما انفرد كل منهما بذكره .

ونستبق الكلمات فنقول : ان هذه الصفات لم تأت منفردة في قصيدة واحدة ، بل قد يجتمع اكثرها في القصيدة الواحدة كما قد يضم البيت الواحد اكثر من صفة .

---

(١) صفي الدين الحلي (محمود رزق سليم) ص٢٧

(٢) انظر الموسوعة الاسلامية في ترجمة صفي الدين الحلي وتاريخ آداب العرب للرافعي ج٣ ص٢٧٣

(٣) الدرر الكاملة لابن حجر ج٢ ص٣٦٩

(٤) ديوان صفي الدين الحلي ص٥٨١

(٥) الحلي (محمود رزق سليم) ص٢٠

آ ـ الكرم ومحل الرجاء :

وهي اولى الصفات التي تصادفنا في كلا الديوانـين ، فلقد وصل ابن نباته الى حمى الملك المؤيدوالرزايا تحيط به والمصائب تنوشه ،وليس ادل على حقيقة شيء من كونه مصاباً بحرفة الأدب فلم يبق عن لفظه وفضله بقية ، ولكنه وضع امله ورجاءه على...عماد المعالي:

فأجل عني حالا اراني منبـا كل يوم في غـارة شعـواء
فكفى من وضوح حـالي اني في زمـاني هـذا من الادباء
ضاع فيه لفظي الجـبير وفضلي ضيعـة السيف في يـد شلاء
غير ان على عمـاد المعـالي قد بنيت الرجا اتم بنـاء (١)

وانه من المؤكد ان ابن نباته في اول امره كان يفد على الملك ابي الفداء مرة كل عام فيجد لديه مايكفيه ان يسأل الاخرين عاما كاملا ، ثم اقام اقامة دائمة :

في كل عام لي عليه وفـادة تغني قصيدي عن سواه ومقصدي(٢)

ثم يظهر ان بعض عطائه لايائل فكيف به كله ؟ .. ولهذا الاعجب اذا سلا شاعرنا ارضه المصرية وآماله الكبار فيها فاين هي من ابن تقي الدين .. ؟ .. :

الم تر أنا قـد سلونا بأرضـه مراد لنا في ارض مصر ومرتعا
اذا ابن تقي الدين جاد نباته علينا فلامدت النيل اصبعا(٣)

ويشرع ابن نباته في مقارنة ابي الفداء بشخصيات تاريخية معروفة دلالة عـلى ثباتها كمثل عليا من طرف وعلى التفوق عليها من طرف آخر ، فأين كرم كعب بن مامه الايادي من كرم ابي الفداء فهو محط الرجاء والامنيات ومعدن الوفاء ، ويداه تهتزان بالعطاء صباح مساء وكأنها يدا سابح في ماء .. انه المليك الذي سما على الشمس وغـدا جوده كشعاع للوجود كله ... وبهذا صان كف شاعرنا عن ان تمد لغيره ولسانه عـن ان يمدح سواه ، ومازال يترفع منزلة ومكانة حتى فاق المنذر بن ماء السماء :

خل كعبا ورم نداه فما كعـ ب العطـايا ورأسها بالسـواء

---

(١) ديوان ابن نباته ص٧
(٢) الديوان ص ١٣٢
(٣) الديوان ص ٢٩٤

وارج وعـد المنى لديه فاسما   عيـل مازال معـدنا للوفاء
مالكفيه في الثراء هـدو   فهـو فيه كسابح في مـاء
يامليكا علا على الشمس حق   عم احسانه عمـوم الضياء
صنت كفي عن الانام ولفظي   فحرام نـداهم وثنـائي
وسقتني مياه جودك سقيا   رفعتني على ابن ماء السماء(١)

ويقدم شاعرنا صورة طريفة فايامه وايام امثاله في ذرى باب ابي الفداء مواسم فضل واعياد فطر ، ويدعو كل محتاج ليلوذ برحابه ليمحو عسره مهما كان ثقيلا ... بل يكفي المعسر ان يسمى ابا الفداء في ضميره حتى يرى ان الثراء واليسر والهناءة قد احاطت به من كل جانب :

كل ايامنا مواسم فضل   في ذرى بابه واعياد فطر
لذ بيمناه في الحوائج تظفر   بيسار يمحى به كل عسر
سمة في الضمير ان ذقت فقرا   وعلي الضمان انك تثرى(٢)

ثم يظهر دور ابي الفداء في الانعام حتى الثراء ، فها هو ذا ابن نباته يعطي الزكاة بعد ان كان يأخذها من المنعمين بالامس فقط . وبات يفخر بقول الناس عنه : عبد دولة ابي الفداء ، بل راح يعده اشهر القابة واسمائه واحبها الى قلبه :

اعطي الزكاة وقدماكنت آخذها   يا قرب مابين اقتاري واثرائي
وعاد قول البرايا عبد دولته   اشهى واشهر القابي واسمائي(٣)

تلك أيام أبي الفداء صورة مثلى عن أيام أجواد العرب السابقين ، وذاك مديح شاعرنا صورة ثانية عن أماديح إكبار الشعراء ... فلا عجب أن يختال متفوقاً بين لداته ، فلولا كرم أبي الفداء لما عاد يذكر الكرم ، ولولا مديح ابن نباته لما عاد يذكر الشعر الشعراء :

---

(١) الديوان ص ٤ — ٥
(٢) الديوان ص ١٨٤
(٣) الديوان ص ٦

ظعــن الكرام الأولون وأقبلت ... أيامــه ، فكــأنهم لم يظعنــوا
لم يبــق لولا جــوده ومديحنا ... مال يكال ، ولامقال يوزن(١)

وعندما مات الملك المؤيد وارتقى عرش حماه ابنه الملك الافضل يتوجه اليه ابن نباتة بامنياته ورجائه ان يحقق مطالبه العانية وأن يكون كأبيه في الكرم :

اليــك بعثت وفود الرجــا ... ووجهت شــتى القاصــية
وكان المؤيــد ثم انقضــى ... فأيــد مطالبي العانيــة (٢)

وتلك حقيقة ... فبعد أن قضى المؤيد والافضل ، عاد ابن نباته الى التنقل في بــلاد الشــام ســعياً وراء الرزق الذي كانت منحه تــترى ويكفي يــده ولفظــه عــن التبذل والسؤال .

وأما صفي الدين الحلي فمدحاته وصوره ولقطاته أقل من عطاء ابن نباته،واطول عهد النباتي وقصر عهد الحلي دور في ذلك .. فها هو ذا يدعو له بالخير لانعامه واحسانه حيثما حمل اليه تحفاً وكسوات البيت وآلاته ومهماته جميعاً :

جزاك الله عن حسناك خيراً ... وكان لك المهيمن خــير راع
فقد قصرت بالاحسان لفظي ... كما طولت بالأنعام باعي (٣)

ولذا رأح يحمد رحلته وما صار اليه من راحة بال وحسن لقاء ولاسيما أن آماله وأمواله قد ربت واهتزت فهل عليه لوم إذا لم يسأل عن اهله وقد أضحى يرفل بين أفواف النعيم ولأن له كل صعب في الوجود :

حمدت اليك ترحالي ... وحالي
وزاد اليك اقبالي ... وبالي
وقد ضاعفت آمالي ... ومالي
فلست أطيل عن آلي ... سؤالي

---

(١) ديوان ابن نباته ص٤٨٦
(٢) الديوان ص٥٦٤
(٣) الديوان ص٢١٨ (ديوان الحلي)

أفضت علي النعمى ملابس   فصار لدى رطباً كل يابس (١)

وهو في مكان آخر يبحث لعله يجد له نظيراً في السماحة والندى فلا يظفر ، فليس لها حد وليس لها ند :

تجبراً من لجودك رام حـداً
ومن بالغيث قاسك قـد تعدى
وكيـف تقـاس بالأنواء حـداً
وكفك للورى أدنى وأندى (٢)

وفي قصيدة أخرى يؤكد على هذه الصفة تأكيداً واضحاً ،فأبو الفداء جعل كرمه قيداً للفقراء ، وطالبي المعروف الذين يعجزون عن الشكر ، وهو بعمله هذا أقام بيوت العلا بينما جعل بيت ماله اطلالا ، وكيف لا ومطر كفيه يقصر عنه مطر السماء ، فتلك السحب تجود وتبكي بالمياه ، وهو يجود ويضحك بالأموال :

يا من جعل البر للعفاة قيوداً   قد زدت من المن عنق عبدك أغلال
أظهرت علينـا من السماح بحات   ان قصر نطقي بوصفها نطق الحال
شيدت بيوت العـلا وكن طلولا   بالجود فأمست بيوت مالك اطلال
ما انصف من قاس راحتيك بسحب   من أين لكفيك في السحائب أشكال
السحب إذا ما سخت تجود وتبكي   بالماء ، وتسخو وانت تضحك بالمال (٣)

ووصـل الأمر بالحلي الي أن يقول ــ كما قال ابن نباتة من قبل ــ بأن عطاء أبي الفداء وحفاوته قد أنسياه أهله ووطنه ، وليس له الا كيل الأماديح والثناء ، وان أسف وندم على شيء في حياته ... فهو على أنه أضاع أيامه الأولى بعيداً عن ظل المؤيد :

آنسه فضلكم فما طلبت   مسكنه نفسه ولا سكنه
اسلاه عن أهله صنيعكم   به وانساه ظلكم وطنه
يعان بالمدح والثناء وقـد   اشبه في الود مره علنـه

---

(١) الديوان ص ٢١٧
(٢) الديوان ص ٢١٦
(٣) الديوان ص٢١٨

ما ساءه غير فوت مدتــه   وماقضى تحت ظلكم زمنه(١)

وتراه يؤكد في مكان آخر انه مقيم في حمى الملك المؤيد صاحب العز المنيع والمجد المشرد (لأن من وجد الاحسان قيداً تقيدا) :

أما قال الذي في الحسن زيد
ومن وجد الندى قيداً تقيد
فها أنا في حمى الملك المؤيد
منبع العز ذي مجد مشيد(٢)

وبعد أن قضى الملك المؤيد نرى صفي الدين ينقطع لابنه الملك الأفضل ويخلصه « المدح » وفي كل قصيدة نرى طيف أبي الفداء يترامى بسماحته وجوده ووعده الصادق. فها هو ذا في واحدة منها يقرر أنه قد سن سنة الكرم للناس جميعاً فأصبح علماً يقتدى به الكرام كلهم في كل زمان ومكان حتى فاه لسان حاسده بها رغماً عنه :

يابن الذي سن السماح للورى   فأصبحت بــه الكرام تقتدي
الصادق الوعد كما جاء بــه   نص الكتاب والصحيح المسند
من أصبحت أوصافه من بعده   في الارض تتلى بلسان الحسد(٣)

ويطول بنـا الحديث ان اردنا الاستقصاء في كلا الديوانين . وحسبنا ما اوردنا ، وكلها تدل على كرم أبي الفداء وسماحته وكونه محل الرجـاء وقبلة العفاة في زمانه .

ب — العلم (ابو الفداء العالم) :

ولعل هذه الصفة من ابرز صفات ابي الفداء ، فهو ماذكر مرة الا ووصف العالم بجوار اسمه وما من قصيدة خلت منها ، فهذا ابن نباته يقرن بين صفة العلم وصفة الكرم، ويعلن أن أبا الفداء لها معا :

والفــه للعــلوم أو العطــايا   تلق ملكاً يقري الضيوف ويقرى(٤)

---

(١) الديوان ص٢١٢
(٢) الديوان ص٢١٦ كذا وردت في الديوان وترجح أنها (ذي المجد المشيد)
(٣) الديوان ص٢٢٤ — ٢٢٥
(٤) الديوان ص ١٨٤

وهاهي ذي تصانيفه العظيمة التي سطرها في سبيل الله والاسلام فغدت لها حلية ومنعة فهو يحمل في يده اقلامه الحمراء وسيوفه البيض منهلاً لمعاني المدح وافكاره .. فله احرفه وسطوره التي اغنت الدين واثرت في الناس كل الناس :

ولعلوم تصانيف بدت فغدت　　نعم السوار على الاسلام والسور
في كفه حمر اقلام وبيض ظبا　　كأنها لبرود المدح تشهير
قد اثرت مايسر الدين احرفها　　وللحروف – كما قد قيل – تأثير(١)

وليس هذا فقط ، بل ان أبا الفداء كان يجلس للعلماء والادباء والمفكرين ينادمهم ويناقشهم ويجادلهم ويطرح آراءه بوضوح وجلاء ويسر فتقع في قلوبهم جميعاً اجل موقع واقواه بلا لبس وغموض فهي سديدة قاطعة سواء أكان الكلام لها أم عليها :

ويلشر العلم لاقول بمختلف　　إذا رواه ولا معنى بملتبس
ويشبع الأمر آراء مسددة　　تقضي وتدفع صدر الحادث الشكس
تكون كالعضب احياناً وآونة　　تكون من وقعات العضب كالترس(٢)

وكم جاء العلماء أنفسهم يستفتونه في مشكلة اشكل امرها ، او امر اغلقت دونه المسالك فاذا هم امام بحر علوم لاحدود له يضع النقاط على الحروف ويحل المعضلات فمن النادر ان تلقى له نظيراً على وجه البسيطة ومها حاولت فلن تجد الا ماهو دونه فهو المرجع الاول والاخير :

ومسائل في العلم اشكل امرها　　حلا ، وحل لطالب اشكالها
بيراع سيف او بسيف يراعة　　فصل الامور جلادها وجدالها
قل للممثل في البسيطة وصفه　　دع سحبها وبحارها وجبالها
هاتيك امثلة دنت عن قدره　　فاطلب لهاتيك الصفات مثالها(٣)

ويزيد ابن نباتة في الوصف والشرح فيحكي لنا عن اقلام ابي الفداء واساليبه وافكاره ، فاذا هي تنساب برفق وسيوله فتسلب الباب الرجال بمعانيها الوضاءة وكأنها اوانس تتهادى وتجلس على ارائك النور فوق النجوم الزهر :

---

(١) الديوان ص ١٨٥

(٢) الديوان ص ٢٦٤

(٣) الديوان ص ٣٧٩

ولله من اقلام علم بكفه	سوالب الباب الرجال سوالك
كأن معانيها كواعب تنجلى	علىحبكالادراجفوقأرائك (١)

ولهذا جميعه لاعجب اذا رأينا طلاب العلم والمعرفة يؤمونه من كل حدب وصوب جثياً الى جنب مع طلاب الرفد والعطاء.. فاذا هم أمام بحر علوم زاخر يرميهم بمباحث تجعل الجاهل مقصراً أمامها وتفتح الباب أمام المقصر ليسمو فوق الثريا... وتلك الفاظه وكأنه السحر الحلال لما تحوى بين ثناياها من جمال وذوق وفن وذاك فكره المتوقد يهب النجوم بعض شراره المتناثر :

يوم حماه طالب بعد طالب	فذو الحال يستجدي وذو العلم يقتدي
مباحث علم بدت كل مفصح	على انها قد فصحت كل ابلد
ولفظ كأن السحر فيه محلل	ألم تره في الذوق غير معقد
كأن النجوم الزهر في كبد الدجى	شرار لظى من ذهنه المتوقد (٢)

وعندما التحق أبو الفداء بالرفيق الأعلى ، راح شاعره ابن نباتة يذكر مناقبه ومآثره ويتساءل عن العلوم والمؤلفات والدارسين والقاصدين والمحاربين وحالهم بعد ان فقدوا ملجأهم ومقصدهم ومن كانوا يهتدون بهديه ويستنيرون بأفكاره ويستعينون به على دهرهم وجهلهم :

لهفي عليه لممتاز ومطلب	بالمال يقريه أو بالعلم يقريه
من العلوم وللاعلام ينشرها	وللوغى ، ورداء الخوف يطويه
من التصانيف أمثالالكواكب في	ليل المداد لساريالفكر يهديه (٣)

وأما الحلي فانه بدوره يؤكد على هذه الصفة ويوردها بكثرة ، فها هو ذا يظهر ان أبا الفداء يذر العالم الكبير أمامه بليداً،والفلاسفة جهالاً بعد أن يتعرض لهم بالبحث والمناقشة والجدل :

يا من جعل العالم الفصيح بليداً	بالبحث ، كما صير الفلاسف جهال(٤)

(١) الديوان ص٣٦٠

(٢) الديوان ص١٢٩

(٣) الديوان ص ٥٧١ – ٥٧٢

(٤) الديوان (صفي الدين الحلي) ص٢١٨

ومن ثم يقدم لنا صوراً عن هيبته العلمية وهالته الفكرية . فالاصمعي لو وقف أمامه منشداً الشعر لاخطأ ولحن ، ولو اعاد عيّ كلماته الساحرة لسالت رقراقة وكان قائلها ذرب اللسان سليم مخارج الحروف ، وأما لفظه فهو مهذب فصيح لا يعتوره سقوط ولا غفلة ولا ضياع :

ولو اتى الاصمعي ينشده شعراً لاصبح من خوف به لحنه
ولو رعى ألكن عبارته أزال من سحر لفظه لكنه
مهذب اللفظ في الفصاحة لا كسائل المازني : من ختنه (١)

وتلك آراؤه السديدة مازالت تسمو وتتعالى حتى تخطت السحاب وجرت ذيولها فوق رأسه :

يا أيها الملك الذي آراؤه سحبت على هام السحاب ذيولا(٢)

وأما العلم فلولا الملك المقدام لامحت سطوره ودرست معالمه ولم يبق له نصير :

ولولا أنت يا مردي الفوارس لاضحى العلم بين الناس دارس(٣)

ولهذا جميعه فقد أضحى اسمه مقروناً بالعلم فما ان يذكر حتى يذكر الناس الملك المؤيد اعلم العلماء وما أن يذكر الحكم حتى يذكر الناس أبا الفداء أحكم الحكماء :

أن ذكر العلم فنعمانه أو ذكر الحكم فلقمانه (٤)

وعندما مات الملك العالم كان شاعرنا في حماه ، فرثاه مخمساً نونية ابن زيدون ، ومن ثناياها برزت من جديد هذه الصورة الرائعة ... صورة الخلوات العلمية الفكرية وأبو الفداء بين جلسائه للبحث ، وليس لهم مؤنس سوى المباحث المتشعبة ، ولكن القضاء قد حم وأسكت الباحث على ذلك كله ، وكأنه لم يكن ثمة لقاء في غفلة عن الوشاة والرقباء

---

(١) الديوان ص٢١١ – ٢١٢ . والسائل هو عبدالعزيز بن مروان والد الخليفة عمر بن عبدالعزيز (تاريخ دمشق لابن عساكر) ويروى أن السائل هو الوليد بن عبدالملك (نقد النثر لقدامة ابن جعفر) واللحنة وقصتها مشهورتان . انظر كتاب إصول النحو (سعيد الافغاني) ص ٩١ .

(٢) ديوان الحلي ص٥٨١

(٣) الديوان ص ٢١٦

(٤) الديوان ص ٢٢٢

كم خلوة هزنا للبحث باعثنا فليس يؤنسنا إلا مباحثنا
فاليوم أخرس بالتفريق نافثنا كأنما لم نبت والوصل ثالثنا
والدهر قد غض أجفان واشينا (١)

ومن خلال مدح الملك الأفضل كانت هذه الصفة تظهر بنواحيها كافة ، فاذا هو وارث علم أبيه وابن الذي كان في العلم ونجل الذي حمل السيف والقلم بجدارة ما مثلها جدارة :

وارث علم الملك المؤيد ارثاً صحيحاً سيداً عن سيد
. . . .
يا ابن الذي قد كان في العلم علم واستخدم السيف جدير أو القلم (٢)

ويؤكد من خلال تعزية الأفضل بوفاة أبيه على أن الملوك قد ضاعوا بعد وفاته لأنهم فقدوا الرأي السديد والقول النصيح ، ومن العجب أن تخذل العلوم والطب صاحبها وتقصر عن مساعدته حينما دهمه القضاء :

ملك تيممت الملوك برأيه فكأنه لصلاحهم أكبر
أمس عماد الدين بعد علومه ولطبه عما عراه قصور (٣)

ويطول بنا الحديث ثانية ان استقصينا الشواهد كلها ، وحسبنا ما أوردنا ، والتي تدلل جميعها على أن صفة العلم ووصف العالم ونعت الباحث كانت شيئاً أساسياً وجانباً هاماً من شخصية أبي الفداء .

ج ــ الشجاعــة :

وهي سمة بارزة تطل علينا بين حين وآخر في قصائد ابن نباته والحلي ، ولكنها لا تصل في الكرة الى الصفتين السابقتين ، فها هو ذا ابن نباته يقول بأن أبسط كرمه وأقل سطوته بجعلانك تنسى كرم هرم بن سنان وقوة شبيب بن يزيد الخارجي :

(١) الديوان ص٣٦٣
(٢) الديوان ص ٢٣٢
(٣) الديوان ص ٣٨٥

ملك بادني سطوه ونواله أنسى ندى هرم وبأس شبيب(١)

ويؤكد على هذا المعنى ثانية ، فاذا بأبي الفداء يطوق العفاة بالمال والاعداء بالسيوف فهو — والحال هكذا — آسر الاحباب والاعداء :

ملك يطوق بالاحسان وفد رجا وبالظبا والعوالي وفد هيجاء
ذا بالنضار وهذا بالحديد فما ينفك آسر أحباب وأعداء(٢)

وهو بشجاعته وأقدامه قد أرهق حسامه من كثرة القراع والمبارزة، وغدا السيف بين حبه لصاحبه وبين تعبه من كثرة الضرب والطعن :

قد أتعب السيف من طول القراع به فالسيف في راحة منه وفي تعب(٣)

وكم من حروب ومواقع كانت الخيل فيها تجري في بحار من الدم المسفوك عن سيوف تضرب فتثير النار وتطفيء لهيب الحقد والبغض .. فأصاب البأس كل الناس وحاروا أيا يسلكون وأيا يعملون ... فوقف مشرق الوجه ثابت الجنان وحسم الموقف بشجاعته النادرة وآرائه الحكيمة السديدة :

وحروب تجري السوابح منها في بحار مسفوحة من دماء
من ضراب تشب من وقعه النا ر ، وتطفىء حرارة الشحناء
يئس الناس إذ تجلى ، فجليت دجاها بالبأس والآراء ..(٤)

ويعود ابن نباتة في قصيدة أخرى ليضيء جوانب هذه الصفة أكثر فأكثر فيظهر لنا أبا الفداء أسيراً تحت سيطرة الكرم والقوة اللذين تركا له في كل حدب وصوب ثناء عاطراً وذكراً رفيعاً ، فهو في كرمه يملأ الديار من أعطياته ، وفي قتاله يملأ القفار من عساكره ، وإذا حارب قوماً خلفهم أسرى والقيود في أيديهم وأرجلهم ، وإذا صدر عفوه عنهم قرنه بنعمه وصلاته :

وتملكته سماحة وحماسة جعلا له في كل ناد ذاكراً

---

(١) ديوان ابن نباته ص٢٠
(٢) ديوان ابن نباته ص٦
(٣) الديوان ص٢٢
(٤) الديوان ص ٧

وإذا سخا ملأ الديار عوارفا ــــــــ وإذا غزا ملأ القفار عساكرا
وإذا سطا جعل الحديد قلائدا ــــــــ وإذا عفا جعل الحديد جواهرا(١)

وإذا شبت نيران المعركة تجد السيف يستعير قوة من قوة أبي الفداء وبأسه ويصول ويجول في الميادين صولة خبير وجولة مدرب فلا يدع في أرجاء الشام اي أثر للأعداء ، بل يعجل الفتك بالكافرين فلا يترك منهم دياراً يلد فاجراً كفاراً :

وإذا شبت الوغى فكأن السيف من بأسه استعار استعارا
ذو حسام مدرب لم يدع في ــــــــ جانب الشام للعدى ديارا
اعجل الكافرين بالفتك عن ان ــــــــ يلدوا فيه فاجراً كفارا(٢)

ذاك أبو الفداء الذي يعمل في سبيل الاسلام والدفاع عن الدين وحماية دياره من غارات الاعداء بالقتال آونة وبالقاء الرعب والرهبة في قلوب المغيرين آونة أخرى :

كم غارة عن حمى الاسلام كفكفها ــــــــ بالضرب والطعن او بالرعب والرهب(٣)

وبعد الملك المؤيد بكى ابن نباته بدموع غزار وقلب محترق فقد مولاه الذي كان مطرا لطالب المعروف وعونا لطالب النجدة فالعلم الصحيح يروي حوادثه عن اقلامه والنصر المبين يروي حوادثه عن رماحه . . والان : من ينشر العلوم ، ومن ينشر اعلام القتال ليطوي عن الناس رداء الخوف ...

كان المؤيد في يومي ندى وردى ــــــــ غيثا لراجيه او غوثا للاجيه
تروي صحاح القضايا عن براعته ــــــــ والنصر في الحرب يروي عن عواليه
من للعلوم وللاعلام ينشرها ــــــــ وللوغى ورداء الخوف يطويه(٤)

وذاك الحلي يضرب على الوتر نفسه ، ويصعد النغم ذاته . فالملك المؤيد بكرمه يجعل الذليل عزيزا وبقوته وشجاعته وسطوته يذر العزيز ذليلا ، وتلك سيوفه تحمي

(١) الديوان ص ١٨٩
(٢) الديوان ص ١٩١
(٣) الديوان ص ٢٣
(٤) ديوان ابن نباته ص ٥٧٢

حدود البلاد بحدودها وتترك الفلول في حد الزمان فهي قيود فوق رؤوس الاعداء ونار بين ضلوعهم :

بساحة تذر العفاة اعزة ... وحماسة تذر العزيز ذايلا
وصوارم جت البلاد حدودها ... وارتك في حد الزمان فلولا
فنظمتها فوق الرقاب غلا غلا ... وتخالها بين الضلوع غليلا (١)

ويعيد الفكرة عينها في مكان اخر . فاذا بابي الفداء يجعل السيوف تبكي بدماء اعدائها ، والرماح تتطاول الى الرقاب والاعناق ٠ .. وهذه الاعمال جميعها في سبيل المجد والعلا. وهي الباقيات الصالحات لانها تبيد الفرسان وتحمي البؤساء :

جعلت البيض دامية المآقي
وسمر الخط ترقى في التراقي
مساع للعلى اضحت مراقي
وتلك الصالحات هي البواقي
فترجل فارس الحرب الممارس ... وتجمل راجل الاملاق فارس (٢)

د ـ الاصل الرفيع العالي:

من المعروف ان الملك ابا الفداء من البيت التقوى الذي ينحدر من العنصر الكردي ولقد ظهر منه سلاطين تولوا الملك في مصر وسورية : دمشق (١١٨٦ — ١٢٦٠ م) حلب (١٨٣ — ١٣٦٠ م) اليمن (١١٧٣ — ١٢٢٩ م) وهم جميعا من سلالة ايوب بن شادي ابي صلاح الدين الايوبي (٣) ولقد أشاد الشاعران بهذا الاصل السامي ، فهذا ابن نباته يرى ان ابا الفداء بشمائله وصفاته السمحاء يعطيك صورة عن آبائه واجداده الكرماء العظماء الذين لولا هيبتهم وعطاياهم لم يصف دهر ولم يطب زمن فهم قد رفعوا فوق زحل بيت العلا والمجد الباقي على الايام ممتدا بين زحل والمجرة :

ملك تدلك في الجدوى شمائله ... على شمائل آباء له نجب
يا ابن الملوك الالى لولا مهابتهم ... وجودهم لم يطع دهر ولم يطب

---

(١) ديوان صفي الدين الحلي ص٥٨١
(٢) ديوان الحلي ص٢١٦
(٣) انظر المنجد في الاعلام الطبعة الثانية ١٩٦٩

والشائدين على كيوان بيب علا — تغيب زهر الدراري وهو لم يغب
بيت من الفخر شادوه إعلى عمد — وبالجرة مدوه على طنب(١)

واولئك هم بنو أيوب فالحوا ابواب الامل للناس كافة ومغدقو الاعاجيب ، والذين رفع الهدى اعلامه عن طريق ملكهم فوق سرادقه المنصوب ، والذين افضـوا بمكارمهم وعليائهم صُعدا الى عمادهم ابي الفداء ،

فتحت بنو ايوب ابواب الرجا — وانت بمـكارم بكل عجيب
وبملكهم رفـع الهدى اعلامــه — وحمى سرادق بيته المنصوب
والى عمـادهم انتهت عليــاؤهم — والى العلاء قد انتهت لتجيب (٢)

وفي قصيدة اخرى يعيد لنا الحقيقة قائلا : ان الملك المؤيد سليل العلا والامجاد وتترامى لك فيه مخايل المجد التي تنمى الى الاصل السامي حتى لتعرف فيه صفات ابيه وسمات جده وعلامات اهله السابقين ... ولقد اعطاه القدر صورة فذة عالية رائعة مكنته ان يقابلها يوم التفاخر بالاصل الرفيع :

سليل علا شفت مخايل مجده — ودلت كما دل الفرند على النصل
وتعرف فيه من ابيه شمائلا — ومن جده والسابقين من الاهل
حوى الدهر من علياه اشرف نسخة — فقابلها يوم المفاخر بالاصـل (٣)

بل ان بني ايوب كتبوا نسخة اصلهم بروائعها وكمالاتها ، وانى المؤيد فكان ذروة روائعها :

رقمت بنو ايوب نسخة اصلهـا — واتى فكان تمامها وكمالهـا (٤)

ومن خلال مدح ابنه الملك الافضل تبرز هذه اللفتة البارعة ، فالمعالي والامجاد والقيادة ميراث في اولاد ايوب كميراث النبوة في اولاد يعقوب ، فيا ابن المؤيـد كن كيف شئت ، وكما شئت ، ولا تقلق .. فبنو أيوب في حمى الله عز وجل قبلا وبعداً :

والمعالي في آل ايوب ارث — كالنبوات في بني يعقوب

(١) ديوان ابن نباته ص ٢٢ — ٢٣
(٢) ديوان ابن نباته ص٢٠
(٣) ديوان ابن نباته ص٣٧٧
(٤) الديوان ص٣٧٩

ابق ما شئت كيف شئت ودوموا في حمى الله يا بني ايوب (١)

ونرى ان ابن نباتة يصل بممدوحه ابي الفداء الى النسب العربي حين يمدحه مبينا انه منصهر في بوتقة العروبة :

كم ليلة قال لي فيها ندى يده ياشعر العرب امدح اكرم العرب (٢)

واما صفي الدين الحلي فيذكر هذا الاصل الكريم منذ لقائه الاول بالملك المؤيد ، فهو من بني ايوب الذين قرنوا الشجاعة بالكرم وفاقوا الناس بالمجد والفعال المتزنة ومهروا الملك بدماء اعدائهم :

من آل ايوب الذين لهم حماسة بالسماح مقترنة
ذوي بيوت في المجد سالمة كل افاعيلهن متزنة
م اشتروا الملك غالياً خطراً وصيروا انفس العدى ثمنه (٣)

ومن خلال مدح الملك الافضل تبرز الصورة واضحة اكثر ، فالطبيعة بكل صادحاتها وزهورها وتسالها ورقرقات مياهها كأنها تنشر فضل نجل الملك المؤيد ... وذلك الشهم الكريم العظيم هو من نسل ذلك الشهم الكريم العظيم انه المؤمن الموحد ، وهو السيد ابن السيد ابن السادة المتواصلة سيادتهم :

كأنما تنشر فضل الملك الـ افضل ، نجل الملك المؤيد
أروع محسود العلا امجد من نسل محسود العلا امجد
المؤمن الموحد ابن المؤمن الـ موحد ، ابن المؤمن الموحد
السيد ابن السيد ابن السيد ابن السيد ابن السيد (٤)

وفي قصيدة اخرى يبين أن الملك الافضل اسد يحمي عرينه ، واذا استضافه أحد نزل في امن ودعة فهو سليل الملوك الشجعان المدافعين الذين غدا بهم وادي حماة يتطاولون على المساكين ويسمو فخاراً على نجم النسر الطالع :

---

(١) الديوان ص ٦٤

(٢) الديوان ص ٢٣

(٣) ديوان الحلي ص ٣٢١ في الديوان (غالباً) وهي لاتتناسب مع السياق .

(٤) ديوان ٢٢٤

مليك هو الليث يحمي حماه
اذا ما أتاه نزيل حماه
سليل الملوك الكماة الحماه
ملوك بهم ظل وادي حماه
يطول فخاراً على الاعزل ويسمو على النسر (١)

هـ — التأييد من الله والتقديس :

أكثر الشاعر ابن نباته من إيراد جوانب تتصل بهذه الصفة، فالله سبحانه وتعالى قد اودع في ابي الفداء سراً مستوراً وخبأ لا يمكن لأحد الوصول الى كنهه وجوهره :

لله فيه سريرة مكنونة فضلته الاعيان دون صفاتها (٢)

ويتوجه الى حاسدي الملك المؤيد وشانئيه طالباً اليهم ان يفطنوا الى سر الله المكنون فيه ويقدموا له الطاعة والولاء، لأنه عز وجل قد قدر لهم ان يخضعوا عن الحق وله ان يسود الناس جميعاً :

ناضر معشر حاسديه لو انهم فطنوا لسر الله فيه واذعنوا
الله قدر في العزائم انهم يتحارفون وانه يتسلطن (٣)

وهو بعمله وسماحته قد اثرى الفقراء وسما بهم، فلولا نواهي التقى والورع لسموه بالاله الواهب العاطي والقادر المصرف :

أغنى العفاة فلولا ناهيات تقى استغفر الله ..... سموه بمعبود (٤) ووصل الامر بابن نباته الى ان يصدح بنداء (الله أكبر) بعدما قذف كلمات الحق في رحاب أبي الفداء حين خيل اليه انه ينطق في حضرة روح القدس جبريل عليه السلام :

الله أكبر ضاع الحق مادحكم كأن ناطق في حضرة القدس (٥)

---

(١) ديوان الحلي ص٢٣٥
(٢) ديوان ابن نباته ص ٦٧
(٣) ديوان ابن نباته ص ٤٨٧
(٤) الديوان ص ١٢٧
(٥) الديوان ص ٢٦٤

وفي مكان اخر يقول ان الله سبحانه وتعالى يساعده على مكابدة الشوق اوالهوى وهو في الوقت نفسه قد اقام الملك المؤيد عماد الدين الاسلامي في هذا الوجود :

يقوم بنصري في الصبابة عون من ... اقام ابن ايوب عماداً لدينه(١)

ويقدم ابن نباته بعد ذلك كله فكرة هامة وناحية تستلفت الانتباه ، وهي ان ابا الفداء كان ابعد الناس عن الطائفية والعنصرية ، ويحكم الرعية بالسوية لافرق بين ابيض واسود ، ولاشيعي وسني لانه ربط القلوب كلها بالمودة والحب :

شيدت باسماعيل اركان العلا ... فاليه يلتجيء الرجاء وبركن
ودعا ندى إابن علي كل مودة ... حتى استوى الشيعي والمتسنن(٢)

واما صفي الدين فلم يكثر الحديث في هذه السمة ، وانما اكتفى بالقول : ان الله هو الذي ايد الملك ابا الفداء وامده بالقوة والسلطان فساد الناس ونال مبتغاه :

انت المؤيد من إلهك بالذي ... طلت الانام ونلت السولا(٣)

وفي مكان اخر يؤكد بان الله سبحانه هو الذي اقامه صورة للمعالي وهيأه للخيرات . وقدمه خيراً وحسنا وابعد عنه مايعيبه وينقصه ، فهو تربية ملوك . .

سلطان عصر اله العرش بوأه ... من المعالي والخيرات هيأه
براه زينا وما شأن برأه ... وربيت ملك كان الله انشاه
مسكا وقدر انشاء الورى طينا(٤)

و - دوره في انعاش الشعر والحركة الأدبية واشعال القريحة :

وهذه واضحة في أكثر جوانب ديواني ابن نباته والحلي معاً ، فهذا الملك المؤيد قد أعاد فتح سوق الشعر التي أغلقت منذ زمن بعيد فجاء ابن نباتة ببضاعته ليعرضها أمام ملك الشعراء :

مليك اعاد الشعر سوقاً بدهره ... فجئت الى أبوابه متبضعاً (٥)

(١) ديوان ابن نباته ص٤٨٥
(٢) الديوان ص٤٨٧
(٣) ديوان صفي الدين ص ٥٨١
(٤) ديوان صفي الدين ص٣٦٢
(٥) ديوان ابن نباته ص٢٩٤

ويؤكد حق ان ابا الفداء قد أنشأ للشعر اسباباً لكي يقال بعد ما انعدمت تلك البواعث والدوافع وانعدم الشعر معها .

أنشأت للشعر أسباباً يقال بها ... وهل تنظم اشعار بلا سبب(١)

وقريحة ابن نباتة التي كانت عاجزة متعبة غدت معطاء شاعرة ، فأبو الفداء روى رباه وأباحه بحر الكرم فنظم جواهره ، فلا عجب إذا سلا بلده ، فامامه ديار ابنة العاصي عامرة بالسعادة وبهذا قهرت حماه كل اعدائه ، فأضحت حماه لديه ... القاهرة .

لولاك ما أمت قريحتي الكليلة شـــاعرة
انت الذي روت غمائمـــه رباي العاطرة
وابحتني بحر الندى حتى نظمت جواهره
لا غرو ان سليت عن بلدي حشاي الذاكرة
فلقد وجدت ديار ملكك بالسعادة عـامرة
قهرت حماة لي العدى فحماة عندي القاهرة(٢)

نعم ان أبا الفداء هو الذي دفع ابن نباتة لتنقيح الشعر وتحسينه لا كغيره من الملوك الاعاجم الذين ازدروا بالشعر والشعراء ، فلولا المؤيد لما كانت قصيدته العصماء كالتربة التي جادها وابل من المطر، لقد جاءت قصيدة فريدة لو حاول ابو تمام ان يقول مثلها لعجز وتلكأ ، وكم من اخت لهذه القصيدة طواها وكفها ، ولكثرة الشوق كادت ان تتسلل ... اذا القاها الراوي وقعت دار في فم الصديق وصخراً في فم العدو ، نعم لقد جاءتها نعمك وعطاياك وتوجهاتك لتجمع فنونها وتحل محاسنها بأكثر مما تبغي فاذا هي الكمال بعينه :

وانت الذي اسعفتني فصنعتها ... ولولا الحيا لم يصبح الترب ميتلا
فلو رامها الطائي من قبل لم يقل ... لهان علينا ان نقول ونفعلا
وكم مثلها اهديتها طي مدرج ... تكاد لفرط الشوق ان تتسللا
يفوه بها الراوي فيملا لفظها ... فم الخل دار أو فم الضد جندلا
جمعت بنعمى راحتيك فنونها ... كما جمع السلك الجمان المفصلا

(١) ديوان ابن نباته ص٢٣
(٢) ديوان ابن نباته ص ١٨٧

ومثلك من حلت أياديه حسنها ... فزاد وثنى حظها فتكملا(١)

وكم كان أبو الفداء يقترح على شعرائه معارضة الشعراء المتقدمين ليثير قرائحهم ففي ديوان ابن نباته أن الملك المؤيد اقترح على شاعره النباتي معارضة قصيدة الأسعد بن مماتي (٢) فقال معارضاً :

أفدي قمر ... عقلي قمر ... ثم غدر ... لما قدر
فلا وزر ... ولا مفر ... يا من شهر ... سيف الحور
على البشر ... فما فتر ... حتى استعر ... وهج الفكر (٣)

ولهذا لا نعجب اذا صرح ابن نباته أنه تعلم أنواع الكلام في حضرة أبي الفداء ومن عطاياه فغدا أحسن الناس شعراً وأعلاهم نتاجاً ، حتى أنه اذا سئل من رب المكارم لقال: أبو الفداء ، ومن رب الشعر لقال : ابن نباته :

تعلمت أنواع الكلام برفده ... فأصبحت أعلى الناس شعراً وأحسنا
اذا قيل من رب المكارم في الورى ... أقل هو ، أو رب القريض أقل: أنا(٤)

وأما شأن صفي الدين الحلي فيختلف عن شأن ابن نباتة اذ ان الملك أبا الفداء قد جعل منه ميداناً للمعارضات والاقتراحات وفروسية الشعر وكان الباعث على قوله فنوناً عجيبة منذ اللقاء الأول اقترح عليه مدحه بقصيدة على وزن البحر المنسرح وروى النون والهاء الساكنة فقال صفي الدين مستجيباً الرغبة :

لا راجع الطرف بالقا وسنه ... ان ذاق غمضاً من بعدكم وسنه
لم يقض من وصلكم لبانته ... وان قضى في هواكم زمنه(٥)

وكم كان الملك العالم الأديب يمتحن مقدرة شعرائه بشتى الطرق ، وكانوا كثرة .

---

(١) الديوان ص ١٥٥

(٢) الاسعد بن مماتي : وزير أديب كان ناظر الدواوين في الديار المصرية ولد بمصر عام ٥٤٤ هـ ١١٤٩ م وتوفي بحلب عام ٦٠٦ هـ — ١٢٠٩ م .

(٣) ديوان ابن نباته ص ١٩٤

(٤) الديوان ص ٤٨٩

(٥) ديوان صفي الدين الحلي ص ٢١٠

ومن ذلك انه نظم بيتاً من الشعر على وزن مستحدث هو بحر السلسلة(١) بقافية مقيدة. وقدمه لكثير من الشعراء لينسجوا على منواله ولكنهم تعثروا ووقفوا ، وجاء صفي الدين الحلي فنظم بين يديه ارتجالا أبياتا على هذا الوزن وتلك القافية وبين فيها مكانة الملك وعلمه وأدبه الى أن قال :

يامن جعل العالم الفصيح بليدا ... بالبحث كما صير الفلاسف جهال
لاتعجبان أخطأوا لديك بوزن ... في النظم فللشعر كالمعارك ابطال
لو لم يكن الشعر للمحاول صعبا ... ماأصبح من دونه البيوت بأقفال(٢)

وها هو ذا ثانية يقترح على شاعره صفي الدين وزن البحر الوافر بقافية مقيدة وتوشيحه لزوم مالايلزم فينظم الحلي ملبياً رغبة مليكه بقدرة فائقة :

بروحي جؤذر في القلب كانس ... تراه نافراً في زي آنس
واحوى احور الاحداق ألمى
تكاد خدوده بالوهم تدمى
كأن الحسن لما منه تما
ورأى ان ذاك الروض يحمى
غدا للورد في خديه غارس ... وظل له بسيف اللحظ حارس(٣)

وها هو ذا ثالثة يخترع وزناً ملفقاً من أوزان عدة(٤) ويقترحه على صفي الدين الحلي امتحاناً له فيقول مستجيباً لأبي الفدام ورغبته :

---

(١) بحر السلسلة : هو بحر استحدث في تلك العصور وتفعيلاته هي،
فعلن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ... فعلن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن

(٢) ديوان الحلي ص ٢١٨ .

(٣) ديوان الحلي ص ٢١٥ .

(٤) هذا الوزن ملفق والتفعيلات هي :
فعلن فاعلن فاعلن فعولن مفاعيلن . فيكون المؤيد قد لفقه أما من :
آ ـ المحدث والمتقارب باضافة سبب خفيف على الجزء الأخير .
ب ـ المحدث والمتقارب والطويل .
جـ ـ المحدث والطويل .

بي ظبي حمى ورد خده صارم اللحظ ‏ ‏ قاس غرني منه رقة الخد واللفظ
ذو فرع بمحض اعتناق اردافه محظي ‏ ‏ مالي لم أنل حظه كما قد حكى حظي
بديع المعاني من الاقمار ‏ ‏ أحسن
الينا اسا لحظة واللفظ ‏ ‏ أحسن(١)

ولم يقف عند هذا الحد بل لقد اقترح عليه كذلك الخرجة الزجلية كما يسميها المغاربة والمصريون فقال :

كم خود غدت وهي في غرامي بمثلي ‏ ‏ تلحاني لحتي له وتزري على عقلي
قالت لا تسائل رب الجمال عن الفعل ‏ ‏ لو ان الليالي تجود لي منه بالوصل
كان نترك عتابه ‏ ‏ وتعمل غير ذا الفن
وذاك الذي بيننا ‏ ‏ في الوسط يدفن(٢)

ويستضيف مليكنا المؤيد اخوة من المغاربة وفي احدى الاماسي يغنيه هؤلاء أبياتاً ندق تروقه ، فيلتفت الى الحلي مقترحاً عليه تخميسها ، ويلبي الشاعر القادر فيخمسها بديها في المجلس وهذا مطلعها :

شكوت اليك الجوى ‏ ‏ فلم تسمحي بالدوى(٣)
لقد طال عمر النوى ‏ ‏ جعلت اليك الهوى
شفيعاً فلم تشفعي (٤)

وتؤكد لنا كتب الادب والتراجم على أن أبا الفداء كان لهجاً بالموشحات محباً لها (٥) وله فيها هو نفسه نماذج عديدة (٦) ولهذا ضرب الحلي على وتر رقاق ، فقال

---

(١) ديوان الحلي ص ٤٥٧ – ٤٥٨

(٢) ديوان الحلي ص ٤٥٩

(٣) لعلها (بالدوا) وهي قشرة البطيخ أو العتبة وما شكلها .

(٤) ديوان الحلي ص ٤٤٨ .

(٥) لابن نباتة اكثر من موشح في مدح ابي الفداء انظر الديوان ص ٥٩٢ – ٥٩٤ ولقد اعلمني الدكتور عمر موسى باشا أنه وقع على مخطوط لابن نباتة يتضمن خمسة عشر موشحاً اكثرها في مدح الملك المؤيد .

(٦) انظر كتب التراجم في ترجمة ابي الفداء .

مادحاً اياه في قالب موشح :

ملك معانيه	للورى حرم كوكب
الى معاليه	ينتهي الكرم
قد اغرق الناس	سيله العرم
سحاب جود على الورى هطلا	لابرقه مبطيء النوال ولا ..
حماة أصبحت	للانام حمى خلب
حويت ملكا على	الملوك سما
بحرا غدا	بالعلوم ملتطما
ملك لرزق الأنام قد كفلا	فصار في الناس جوده مثلا(١)

وأرى ماقدمت كافياً لبيان دور الملك المؤيد في اذكاء قريحة شعرائه وترويج بضاعتهم في سوق الادب وتشجيعه لحركة الادبية في عصره حتى أصبح أشهر الملوك الحماة لدولة الادب في تلك العصور .

ز — الهمة والهيبة والعظمة والتواضع والعدل :

ولقد آثرت أن أشرك هذه الصفات بعضها مع بعض لأنها غالباً ماأتت مشتركة وهي واضحة عند ابن نباته أكثر من وضوحها عند الحلي، فها هو ذا ابن نباته يتحدث عن همة أبي الفداء التي جاوزت السماكين ولم تترك للحاسد ونباحه أي أثر .. انه الشريف في تواضع ، والكريم في اعتذار ، وصاحب الهيبة مع الحياء فقد جمع النقيضين في سمو عجيب :

همة جازت السماك فلم يعبأ	مداها بالحاسد العواء
ورقى صاعدا فلم يبق للحا	سد الا تنفس الصعداء
شرف في تواضع ونوال	في اعتذار وهيبة في حياء(٢)

وهو الى هذا عادل ،بل أعدل الحاكمين في كل شيء ما عدا أعداءه وأمواله فانها منه في ظلم مقيم :

---

(١) ديوان الحلي ص ٢١٤
(٢) ديوان ابن نباتة ص ٤ — ٥ .

أعدل المالكين حكماً فما يظلم الا العداة والدينارا (١)

وهو يعرف حق المعرفة انه وحيد عصره وفريد دهره وان ليس بين الناس من يماثله في منزلته وعدله وهيبته وعلمه ، ولهذا راح يباري سؤدد اليوم بالغد :

عليك رأى ان لا مباري في الورى فظل يباري سؤدد اليوم بالغد(٢)

وان الفقراء والعافين مشاركون لأبي الفداء في امواله ، ولكنه في مجده واحد لا شريك له :

وشاركه العافون في ذات مـاله وليس في مجـده من مشارك(٣)

ح ـ الحلم والعفو عند المقدرة والعفة :

ويستمر ابن نباته في تعريفنا الى الصفات التي رآها في مليكه المحبوب ، فماذا هو الى جانب ماهو ممنا حلم الى حد بعيد حتى ان سورة الغضب لا تعرف طريقها اليه ، وليس هذا فقط بل انه كاظم غيظ وعاف عن الناس ، يقضي عن الخطائهم ويجهد لهم الاعذار ، ويعطي النوال بلا سبب فلا يترك عند أحد سوى الحمد والشكر والثناء :

هـذا والحلم معنى في خلائقه لا تستطيل اليه سورة الغضب

يقضي عن السيب المردي بصاحبه عفواً ، ويعطي العطا جما بلا سبب(٤)

واما طبائعه وسجاياه فهي كلها طاهرة نقية لايعرف الملل اليها سبيلاً ولا يتطرق اليها الدنس والحقارة :

وطاهر الخيم لا تثنى خلائقـه على الملال ولا تطوى على الدنس(٥)

ولا يلبث ابن نباته ان يغدق في بيت واحد اكثر صفات أبي الفداء حيث يقول :

---

(١) ديوان ابن نباتة ص ١٩٠ .

(٢) ديوان ابن نباتة ص ١٢٩

(٣) الديوان ص ٣٦٠

(٤) الديوان ص ٢٢

(٥) الديوان ص ٢٦٤

النصر والدنيا الخصيبة والهدى ان صال أو بذل الصنائع أو نطق(١)

ويقول في مكان آخر :

ملك الجود والثنا والمعالي والسجيات كلها والاصاله(٢)

وكذلك فعل صفي الدين الحلي في مثل قوله :

الملك الجامع الفضائل والبنا ذل في الصالحات ما خزنه(٣)

ط ـ حماه .. حمى الملك المؤيد :

ولا بد لي من أقف وقفة متأنية امام ماتتأثر به أشعار ابن نباته والحلي من وصف لعاصمة ملك أبي الفداء : حماه ، ابنة العاصي ومدينة النواعير .. فهذا ابن نباته يرى انها تقف بجلالها وسيادتها في ذروة الطريق ، فطالب الهدى يسعى لمكة المكرمة ، وطالب الجود والرفد يسعى لحماه ، وفي كل حال يجد مايروقه ويعجبه .. فلله ما اشهى واحلى احوالها :

أمـا حماة فنعم دار سيـادة نصبت بمدرجـة الطريق جـلالها

يسعى لمكة وافـد ولإرضهـا ولنعم أرضاً وافد يسعى لهـا

هاتيك قبلة من يروم رشادها وحماة قبلة من يروم نوالهـا

في كل حال حولها لي معجب لله قبا أشهى اذاً احوالهـا(٤)

وفي مكان آخر يرى ان سكان حماة يعيشون أياماً كلها صفاء ، ولحظات كلها نداوة ورقة وجمال :

أما حماة فعيش ساكنها صفو ، وكل زمانه سحر(٥)

---

(١) الديوان ص ٣٣٨

(٢) الديوان ص ٤٠٩

(٣) ديوان الحلي ص ٢١١

(٤) ديوان ابن نباتة ص ٣٧٩

(٥) ديوان ابن نباتة ص ٢٤٧ .

ولقد وصف شاعرنا حماه وطبيعتها وعاصيها ونواعيرها ومحاسنها التي لاتنفد في ارجوزته التي مدح بها الملك الافضل نجل الملك المؤيد في حياة أبيه :

وحبـذا وادي حماة الرحب حيث زهي العيش به والعشب
ارض السناء والهناء والمرح والامن واليمن ورايات الفرح
ذات النواعير سقاة الترب وأمهات عصفه والأبّ ......
تعلمت نوح الحمام الهتف أيام كانت ذات فرع أهيف
فكلها من الحنين قلب لاسيما والماء فيها صب
لله ذاك السفح والوادي الفرد والماء معسول الرضاب مطرد
يصبو اليها الرائي ويهفو السامع ويحمد العاصي فكيف الطائع
اذا نظرت للربا والنهر فارو عن الربيع أو عن جعفر
محاسن تلهي العيون والفكر ربيع روضات وشحرور صفر
أمام كل منزل بستان وبين كل قرية ميدان
أما رأيت الورق في الاوراق .. جاذبة القلوب بالأطواق
فبادر اللذة يا فلان واغنم متى أمكنك الزمان(١)

وأما النواعير فقد استحوذت على اعجاب ابن نباته واغدق عليها من رواه الكثير اذ كان يتخذ من كل لقطة مجالاً لنكتة بديعية أو بيانية، ويحوي ديوانه ماينوف على عشر مقطوعات فيها ، وها هو ذا يرى الناعورة بشراً سوياً فهي تبحث عن قلبها الضائع وتدور عليه ، واضلعها واضحة معدودة لكثرة ضعفها وسقامها ، ودموعها تهمل فتجري على جسدها لكثرتها وغزارتها :

وناعورة قالت وقد ضاع قلبها وأضلعها كادت تعد من السقم
أدور على قلبي لأني فقدتـــه وأمادموعي فهي تجري على جسمي(٢)

وفى مكان آخر يعود بالناعورة الى أصلها البعيد حين كانت شجرة مثمرة في روضة يانعة تقف سامقة متفاخرة تعانق الشمس والانسام ، ولا ترى في الحياة حزناً ولابلاء ، ولكن الحمائم الولهى تكاثرت على اغصانها تبكي صباح مساء فسرى اليها فيض من الهموم والاسى . واتى الانسان القاسي فاجتثها من جذرها واقامها ناعورة على العاصي بعيدة عن تربتها فراحت تعيش ماضيها وتستعيد اسيها وصور الحمائم الباكية . .. وراحت

(١) الديوان ص ٥٨٥ — ٥٨٦ .

(٢) حماة — مدينة النواعير (قدري الكيلاني) ومع النواعير (الفداء عدد ١٧١١) .

تذرف الدموع الغزار ونواحها يتصاعد في الاجواء مشابها نوح الورقاء الحزينة :

ناعورة نشأت على عهد الامى … ولها لما تنفك ذات توجع
كانت قضيباً قبل ذلك يانعـا … في ايكة نبتت بأعلى موضع
ناح الحمام بها وأبكاني الامى … فتعلمت نوح الحمامة ادمعي(١)

واما صفي الدين الحلي فانه – والحق يقال – قد أفاض واحسن وابدع في وصف حماه وآفاقها واجوائها ورياضها رغم قصر المدة التي قضاها فيها بالقياس الى سنوات ابن نباته بين جنباتها ، ويبدو لي ان انفسية الحلي التي كانت تتجاوب مع مشاهد الطبيعة الفاتنة دورا كبيرا في ذلك . فها هو ذا يطيع نداء الهوى والانطلاق رغما على من عصى وانكر حين نزل على ناعورة العاصي ثم ارسل الى اخوانه بالحلة من اهل شعلان وبغراص يعلمهم عن دنياه الجديدة وعيشه الهانيء السعيد وبانه شغل عنهم بمرابع اهل ابنة العاصي وما فيها من جمال وفتنة :

اطعت داعي الهوى رغما على العاصي … لما نزلنا على ناعورة العاصي
وبات لي بمغاني اهلـها . وبها … شغلان عن أهل شعلان وبغراص
والريح تجري رخاء فوق جدولها … والطير مابين بناء وغواص
وقد تلاقت فروع الدوح واشتبكت … كانما الطير منها فوق أقفاص(٢)

وهاهو ذا ثانية يستطيب تلك الايام التي قضاها قرب ابي الفداء يسعد بالوصال وينعم باللقاء وكأنهم يعانقون اجواز الفضاء ، فياحبذا نهر العاصي ، وياحبذا طيب اهله وامواهه الرقراقة وصفحة سمائه واغصانه وطيوره … :

لله (ايام) مضت في قربه … والدهر منه بالوصال مسعدي
ونحن في وادي حماه في حمى … به حللنا فوق فرق الفرقد
فحبذا العاصي وطيب شعبه … ومائـه المسلسل المجعد
والفلك فوق لجة ، كأنها … عقارب تدب فـوق مبرد
وناجم الازهار من منظم … على شواطيه ، ومن منضد
من زهر مفتتح او غصن … مرنح ، او طائر مغرد
والورق من فوق الغصون قد حكت … بشدوها المطرب صوت معبد(٣)

(١) الديوان ص ٣٤٥ ومع النواعير (الفداء عدد ١٧١١)
(٢) ديوان الحلي ص ٢٩٠ ومع النواعير (الفداء رقم ١٧٤١)
(٠) صوابها (لله آيام)
(٣) ديوان الحلي ص ٢٢٣

ونراه في ثالثة ينساب مع روحه الصافية فيلتقط من وادي حماة صورا فنية اخاذة اسرة تعجب وتروق وتأخذ بمجامع القلوب ، ونترك الابيات نفسها تحكي مابها دون ان اقدم لها بشيء :

سقى حمى وادي حماة الحيا ... وصيب الودق وهتانه
وحبذا العاصي ، وياحبذا ... دهشته الغرا ، وميدانه
واد اذا مر نسيم به ... تعطرت بالمسك اردانه
تستأسر الابطال آرامه ... وتقنص الآساد غزلانه
كم فيه من ظبي هضيم الحشا ... اذا انثنى يحسده بانه
تشابهت عند مرور الصبا ... قدود اهليه واغصانه
كم ليلة قضيت في مرجه ... وقد طمت بالماء غدرانه
والافق حال بنجوم الدجى ... قد كللت بالدر تيجانه
كانما الجوزاء فيه وقد ... حف بها البدر وكيوانه
بيت بني ايوب اذ شيدت ... بالملك الناصر اركانه (١)

ملحوظات وتعقيبات :

(٢) قبل أن أعطي الشخصية المؤيدية مجتمعة كما وردت عند ابن نباته والحلي لابد لي من إيراد بعض الملحوظات والتعقيبات التي تبدو لي من الأهمية بمكان :

١ ـ لم يرد في شعر ابن نباته والحلي أية إشارة الى مجلس خمر لأبي الفداء وهذا دليل على أن الرجل كان بعيداً عن هذه المجالس ، ويزداد اليقين حين نرى الشاعرة ابن نباته يصف مجالس الخمر التي مرت به مع أصدقاء خلص له ولم يرد ذكر أبي الفداء كمشارك لهم اطلاقاً ، فمنها قوله :

يا صاحبي أراها الدهر شوالا ... فبادرا وانصبا للذة الحبالا
لا تحذرا منع عفو الله موبقه ... تخشى ولا منع ندى السلطان اقلالا
جاد المؤيد حتى كدت احسبه ... منع فضل فطنته لا يعرف المالا (٢)

٢ ـ قصائد الحلي كانت تهجم على الموضوع مباشرة أحياناً ، وأحياناً أخرى تمهد له بالوصف وأما قصائد ابن نباته فغالبها الأعظم كان يبتدأ بالغزل المذكر أو المؤنث أو وصف الخمر وكان يحسن التخلص الى كرم أبي الفداء غالباً أو شجاعته أو حلمه ومن ثم

(١) ديوان الحلي ص ٢٢٠ – ٢٢١
(٢) ديوان ابن نباته ص ٥٥٨

يستغرق في تبيان مناقبه الاخرى وهذه أمثلة تغني عن البقية .. يقول ابن نباته :

كم رمت كتم الجوى فيه فنم به   الى الوشاة لسان المدمع السرب
جادت جفوني بحمر الدموع له   جود المؤيد للعافين بالذهب (١)

وكقوله :

هاتها في يديه عذراء تجلى   لتد اماي في قلائد در . . . . .
ليت شعري وللسرور إهتزاز   أي شيء يعوقنا ... ليت شعري
زمن الأنس قائم بالتهاني   ونوال الملك المؤيد يسرى (٢)

وكقوله :

كيف الخلاص لمطوى على شجن   وقد تمالت عليه أعين السحرة
تغزو لواحظها في المسلمين كما   تغزو سيوف عماد الدين في الكفرة (٣)

وكقوله :

مهما سلوناه فلا تسلو لياليتا   ونسيا نسينا فيلا والله للنسيانا
ترعى عهودك في حل ومرتحل   ومي ابن أيوب حال إلا لذ الشاكي (٤)

فهل هذا نوع من التقليد للسابقين من الشعراء ... أو أن هذا الشيء يوافق رغبات الملك المؤيد نفسه أو رغبات الشاعر ذاته ... ؟؟ واني للأول أميل .

٣ ـ لقد أبدع الحلي في الوصف وأجاد في المدح بعض معاني ابن نباته وأفكاره وصوره ، بينما كان مدح ابن نباته أقرب الى الصدق ويحمل بين ثناياه لهيب العاطفة مع نصيب من الأصالة ، وبهذا أرى أنها تمم بعضها بعضاً وأعطيا الصورة متكاملة لا ينقصها ظل ولا تفتقر الى لون .

٤ — ان ماورد في شعر ابن نباتة بخاصة حول انصهار اصل ابي الفداء في الاصل العربي وحول سعة افقه الديني وبعده عن التعصب الطائفي (حق امتوى الشيعي والمتسنن) يدعمان شخصيته العلمية التاريخية التي تتركز على الحياد كاول منطلق .

٥ ـ لقد كانت النكتة البديعية والتلاعب اللفظي يظللان النتاج الحلي وابن نباته معا حتى ليندر ان نجد بيتا خلوا من جناس او طباق او تورية أو مقابلة او لف ونشر

(١) الديوان ص ٢٢
(٢) الديوان ص ١٨٤
(٣) الديوان ص ١٩١
(٤) الديوان ص ٣٦١

او تذييل او التفات او اكتفاء او مراعاة نظير او ردعجز على صدروما لها ....ولولا رسيس العاطفة والتمكن من فن القريض لما استسيغ بيت واحد ، ولاعجب فالشاعران كلاهما علمان باوزان طوال فترة من الزمن اربت على خمسمائة عام. ونستطيع مما عرضناه من شعرهما ان نتعرف الى فن المديح في هذه العصور بشكل خاص ونوعية الشعر بشكل عام.

والآن ان لنا ان نري مناقب ابي الفداء مجتمعة كما بدت في شاعرينا ابن نباته والحلي .. ان الرجل كريم وعالم وشجاع في الدرجة الاولى ، وهذه اكثر الصفات ورودا وتأكيدا فما من قصيدة خلت منها سواء عند ابن الحلي او ابن نباته ، ويلحق بها الصلاح والعدل والهمة والهيبة والعظمة والتواضع والحلم والعفو وسمو الاصل والتأييد من الله، والتقدير والصدق والعفة والطموح وحامي حمى الاسلام وهو من انعش الحركة الادبية بعد سقوطها ومن اشمل قرائح الشعراء بعد جفاف وموت .

ولو رجعنا الى صورة الممدوح في الادب العربي لوجدنا ان شعراءنا منذ العصر الجاهلي مدحوا اول مامدحوا بالكرم والجود وارتفاع القدر والشجاعة والحزم والحذر وصلة الرحم وافضل الفعال ونجد ذلك في شعر النابغة والاعشى وحسان والحطيئة وغيرهم(١).

وفي العصر الاموي اكد الشعراء على هذه الصفات وزادوا عليها شدة الهمة والقوة في الخلافة والنسب العالي الرفيع الذي يسمو على العالمين جميعا واصبحت غاية الشعراء هي التكسب كما نرى عند الاخطل والفرزدق وجرير وغيرهم(٢)

واذا ما انتقلنا الى العصر العباسي رأينا الشعراء يمتدحون ويتكسبون كذلك بشعرهم يرجون النوال والعطاء ولكنهم زادوا في معاني هذا المديح وصوره مايتلاءم مع الحضارة العباسية والحياة الاجتماعية الجديدة ومواسم الخلافة والملك واعياد البلاط ومناسبات الحرب والسلم وأضفوا على المعاني القديمة صورا براقة تصف هؤلاء الخلفاء بما يتناسب الملك الجديد(٣) .

فالممدوح يصلح الفاسد ويمنع الفاحشة وينشر العطور والطيب بين يديه ويأمر بالعدل والاحسان ويتعلق بالدين ، وهو عادل أمين ، يبسط الامن في البلاد ، تقي ، فصيح العبارة عندما يخطب ، يكره الفحش ، حليم .

شهم ، وقور ، يضحك حين يعطي ، ويدعى له بطول البقاء لان بقاءه بقاء للاسلام، واهله فهو الذي ابطل عمود الشرك واستحق شكر الدين .. وهو ينزع التحاسد والتباغض

(١) المديح (سامي الدهان) ص ١٧ – ٢١
(٢) المصدر نفسه من ٢١ – ٢٥
(٣) المصدر نفسه ص ٢٥

من قلوب الرعية ويجمع شتات ارائهم ويجدد عهد ابائه واجداده وبخاصة حين يلمع وجهه في المعارك فتنجلي السحب وينقشع الجو ويكبر المسلمون ويهزم الكفار (١) . ونجد ذلك واضحا في شعر بشار وابي نواس ومسلم بن الوليد وابي العتاهية وابي تمام والبحتري وغيرهم.

على ان صورة المدوح بمناقبها الرئيسة قد تكاملت وبلغت مداها عند الشاعر ابي الطيب المتنبي في مدوحيه بعامة وسيف الدولة الحمداني بخاصة ، اذا اضحى المعظم أو المثل الاعلى عنده هو : الشجاع .. الكريم .. صاحب العقل الراجح .. صاحب العزية .. والنبوغ المبكر .. والوفاء والصدق والهيبة والطموح والعفة والفصاحة ولطف المعشر والدفاع عن الاسلام والمسلمين (٢) .

فهل بين هذه الصور جميعاً وبين صورة أبي الفداء التي ظهرت لنا من ثنايا شعر ابن نباته وصفي الدين الحلي فروق واضحه ..؟؟

إن الذي يبدو لي ان الصورة هي في اكثر جزئياتها ودقائقها ، على ان صفتين برزتا واضحتين وخاصتين اكثر من غيرهما .. وهما صفة ابي الفداء الملك العالم اولاً ودوره في انعاش الحركة الادبية بعد سقوطها واشعال قرائح الشعراء بعد جفاف وموت ثانياً ... ويقيني انها ابرز صفات ابي الفداء التي تميز بها من غيره من الملوك سواء أكان في عصره أم في غيره من العصور .

اهم المراجع والمصادر

١ — ديوان ابن نباتة المصري — طبعة ثانية — دار احياء التراث العربي — بيروت — بدون تاريخ.
٢ — ديوان صفي الدين الحلي — طبعة اولى — دار صادر ودار بيروت — ١٩٦٢ م .
٣ — دائرة المعارف الاسلامية .
٤ — المنجد في الاعلام — طبعة ثانية — دار المشرق — بيروت — ١٩٦٩ م .
٥ — الاعلام للزركلي .
٦ — القاموس المحيط للفيروز بادي .
٧ — اساس البلاغة للزمخشري .
٨ — المصباح المنير للفيومي .
٩ — الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة — لابن حجر — طبعة اولى — مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية في الهند — سنة ١٣٤٨ هـ .

(١) المديح (سامي الدهان) ص ٢٥ — ٣٢
(٢) المحصول الفكري للمتنبي (سهيل عثمان — منير كنعان) ص ١٥٢ — ١٥٨

١٠ـ ديوان ابن زيدون ـ طبعة اولى ـ تحقيق علي عبد العظيم ـ مكتبة نهضة مصر ١٨٥٨ م.
١١ـ ديوان المتنبي ـ طبعة ثانية ـ شرح عبد الرحمن البرقوقي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت بدون تاريخ .
١٢ـ قصص العرب ـ محمد احمد جاد المولى ورفاقه ـ طبعة اولى ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصر ١٩٣٩ / م .
١٣ ـ الادب في العصر المملوكي ـ محمد زغلول سلام ـ طبعة اولى ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٧١ م.
١٤ـ المحصول الفكري للمتنبي ـ سهيل عثمان ومنير كنعان ـ طبعة اولى ـ دار الارشاد ـ بيروت ١٩٦٩ م .
١٥ـ المديح ـ سامي الدهان ـ طبعة اولى ـ دار المعارف ـ مصر ـ بدون تاريخ.
١٦ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ جرجي زيدان ـ دار ـ الهلال مصر ـ ١٩٥٧/م .
١٧ـ صفي الدين الحلي ـ محمود رزق سليم ـ طبعة اولى ـ دار المعارف مصر ـ ١٩٦٠/م.
١٨ـ ابن نباته ـ عمر موسى باشا ـ طبعة اولى ـ دار المعارف ـ مصر ١٩٦٣ / م .
١٩ ـ في اصول النحو ـ سعيد الافغاني ـ طبعة ثانية ـ مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧/م.
٢٠ـ تاريخ آداب العرب ـ مصطفى صادق الرافعي ـ مطبعة الاستقامة ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ / م .
٢١ ـ عصر الانحدار ـ محمد اسعد طلس ـ طبعة اولى ـ دار الاندلس ـ بيروت ـ ١٩٦٣/م .
٢٢ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ شوقي ضيف ـ طبعة ثالثة ـ مكتبة الاندلس ـ بيروت ١٩٥٦ / م .
٢٣ـ تاريخ الادب العربي ـ حنا الفاخوري ـ طبعة سادسة ـ المطبعة البوليسية بيروت بدون تاريخ .
٢٤ـ تاريخ الادب العربي ـ احمد حسن الزيات ـ طبعة خامسة ـ مطبعة الاعتماد ـ مصر ١٩٣٠ / م .
٢٥ ـ الادب العربي وتاريخه ـ محمود مصطفى ـ طبعة ثانية ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصر ١٩٣٧
٢٦ ـ ادباء العرب ـ بطرس البستاني ـ طبعة ثالثة ـ مكتبة صادر ـ بيروت ـ بدون تاريخ.
٢٧ـ ادب العرب ـ مارون عبود ـ طبعة اولى ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ ١٩٦٠/م .
٢٨ـ الرؤوس ـ مارون عبود ـ طبعة ثانية ـ دار المكشوف ـ بيروت ـ ١٩٥٩ /م .
٢٩ـ تاريخ حماه ـ احمد الصابوني ـ طبعة اولى ـ المطبعة الاهلية ـ حماه ـ بدون تاريخ.
٣٠ـ تاريخ حماه ـ قدري الكيلاني ـ مخطوط .
٣١ـ ابو الفداء ـ حياته وآثاره ـ وليد قنباز ـ دراسة جامعية مخطوطه ١٩٦٠/م .
٣٢ـ صحيفة الفداء الحموية
٣٣ـ مقالات متفرقة في الصحف والمجلات .